﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

إلٰهُنا

البراهين العقلية على وجود الله تعالى

تأليف:

حضرة مرزا بشير أحمد رضي الله عنه

تعريب: عبد المجيد عامر

اسم الكتاب: إِلٰهُنَا

الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ الموافق لـ ٢٠١٧م

An Arabic rendering of

Hamaaraa Khudaa (Our God)

Written by:
Hazrat Mirza Bashir Ahmad (May Allah be pleased with him)

(Arabic translation)

Translated from Urdu by: Abdul Majeed Amir

First Published in UK in 2017

© Islam International Publications Ltd.

Published by:
Islam International Publications Ltd
Unit 3, Millbourne Business Park,
Guildford Road, Franham, Surrey
GU9 9PS

Printed in UK at:
Raqeem Press
Franham, Surrey
GU9 9PS

For further information please contact:
Phone: +44 1252 891330
Fax: +44 1252 821796

www.islamahmadiyya.net

ISBN: 978-1-84880-793-8

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

يسعدنا أن نقدّم لقراء العربية ترجمة كتاب حضرة مرزا بشير أحمد ، نجل سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي . ولقد حظي بشرف تعريب هذا الكتاب الداعية الإسلامي الأحمدي عبد المجيد عامر وصدر بإشراف المكتب العربي المركزي وبالتعاون مع عدد من الإخوة العرب الذين أسهموا في أعمال المراجعة والتدقيق، ونخص بالذكر السيد خالد عزام، والدكتور وسام البراقي.

نتقدم بخالص الشكر لكل مَن ساهم في نشر هذا الكتاب داعين أن يجزيهم الله أحسن الجزاء ويجعله في ميزان حسناتهم، كما نسأل الله تعالى أن يوفق القراء الكرام للاستفادة من هذه الكنوز، ويجعلها سببا لهداية الباحثين عن صراط الله المستقيم، آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة المؤلف

للطبعة الثالثة الأردية

لقد بدأتُ في تأليف هذا الكتاب "إلـــهنا" في وسط عام ١٩٢٥م ولكن حالت دونه بعض العراقيل وتوقف العمل قبل اكتماله، حتى أتممتُه في تشرين الثاني عام ١٩٢٧م ونُشرت طبعته الأولى في كانون الأول من العام نفسه.

إنه لمن دواعي سعادتي أن الشريحة ذات الثقافة الحديثة في البلاد -الذين يستهدفهم الكتاب في الحقيقة- قد استحسنوه وثبتت بسببه بعض الأقدام الـــمُتَزَعْزِعة، ونالت بعض القلوب الواجفة سكينة روحانية، فالحمد لله على ذلك، والله الموفق والمستعان.

صدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب في قاديان في كانون الأول عام ١٩٤٦م، وعند إعداد الطبعة الحالية له قمتُ بمراجعة عابرة له وأضفت إليه ثلاثة فصول وجيزة. الفصل الذي أدرجته بعنوان: "دليل الملحدين السابع والرد عليه"، مبني على نظرية العالم والفيلسوف الأوروبي المعروف سيغموند فرويد Sigmund Freud. أما الفصل الثاني فيناقش الاشتراكية التي تحمل اليوم راية الإلحاد. ولكن هذين الفصلين مختصران جدا، لأن المقام ما كان يتسع لأكثر من ذلك. أما الفصل الثالث فيحتوى على تتمة وجيزة تلقي

لمحة خاطفة عن الجزء الثاني من الكتاب، والمتعلق بالبراهين على وجود الله تعالى التي تتحدث عن "المشاهدة". الطبعة الحالية هي الطبعة الثالثة للكتاب، وأسلّمه إلى الطبع بعد مراجعة عابرة جدا نزولا عند رغبة "نظارة التأليف والتصنيف لصدر أنجمن أحمدية بربوة". وأدعو الله تعالى أن يحظى الكتاب بالقبول أكثر من ذي قبل.

إن أركان الإيمان في الإسلام خمسة، أي (١) الله، (٢) الأنبياء، (٣) كُتب الله، (٤) ملائكة الله، (٥) البعث بعد الموت. ولكن التأمل العميق فيها يوحي أن الإيمان يكتمل بالركن الأول والثاني المذكورين وحدهما، أما الأخرى فهي تابعة لهما ومشمولة فيهما. إنه لمن دواعي سعادتي واعتزازي أن سنحت لي الفرصة للخدمة المتواضعة، بحسب فهمي وقدرتي، بحق البارئ تعالى وسيد المرسلين ﷺ؛ أي قد وفِّقتُ لتأليف كتاب "إلهنا" عن وجود الله تعالى، وكتابٍ آخر هو "سيرة خاتم النبيين" عن حياة النبي ﷺ. أرجو من الإخوة الدعاء ليوفقني الله في بقية أيام حياتي، قبل أن يعلو صوتٌ يقول إن فلانا لم يعد حيا، لخدمةٍ تكون مدعاة لرضا الله ﷻ عني وتسدّ ضرورة حقيقية لدينه، آمين يا أرحم الراحمين.

العبد المتواضع

مرزا بشير أحمد

في ١٩٥٥/٩/١م

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم
بفضل الله ورحمته، هو الناصر

بعض التصريحات الأوّلية عن وجود اللّه تعالى

التمهيد

منذ فترة طويلة كانت في قلبي رغبة عارمة بكتابة مقال لفائدة شبابنا الأعزة وإخواننا الكرام عن وجود الله تعالى، وأسجل فيه بأسلوب سهل وسلس أدلةً تُثبت أن لنا إلها خالقا ومالكا، وأن إنشاء العلاقة به ضرورية جدا، وأبيّن فيه أيضا صفات إلهنا وفوائد إنشاء العلاقة به، وكيفية إنشاء العلاقة به ﷻ، وهلمّ جرا. ولكنني لم أستطع آنذاك أن أحقق رغبتي هذه لأسباب عديدة. أما الآن فقد طرح عليّ قبل بضعة أيام أحد أقاربنا[1] بحسب أسلوبه الخاص بعض الأسئلة عن وجود الله تعالى، وهذا الأمر أثار رغبتي القديمة مجددا، واعتبرتُ أسئلته تحريضا من الغيب، وشرعتُ في تأليف هذا المقال. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلت وإليه أنيب.

---

[1] لقد توفِّي قريبنا هذا، متّعه الله بحسنات الدارين وغفر له وأكرمه بفضله ورحمته. من المؤلف.

لا يفهمنّ أحد من بياني هذا أنني قمتُ بتحضير خاص لهذا المقال أو أريد أن أناقش هذا السؤال من الناحية العلمية بوجه خاص، بل الحق أنني لا أنوي إلا أن أحرر بإيجاز وبأسلوب سَلِسٍ وبسيط لشبابنا وإخواننا بعضا من معلوماتي حول هذا الموضوع، لعل مقالي هذا يكون مدعاة لهداية روح ضالة ولثبات قدم مُتَزَعْزِعَةٍ، أو سببا لسكينة قلوب واجفة، وأن يعرف إخواننا ذلك الربّ والمالك الحنون الذي يحب أكثر من كل محبٍّ، والذي معرفته هي الهدف الحقيقي من حياتنا.

ولكن قبل البدء في هذا المقال أتضرع إلى الله تعالى بالدعاء: "يا إلهي، إنك مطّلع على نقاط ضعفي كلها، ولا تخفى عليك حالتي العلمية والعملية، وفِّقني بفضلك وارزقني قدرة لأكمل هذا البحث بحسب رضاك، واجعل في كلماتي تأثيرا واجعل قلمي يجري بالحق والصدق فقط ليستفيد عبادك من بياني هذا ويحققوا بمعرفتك الهدف الحقيقي من حياتهم. ويا ربي الهادي والمرشد، إنك أعلم بي وبما لا أعلم عن نفسي، وما إذا كانت نيتي صالحة. فإن كان في نيتي فساد كامن في علمك، فارحمني أنا العبد الضعيف وأصلحني حتى لا يُحرَم بياني هذا بسبب سوء أعمالي من بركات تنـــزل منك لتأييد الحق والصدق. آمين يا أرحم الراحمين.

حالة الإيمان بالله في العصر الراهن

أولا وقبل كل شيء أريد أن أذكر هنا حالة مؤسفة للغاية ومؤلمة إلى أقصى الدرجات تُلاحَظ في الناس في العصر الراهن عن الإيمان بالله. من

المعلوم أن جميع الأديان الموجودة في العالم تدّعي شكليا إيمانها بالله، ويدّعي المنتمون إليها أيضا الإيمان بالله، سوى القلة القليلة الذين ينكرون وجوده علنا. ولكن لو تأملنا في الموضوع أكثر وفحصنا حالة الناس الإيمانية بعمق، لتبين بجلاء أنهم يؤمنون إيمانا تقليديا فقط وليس له أدنى علاقة بالحقيقة. فما دام إيمان الناس يعلّمهم أن لكم إلـــها كما ظلوا يسمعون من آبائهم وأجدادهم كابرا عن كابر أن لهم إلـــها، ويشعرون أيضا أنه لا بد تجنبا لتشتت الشمل من أن يبقوا ثابتين على المبدأ الأساسي لدينهم، كذلك يصعد من قلوبهم صوت الفطرة بين حين وآخر بأنه من الممكن أن يكون لهم إله في الحقيقة، فلا يتجاسرون على إنكاره بل يثبتون في الظاهر على اعتقاد أن لهم إلـــها. ولكن الحقيقة أنهم لا يعتقدون بوجود الله، وقلوبهم خالية من الإيمان خلوَّ بيتٍ خرب من سكانه.

لا أقول ذلك عن أفراد قوم معين أو أتباع دين معين، بل أقول ذلك عن الأديان كلها وعن الناس كلهم؛ لأنني أرى أن هذا السم، الذي يجب أن يسمَّى سم الإلحاد، قد تسرب إلى حد كبير إلى أتباع الديانات كلها مثل الزرداشتيين والبوذيين والهندوس واليهود والنصارى والسيخ والمسلمين وغيرهم. ولم تترك أهوية المادية الفتاكة بستان الإيمان في العالم كله إلا وقد أحرقته وجعلته رمادا. لو طلب أحد دليلا على ادّعائي هذا فيمكنني أن أقدّم عليه أدلة لا يمكن لعاقل غير متعصب إنكارها. غير أنني أسأل هنا أولئك الذين يرتابون في ذلك: هل يمكنهم أن يقولوا بأمانة،

بالنظر إلى حالة قلوبهم وإلى أحوال من حولهم، أنهم ومعارفهم يؤمنون بالله في الحقيقة؟ لا أقصد من الإيمان هنا الإيمان التقليدي الذي سمعوه وورثوه كابرا عن كابر، بل أقصد منه الإيمان الحي والحقيقي. هل وجود الله محسوس ومشهود عندهم مثل الأشياء المادية الأخرى في الدنيا؟ أي هل يؤمنون بالله كما يؤمنون بالشمس والقمر والجبال والأنهار، وبأن هذا بيتنا وهذا أبونا وهذا صديقنا؟ وإن لم يكن الأمر كذلك فاعلموا جيدا أن هذا الإيمان ليس إيمانا، بل فيه ريبٌ، وأنكم تضمُّون إلى صدوركم جثةً عفنة ضمةَ الأحياء.

وإذا قلتم بأن درجة الإيمان التي ذُكرت هنا إنما هي مرتبته العليا التي لا يصل إليها إلا قلة قليلة من الناس ولا ينالها إلا الخواص، لقلتُ بأنَّ قولكم هذا دليلٌ آخر على جهلكم، لأن درجة الإيمان النهائية لم تخطر حتى على بالكم، ولعل معظمكم لا يمكن أن يتصورها أيضا. إن درجة الإيمان المذكورة آنفا، أي الإيمان بالله مثل إيمان المرء بالأشياء المادية في الدنيا، إنما هي إحدى درجات الإيمان المتوسطة.

ألم تقرؤوا في الحديث قول النبي ﷺ الذي يفيد أن من درجات الإيمان العادية أن يحب المرء أن يُلقى في النار ويصبح رمادا ولا يُفلِت الإيمان من يده؟ ولكن إن كنتم تجدون إيمانكم أدنى مرتبة من ذلك فأسألكم: هل لكم أن تقولوا بأمانة إن إيمانكم يؤثر عمليا في حياتكم كحقيقة ثابتة؟ أي هل تشعرون بحب الله في قلوبكم وتخافون سُخطه في الحقيقة؟ وهل يحث

إيمانكم على كسب الحسنات ويمنعكم من السيئات؟ هل تتوكلون على الله تعالى في الحقيقة في كافة أموركم ولا تتَّكلون على الأسباب المادية؟

لا أقصد من هذا الكلام إذا كنتم تشعرون بالارتباط مع الله تعالى في حين من الأحيان أم لا؟ أو هل تمنعكم فكرة الإله من الذنب وتحثكم على الحسنات أم لا؟ أو هل يصل نظركم إلى الله أحيانا عابرا الأسباب المادية أم لا؟ لأن حدوث ذلك بين فينة وفينة لا يمكن أن يكون نتيجة الإيمان، بل يمكن أن تطرأ هذه الحالة على مَن كان حائزا على بصيرة تجعله لا ينكر الله وتنشأ في طبيعته في حين من الأحيان فكرة أنه قد يكون في الحقيقة إلهٌ خلقه، وهو الذي يدير نظام الكون كله، وأنه سيقف أمامه يوما. لا شك أن شخصا مثله سوف يشعر ببعض الارتباط مع وثن الإله الخيالي، وأن فكرته هذه سوف تمنعه أيضا من الذنب أحيانا، وتحثه على كسب الحسنة أحيانا أخرى، كذلك يصل نظره إلى الله تعالى عابرا الأسباب المادية، وسيشعر بأن الجدير بالتوكل الحقيقي هو الله وحده. ولكن من الواضح أن هذه الحالة لا يمكن أن تسمَّى حالة الإيمان، بل هي حالة الشك والارتياب التي تخلق في طبيعته تارة تأثيرا إيجابيا وتارة أخرى تأثيرا سلبيا. لن تُعَدّ الحالة حالة إيمان ما لم ينشأ يقين حيٌّ بالله تعالى، وما لم يكن هذا اليقين ثابتا في القلب على بصيرة كظاهرة دائمة، ويصبح جزءاً من حياة الإنسان لا يتجزأ، ويصير غذاء روحه، ويفيده كل حين وآنٍ كمصباح الهداية الذي يحذِّره من سبل الذنوب، وبواسطته تنكشف

أمام عينيه سبل الحسنة كلها باستمرار، وتغدو الأسباب المادية كلها تافهة في نظره. بمعنى أنه لا يعود يتّكل عليها، بل يكون توكّله الحقيقي على الله تعالى الذي هو خالق الأسباب كلها، وأن تكون نار حب الله مشتعلة في قلبه دائما وتكون خشية سخطه غالبة على قلبه.

الآن قولوا بأمانة؛ هل تجدون هذا النوع من الإيمان في قلوبكم؟ وإلا، كما هو الحال في الحقيقة، فاخجلوا من تسمية أنفسكم مؤمنين وتحرَّوا الإيمان الذي ينـــزل من السماء وينوّر كالمصباح الكهربائي القوي جدا زوايا القلب البعيدة والمظلمة، حتى لا يبقى وجود الله كوثن خيالي نحتته أفكاركم، بل يتراءى حيًّا وقيوما وقديرا وعزيزا، ولكن كملك مشفق وحنون، وتكون حكومته محسوسة ومشهودة للناظرين أكثر من حكومات الملوك الدنيويين في هذا العالم.

باختصار، الحقيقة البيِّنة التي لا يمكن إنكارها هي أن الإيمان الحقيقي مفقود من هذا العالم في العصر الراهن، وليس مفقودا من قلوب عامة الناس فقط، بل إن قلوب الذين يسمَّون زعماء دينيين ويدّعون إقامة الناس على الإيمان أيضا، صارت عرضة للإلحاد. فإنهم إما يخدعون الناس أو هم أنفسهم مخدوعون، لأنهم يقولون كل شيء بلسانهم ولكن ليس في قلوبهم شيء. لا شك أن العالم محاط في الوقت الحالي بظلمة خطيرة من حيث الروحانية والإيمان الصادق، ولا يُرى في أية زاوية من زواياه حتى مصباح خافت الضوء يمكن أن يستنير به ولو قليلا طريق المسافرين

المتعثرين وضالّي الطريق. ألم تكن هناك ضرورة في هذا الوقت المظلم الحالك الظلمة أن تطلع شمس تجليات ربنا الرحمن بحسب سنته القديمة على قلب عبد طاهر من عباده وتنوّر العالم؟

فيا أعزائي، انهضوا وأَخضِعوا جبينكم على عتبات الله، لأن إلهكم نظر إلى حالتكم وأطلع لكم شمسا روحانية من أفق الشرق. افتحوا الآن نوافذ قلوبكم ودعُوا أشعته النورانية تدخلها لتزول ظلمة الشكوك والشبهات ويتحول ظلام الليل إلى ضوء النهار.

إذا كان الله موجودا فلماذا لا نراه؟

والآن، قبل أن أدخل في صلب الموضوع، أريد أن أزيل شبهة تخالج قلوب الناس عن وجود الله عادة، وهي أنه إذا كان الله موجودا فعلا فلماذا لا نراه؟ هذه الشبهة ليست وليدة العصر الراهن بل ظلت موجودة منذ القِدم. يتبين من القرآن الكريم أن الملحدين العرب طرحوا على النبي ﷺ السؤال نفسه، وقالوا: أرنا الله نؤمن به[٢]. ولكن عندما أسمع هذه الشبهة أو أقرأها أشفق دائما على مثيريها. من المؤسف حقا أنه عندما يتعثر الإنسان تقع على عقله غشاوة الغفلة بحيث يشرع في إنكار البيّنات الواضحة أيضا. صحيح أن هذا الاعتراض كان يثار في الأزمنة الخالية أيضا وكان لغوا وسخيفا على أية حال، ولكن كان من شأنه أن يخدع

[٢] ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى... تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (الإسراء ٩١-٩٣)

بعض الجهلة مؤقتا. أما نشوء هذا الاعتراض في العصر الراهن فيثير الحيرة فعلا، وأستغرب بشدة من الحالة الذهنية لِمَنْ يحاول أن يجد سكينة في إنكاره نتيجة شبهات من هذا القبيل. أرى أن إثارة مثل هذه الاعتراضات يمكن أن يكون جائزا للأطفال الصغار فقط، أو هو فعل المجانين. ولكن ما دامت هذه الشبهة منتشرة بوجه عام فلا بد من إزالتها. وبعد الرد على هذه الشبهة بإيجاز أعود الآن إلى صلب الموضوع.

فليكن معلوما أن هناك وسائل مختلفة في العالم لمعرفة الأشياء المختلفة، فمثلا نعرف شيئا بالرؤية، وشيئا آخر بالسمع، وغيره بالتذوق أو بالشمّ أو باللمس والتحسس، وهلمّ جرا. وكل نوع من أنواع المعرفة المذكورة يكون مبنيا على اليقين وجديرا بالثقة، ولا يحق لنا مطلقا أن نقول: إننا لن نقبل بوجود شيء معين ما لم نعلم عنه بوسيلة كذا وكذا. فمثلا إن الوسيلة لمعرفة الألوان هي العينُ؛ بمعنى أنه يمكننا أن نعلم بواسطة العين ماهية لون معين. كذلك الأنف هو أداة التعرُّف على الروائح. والآذان تفيد في معرفة الأصوات. فمن الحمق البحت القولُ بأننا لن نعترف برائحة معينة ما لم نَرَها بالعينين، ولن نعترف بلون معين ما لم نشمّه بالأنف، ولن نقبل بوجود صوت ولن نطمئن به ما لم نلمسه بيدينا. وإن مثير مثل هذه الاعتراضات يُعَدّ أحمق وغبيا، وإن لم يُرسَل إلى مستشفى المجانين فسيكون أضحوكة للأطفال على الأقل. ولكن من الغريب حقا أن الناس يثيرون عن وجود الله تعالى اعتراضات من هذا القبيل في كل

يوم جديد ومع ذلك يُعَدّون عقلاء، ولا يسأل أحدٌ هؤلاء العمهين إلامَ يعود سبب هذا الجنون؟ هل تجعلون اللهَ وحدَه عرضة لجنونكم وتسخرون منه؟ الأسف كل الأسف!

إلى هنا ذكرتُ الحواس الظاهرية فقط التي بواسطتها يُعلَم عن أشياء كثيرة في العالم. وهناك أشياء أخرى تفوق العدّ والإحصاء ولا يمكن معرفتها بأية حاسة من الحواس المادية مباشرة، ومع ذلك نوقن بوجودها كيقيننا بالأشياء التي تُعرَف بواسطة الحواس المادية. خذوا قوة الجذب في المغناطيس مثلا، فهل يمكنكم أن تروها بالعين؟ أو أن تسمعوها بالأذن؟ أو تشموها بالأنف؟ أو تتذوقوها باللسان؟ أو تلمسوها باليد؟ كلا، ولكن هل لأحد منكم أن يتجاسر على إنكارها؟ أكرر وأقول: كلا، ثم كلا. فمع أنكم لا تقدرون على أن تشعروا بهذه القوة بأيّ من حواسكم الظاهرية مباشرة، ولكن تشعرون بتأثيراتها وخصائصها حتما. وإن تأثيراتها تخلق فيكم علما يقينيًّا كعلمكم بشيء تلمسونه بأيديكم مباشرة. ترون أنه عندما تُقرَّب قطعة حديدية من المغناطيس يجذبها فورا. وعندما تفعلون ذلك تظهر النتيجة نفسها، وهذا يزوّدكم بعلم أن في قطعة حديدية مغناطيسية قوة أخرى أكثر مما في الحديد العادي، ولكنكم لا تشعرون بها بحواسكم المادية مباشرة، بل تطّلعون عليها من خلال تأثيراتها وخصائصها، ولا ترفضون قوة الجذب لأنكم لم تروها ولم تتذوقوها ولم تشموها، ولا ترتابون فيها. كذلك هناك القوة الكهربائية التي لا تُرى

بالأعين ولكنها تتحكم في قلوبكم بسبب تأثيراتها وخصائصها؛ تضغطون على زرٍّ في غرفتكم فتشتغل المروحة فورا، وتشعرون بأن قوة خارجية تعمل فيها ولم تكن موجودة قبل ثانية، لم تروا هذه القوة ولم تسمعوها ولم تشموها ولم تتذوقوها ولم تعرفوها بأية حاسة مادية مباشرة، ولكن قلوبكم مليئة باليقين أن الكهرباء قوة عظيمة، مع أن حواسكم المادية لم تشعر بها مباشرة، بل تشعرون بتأثيراتها وأعمالها ونتائجها على وجه اليقين، لذا لا تقدرون على إنكارها، بل توقنون بها كيقينكم بالشمس والقمر والجبال والأنهار وما شابهها.

ثم خذوا عاطفة الحب مثلا، هل من أحد شاهد الحبَّ أو سمعه أو تذوقه أو شمّه أو تحسسه أو لمسه؟ وإن لم يكن الأمر كذلك- وهو ليس كذلك حتما- فهل منكم من أحد يستطيع أن يُنكر عاطفة الحبِّ؟ لا يمكنني القول بأن من قراء مقالي هذا شخص مشغوف بالحب بوجه خاص ويشعر بألم الحبّ أم لا، ولكن إذا كان موجودا فأسأله: ألم يلاحظ أن قلبه الصغير الذي قد لا يتجاوز وزنه بضع مئات من الغرامات يكنّ في شغافه بحرا عميقا لا شاطئ له من الحب؟ وعندما يتلاطم موج هذا البحر لعله يستحق أن يُسمى كيانا أكثر هيبة وقوة من بين مخلوقات الله كلها، ويملأ إنسانا ضعيفا ونحيلا قوة وقدرة حتى يصطدم من أجل حبيبه بالجبال، ويجوب الصحاري ويقتحم أفواه كواسر الفلوات وضواريها، ويقفز في النار ويقاوم أمواج البحار المهيبةَ ولا يتراجع قيد أنملة، ويسهر

الليالي ويهيم في النهار كالمجانين وتجري عيناه دما طول حياته ولا يتأوه. هل من أحد في العالم يستطيع القول بأن هذه القوة ليست موجودة؟ ولكن مَن رأى هذه القوة العظيمة؟ أو سمعها أو شمّها أو تذوقها أو لمسها؟ كذلك هناك أشياء أخرى مثل الوقت، والزمن والقوة والعقل والشهوة والغضب والرّحْم، فكلها أشياء تعترفون بها و لم تشعر بها حواسكم المادية مباشرة قط.

الحق كما قلت من قبل أن هناك وسائل مختلفة لمعرفة أشياء مختلفة في العالم، فمنها ما يُعلَم عنه بالرؤية ومنها ما يُعرف بالسمع ويطّلع على غيرها بالتذوق أو باللمس أو بواسطة حاسة أخرى. هذا، وهناك أشياء كثيرة لا تُعرف بواسطة الحواس الظاهرية مباشرة بل يُعثر عليها بمشاهدة تأثيراتها ونتائجها، وهذه العلوم كلها، أيًّا كانت الوسيلة للحصول عليها، تكون يقينية وجديرة بالثقة. ومن الأفكار الطفولية القول بأننا لن نعترف بشيء معين ما لم نعرف عنه بواسطة كذا وكذا. الهدف الحقيقي هو العلم بشيء أيًّا كانت وسيلة الحصول عليه. وإذا تسنى ذلك العلم فقد تحقق الهدف. هل يمكن لأحد القول بأني لن أعترف برؤية الغرفة من الداخل ما لم تخرقوا سقفها وتُنــــزلوني من الفتحة فيه، أما إذا أدخلتموني عبر الباب فلن أعترف. أسأل مثل هذا الشخص: يا صاحبي، هل غايتك هي دخول الغرفة أم خرق سقفها؟ فلو دخلتَ الغرفة لأصبحت قضية دخولك إليها قافزا من السقف بعد خرقه أو من الباب عبثية ولاغية. ولا

يمكنك دخول الغرفة إلا بالطريق المحدد لهذا الغرض، وإن إصرارك على أن يُفتح لك طريق لدخولها بحسب رغبتك ليس إلا جنونا. وإذا كان قبول طلبك ضروريا فلماذا لا يُقبل طلب زيدٍ؟، وإذا قُبل طلب زيدٍ فلماذا لا يُقبل طلب عمرو؟ وستكون نتيجة ذلك أن يصبح الله ألعوبة أفكاركم الغريبة، وسيضطر إلى تبديل صفاته كالمهرج -والعياذ بالله- بحسب رغبة كل شخص حتى لا يلحق بأفكاركم الهشة أي ضرر. الأسف كل الأسف على أن الناس: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الحج: ٧٥).

أيها الأعزة! افهموا جيدا أنه كلما كان الشيء كثيفا كان إدراكه أقرب إلى حواس الإنسان الظاهرية. وبقدر ما يكون الشيء لطيفًا يكون إدراكه أبعد عن حواس الإنسان المادية. لذا نرى أن الأشياء التي تكون لطيفة جدا نضطر إلى التوجه إلى تأثيراتها وخصائصها ونتائجها عادة بُغية إدراكها ومعرفتها، لأن إدراكها بحواسنا المادية يكون مستحيلا. فكيف يمكن -والحال على هذا المنوال- أن نرى الله تعالى بالعيون المادية وهو ألطف من غيره على الإطلاق، بل هو خالق الأشياء اللطيفة؟ فقول المعترض بأنه لن يؤمن بالله ما لم يره بعينيه كلام سخيف وتافه للغاية، ويعني أن الله تعالى إما كائن كثيف عنده والعياذ بالله، أو يريد على الأقل مِن الله أن يصبح كثيفا مِن أجله حتى يتمكن من رؤيته بعينيه ويُطمئن نفسه. ولكن المشكلة أن هناك مئات آلاف العميان أيضا في العالم، أفلا يحق لهم أن يطالبوا اللهَ أن يتجسد من أجلهم في وجود كثيف حتى

يتمكنوا من شـــمِّه أو تذوّقه أو لمسه؟ أليس مخجلا للإنسان الذي يدّعي امتلاك العقل والذهن أن يختار بحق الله طريق السخرية على هذا النحو؟ تقولون بأننا لن نؤمن بالله ما لم نره بالأعين المادية، فأقول: إذا صار الله قابلا للرؤية بالأعين المادية فلن يبقى مستحقا أن نؤمن به أصلا، ودونك أن يسهل علينا الإيمان به؛ لأن في هذه الحالة لا بد من إبطال عديد من صفاته الأخرى. فمثلا إنه عَجَلّ لطيف، ولكن في هذه الحالة لن يبقى لطيفا بل سيصبح كثيفا، وهو غير محدود، ولكن في هذه الحالة لن يبقى كذلك بل سيصبح محدودا، وهلمّ جرا. ثم إذا افترضنا جدلا أن يختار الله لنفسه الكثافة والمحدودية من أجلكم لتؤمنوا به، فأي ضمان أنكم لن تنكروه قائلين بأننا لا نستطيع أن نؤمن بإله كثيف ومحدود؟ سبحان الله! كم هو قدوس ذلك الإله! وما أروعه! وما أكمله ذلك الذي كل صفة من صفاته تحرس صفاته الأخرى! فلا يسع أحدا أن يهاجم صفة من صفاته إلا وتحرسها صفاته الأخرى كالحراس النشطاء وتجعل المهاجم خائبا وخاسرا وتُسقطه في هوّة الذلة. لقد رأينا آنفا أن المعترض أثار شبهة على صفته الخفي، وكيف تصدت صفته الأخرى "اللطيف" وكونه غير محدود فورا وأبطلتا الاعتراض. إن حُسن الله تعالى يكمن في أن يكون خفيا عن الأعين، ومع ذلك يبقى أمام الأعين، وأن يكون باطنا، ومع ذلك يتراءى في الظاهر، وأن يكون لطيفا ومع ذلك يكون مشهودا ومحسوسا أكثر من الأشياء المادية. شقي ذلك الذي لم يفهم هذه النقطة لأنه في براثن الهلاك.

ملخص الكلام أن مقتضى كمال الله هو أن يكون لطيفا وخفيا عن الأعين المادية. ولكن لا يمكن أن تنشأ عن ذاته شبهةً بناء على ذلك، لأن هناك طرقا عديدة أخرى لمعرفته ﷻ وهي أكثر يقينا وقطعية بكثير مما يتيسر لأعيننا المادية. فيا أيها الأعزة، لا تحرموا أنفسكم من ثروة الإيمان بسبب هذه الشبهات السخيفة. هل ستقتفون آثار الذين اعترفوا بقوة المغناطيس وقوة الكهرباء دون أن يروهما، وسلَّموا بحكومة الوقت والزمن على نفوسهم، وأخضَعوا أعناقهم للشهوة والغضب ولكن لم يرضَوا بأداء حق العبادة والمحبة لخالقهم ومالكهم؟ كلا، ثم كلا، لن تفعلوا ذلك!

ما حاجة البحث في وجود الله؟

والآن أدخل في صلب الموضوع. السؤال الأول الذي يواجهنا هو: لماذا نبحث في الله؟ أي ما حاجتنا إلى البحث فيما إذا كان هناك إلهٌ أم لا؟ الحق أن نشوء هذا السؤال- أي لماذا يبذل المرء وقته وتركيزه في البحث في "هل هناك إله فعلا أم لا"؟- في قلب الذي لا يعتقد بوجود الله أمر طبيعي إلى حد ما، لذا أرى الرد على هذا السؤال ضروريا أولا وقبل كل شيء.

ليكن معلوما أن ضرورة شيء في الدنيا أو عدمها تُحدَّد بسببين اثنين. الأول: يُفحص هل يمكن أن نستفيد أم لا، نتيجة اختيار الشيء أو الأمر الذي بين أيدينا؟ فإذا كان هناك أمل معقول للفائدة منه يختاره المرء لنفسه

وإلا فيتركه. والسبب الثاني هو أن المرء يرى إذا كان هناك إمكانية الخسارة من أي نوع بترك ذلك الشيء أو الأمر، فإن لم تكن هناك إمكانية الخسارة فلا يؤبَه باختياره، أما إذا كانت إمكانية الخسارة موجودة نتيجة تركه فيُختار ذلك الأمر أو الشيء. إذًا، لو ثبت أن اختيار شيء معين يمكن أن يسفر عن منفعتنا وتركه ينتج عنه الخسارة فسيفتي كل عاقل أن اختياره ليس مناسبا لنا فقط بل هو ضروري. فبحسب هذا المبدأ يمكننا أن نحكم في أهمية تلك الضرورة، بمعنى أنه إذا كان اختيار شيء يمكن أن يسفر عن فائدة كبيرة لنا، لَكان اختياره هامًا بالقدر نفسه. كذلك إذا كانت في تركه إمكانية خسارة كبيرة فسيُعدّ تركه ضروريا بالقدر نفسه.

تعالوا الآن نُلْقِ نظرة من هذا المنظور على السؤال قيد البحث. السؤال المطروح هو: هل نحن بحاجة إلى الخوض في البحث أصلا في وجود الله أم لا؟ ويمكن القول بتعبير آخر إنه لو ثبت أن لنا إلـــها، فهل الإيمان به ينفعنا شيئا أم لا؟ أو هل هناك إمكانية خسارة لنا في حال عدم الإيمان به أم لا؟ للحكم في هذه القضية يجب أن نُمعن النظر في نوعيتها التي تمثل أمام أعيننا عن وجود الله. لو عُرض علينا وجود الله تعالى بحيث كان الإيمان أو عدم الإيمان به سواء لنا، ولا يقع أيّ تأثير له على حياتنا مباشرة، بل كان السؤال ذا صبغة علمية فقط، فلكل الناس الحقّ -سوى الذين يتحلون بذوق علمي وهم معتادون على التفكير في مسألة ما من

أجل العلم فقط- أن يرفضوا الخوض في هذا التحقيق، وأن يركّزوا فقط على الأمور التي تؤثر في حياتهم من حيث الضرر والنفع مباشرة. مثلا إذا قال لنا أحد إنه اكتشف كوكبا جديدا يبعد عن الأرض كذا وكذا مليونا من الأميال، وليست له علاقة خاصة مع النظام الشمسي المعروف لدينا، وليس له تأثير خاص على أرضنا، فمن الواضح أنه لن يتوجه إلى معرفة هذا الكوكب إلا الذين لديهم إلمام بعلم الفلك. أما إذا ادّعى أحد مثلا أنه اكتشف شيئا يبعث في جسم الإنسان طاقة يطول بها عمره الطبيعي كثيرا، ولا تظهر عليه آثار الشيخوخة إلا بعد مدة طويلة، وأوسط عمر يناله المرء باستخدام ذلك الشيء يبلغ مائة أو مائة وخمسين عاما أو مائتَي عام، وإذا لم يكن هذا المدّعي مخادعا ومراوغا، فسيتوجه إليه الناس جميعا برغبة عارمة، لأنه لو ثبت صحة اكتشافه لترك في حياة كل إنسان تأثيرا عميقا. وعندما نفكّر في الله من هذا المنطلق نجد أن هذا السؤال يواجهنا من ثلاث جهات مختلفة. أولا: إن فطرتنا تطرح علينا هذا السؤال. وثانيا: يقدمه العقل. وثالثا: يقدمه الدينُ. وهذه الجهات الثلاث تعرض علينا هذا السؤال بصورة لا مندوحة لنا من التحقيق فيه.

أتناول الفطرة أولا. كل من يملك قدرة على التأمل ولم يُلقِ سوءُ التربية لاحقا على فطرته أغشيةَ الظلام والجهل فسوف يشعر حتما أن فطرته تثير في نفسه بين حين وآخر سؤالا مفاده أنه من الممكن أن يكون له إلـــهٌ خلقه وهو الذي يدير نظام العالم كله. وإلى جانب هذا السؤال ينشأ في

أنفسنا بطبيعة الحال سؤال آخر، وهو أنه إذا كان أحدٌ خلَقنا و لم نأت إلى الدنيا من تلقاء أنفسنا فلا بد أن يكون في هذا الفعل لخالقنا غاية معينة، ولا بد أن يكون قد وضع لحياتنا هدفا معينا. إن فطرة كل إنسان تثير أسئلة كهذه بين حين وآخر. لا أقول هنا إذا كانت الفطرة تردّ أيضا على هذه الأسئلة أم لا، لأن هذا البحث سيأتي لاحقا. ولكن من المسلّم به على أية حال أن الفطرة تثير هذه الأسئلة فينا حتما، بحيث لا نستطيع أن نغض الطرف عنها حاسبينها غير ذات صلة. لا شك أنه يحق لنا بعد التحقيق أن نتبنّى الرأي القائل بأنه لا أصل لهذا السؤال المثار من قِبل الفطرة وأنه ليس هناك إله بل جاء الكون من العدم إلى الوجود تلقائيا ويعمل تلقائيا، ولكن فكّروا جيدا أنه لا يحق لنا بعد نشوء هذه الأسئلة رفض الخوض في هذا البحث والتحقيق.

هذا ما ينطبق على العقل الإنساني أيضا، فالعقل أيضا يعرض علينا هذه الأسئلة بكل قوة وشدة -وإنْ حكَم فيما بعد بأنه ليس هناك إله- بل العقل يعرضها بوضوح وتفصيل أكثر من الفطرة، ويحذّرنا مرة بعد أخرى ويقول: انظروا وفكِّروا فقد يكون لكم إله خلقكم في هذه الدنيا لهدف خاص وأنتم غافلون عن إلـــهكم هذا وعن الهدف من حياتكم، وتموتون غافلين. فانهضوا وابحثوا عن ذلك الإله إذا كان موجودا. فكِّروا وتأمّلوا، هل الهدف من مجيئكم إلى الدنيا هو أن تأكلوا وتشربوا وتعكفوا على إشباع شهواتكم الجسدية وتموتوا وتتركوا وراءكم الأهل والأولاد ليبدأوا

مثلكم على منصة العالم تمثيلية إشباع الشهوات الجسدية؟ افتحوا أعينكم وانظروا، هل جئتم من العدم إلى الوجود من تلقاء أنفسكم؟ هل نظام أجسامكم المفصَّل والحكيم هو خالق نفسه؟ وهل هذا الكون كله بقانونه الحكيم الجاري فيه الذي ترونه يعمل في كل جزء من أجزائه وفي كل زاوية من زواياه وليد الصدفة فقط؟ وإن لم يكن الأمر كذلك بل خلقه وجود أعلى بتجليات قدرته، فهل خلقه كألعوبة فقط، ولا هدف له إلا أن ترى عينه الشغوفة بالاستمتاع بمشاهد قدرته، ثم ليقضي على هذا العالم الواسع ويمحوه كليا عندما يتشبع بهذه المتعة واللذة، ثم يشرع في صنع ألعوبة أخرى؟ أليس أقرب إلى الفهم أن يكون لحياة الإنسان هدف وأن عليه أن يمثل أمام أحد ليُسأل عن أعماله التي كسبها في الدنيا؟ هذه أسئلة يعرضها العقل السليم على كل شخص مرارا وتكرارا. والآن قولوا عدلا وإنصافا، هل يجوز أن تغضوا الطرف عن هذه الأسئلة ظانين أنها عديمة الصلة والضرورة؟ لا أقول أن تردّوا عليها بكذا وكذا، لأن الرد يتوقف على نتيجة بحث كل شخص ولا يستطيع الباحث أيضا أن يقول عنه شيئا قبل الأوان، وماذا عسى أن يكون ذلك الجواب. ولكني أريد القول حتما أن كيفية ظهور هذا السؤال أمامكم تقتضي أن تنصرفوا إلى تحقيق هذا الأمر بكل تركيز، ويجب ألا يهدأ بالكم ما لم يوصلكم تحقيقكم الحر والأمين إلى نتيجة معينة.

فلباب الكلام أن الفطرة والعقل كليهما يعرض علينا سؤالا عن وجود الله بحيث لا يسعنا قطعا رفض الخوض في هذا التحقيق. ألا يعنينا السؤال: هل لنا خالق أم لا؟ ألا يهمنا السؤال عمَّا إذا كان لنا خالق، فإن كان فمن هو يا تُرى وأين هو؟ وما هي صفاته؟ ألا يعنينا السؤال عمَّا إذا كان لخلقنا غاية، فإن كان فكيف يمكن تحقيقها؟ إذا لم تكن هذه الأسئلة غير ذات صلة بنا، وهي ليست كذلك حتما، فأي عاقل يمكن أن يرفض الخوض في هذا البحث والتحقيق؟

ثم يأتي الدين في الدرجة الثالثة. جميع الأديان الموجودة في العالم تعرض علينا قضية وجود الله ولا تكتفي بالعرض فقط، بل إن وجود الله العلي القدير هو النقطة المحورية لتعليمها؛ لأن جميع الأديان التي استتبت في العالم ونالت قبول مئات آلاف الناس هي من الله تعالى من حيث أصلها، ومبنية على وحي الله الذي ظل ينـــزل في أزمنة مختلفة وينوّر العالم؛ لذا مع أن تعاليم تلك الأديان قد حرِّفت وبدِّلت إلى حد كبير بيد الناس فيما بعد، ولكن ما دام أساسها إلهاما من الله، لذا يوجد فيها تفصيل وتوضيح عن وجود الله أكثر بكثير مما يوجد في إشارات العقل والفطرة. أي أن الإلهام فسّر إجمال العقل والفطرة. وزدْ إلى ذلك أن الدين لا يقول لنا فقط مثل الفطرة والعقل، بأنه يمكن أن يكون هناك إله، أو يجب أن يكون هناك إله، بل يقول لنا بصورة محددة أن لنا إلـــها في الحقيقة وهو خالقنا ومالكنا الذي خلَقَنا في هذا العالم لهدف معين وغاية معينة. ومهما كان

الخلاف في تعليم الأديان في الدنيا، إلا أن كلها متفقة على أن لهذا الكون خالقا ومالكا وأن نفوسنا بيده، وأنه قد حدد لحياتنا هدفا، وقد أرشدنا بنفسه إلى تحقيق هذا الهدف، وهو أن حياة الإنسان لا تنتهي بالموت، بل بعد الممات هناك حياة أخرى ينال فيها المرء جزاء أعماله التي كسبها في حياته. إن شهادة الأديان هذه المتفق عليها تعرض علينا قضية وجود البارئ تعالى بصورة نكون معها مضطرين إلى الخوض في هذا التحقيق والوصول إلى نتيجة ما، لأنه إذا كان صحيحا ما تقدمه لنا هذه الأديان عن الله فإن غفلتنا عنه ﷻ أكثر خسارة لنا مما يمكن أن يصيبنا في هذه الحياة الدنيوية، لأن هذه الغفلة تعني أن حياتنا كلها ذهبت سدى. وإن معرفة ذلك الإله وإنشاء العلاقة معه أكثر نفعا من جميع الفوائد والمنافع التي يمكن أن ننالها في الدنيا، لأن هذه العلاقة تعني أننا قد حققنا الهدف الذي أُرسلنا من أجله إلى هذه الدنيا. فالبحث في الله قضية مهمة جدا بحيث لا يسع عاقلا أن يهملها لحظة واحدة.

بعد شهادة الأديان المتفق عليها أريد أن أقول شيئا عن تعليم الإسلام الخاص به. فيا أعزتي اسمعوا جيدا وعُوا بأن الإسلام يخبركم أن لكم إلها وهو خالقكم وَمَالِكُكُم، أي جاء بكم إلى حيّز الوجود من العدم وبيده نفوسكم. يقول الإسلام إن لكم إلها هو ربّكم، يهيئ لكم جميع الأسباب لتقدمكم وبحبوحتكم، ويبلّغكم أعلى المقامات. يقول الإسلام بأن لكم إلها رحمان فيهتم بكافة حاجاتكم الحقيقية ويهيّؤها لكم بنفسه دون أن

تسألوه، ودون أن تتحملوا أدنى عناء لِسدِّها. يقول الإسلام بأن لكم إلها رحيما، فيعطي أفضل جزاء على مساعيكم ولا يترك سعيا يذهب سدى. ويقول بأن لكم إلها وهو مالك يوم الدين، فيرتِّب الجزاء على أعمالكم، وإذا سلك أحد صراطا مستقيما أعطاه أفضل إنعام، وإذا سلك طريقا خاطئا يواجه نتائج سلوكه عليها حتى يحذر ولا يغفل، وكي لا ينسى الهدف من حياته الذي حدده الله له، لأنه سيموت يوما ويقف أمام الله. يقول الإسلام إن لكم إلها غفورا، أي أنه يغفر ما يصدر منكم من التقصيرات والزلات سهوا في أثناء مساعيكم في سبيل الله، وينقذكم من نتائج تلك التقصيرات السيئة مراعيا جهودكم. يقول الإسلام إن لكم إلـــها توّابا، أي أنه عندما يصدر منكم ذنب ثم تندمون عليه بصدق القلب وتميل طبيعتكم بحرقة قلبية إلى ترك الطريق الخاطئ والسلوك على الصراط المستقيم وتتعهدون بحسن النية لمحو تأثير الذنب وكسب الأعمال الصالحة في المستقبل فينـــزل الله لنصرتكم ويقبل توبتكم ويغطي ذلك الذنب بغطاء مغفرته. يقول الإسلام بأن لكم إلها قديرا، أي أن كل ما يمكن نسبته إلى القدرة لا يخرج عن نطاق قدرته مهما كان صعبا ومستحيلا في نظركم. يقول الإسلام بأن لكم إلها سميعا يسمع نداء كل منادٍ، وما من صوت إلا ويصله. ثم يقول الإسلام بأن لكم إلها عليما، أي ما من قول أو فكرة أو شيء ظاهرا كان أم باطنا إلا وهو في علمه. يقول الإسلام إن لكم إلها ناصرا، ينصركم عند كل حاجة ومشكلة بشرط أن

تنشئوا معه علاقة صادقة. يقول الإسلام إن لكم إلها أزليا وأبديا ولا يؤثر فيه الدهر أدنى تأثير. يقول الإسلام إن لكم إلها جميلا وهو جامع كل أنواع الجمال، وهو وحده يستحق أن يحبه الإنسان أكثر من أي شيء آخر. يقول الإسلام إن لكم إلها ودودا يحب عباده. والذين يُنشئون العلاقة معه يُظهر لهم محبة ووفاء أكثر من أيّ محب آخر. يقول الإسلام إن لكم إلها مكلِّمًا، أي يُكرم ذوي الصلة معه بمكالمتهم وإن كان لا يُرى بالأعين المادية لكونه لطيفا، ولكن الذين تضطرم في قلوبهم نار حبه يُمطر عليهم ماء كلامه العذب دائما حتى لا يحترقوا ويكونوا رمادا في نار الحب. نِعْمَ ما قال المسيح الموعود عليه السلام في بيتٍ من شعره ما تعريبه: "لولا لطفك لمتُّ من قبل وصرت ترابا، ولا أدري أين كان سُيرمى بهذا التراب".

أيها الأعزة، هذا هو الإله الذي يقدمه الإسلام. لا أقول لكم حاليا أن تؤمنوا بهذا الإله ولكنني أقول بالتأكيد إن الإسلام يقول بأن لكم إلها يتحلى بالصفات المذكورة آنفا. ويقول أيضا إنكم تستطيعون الوصول إليه نتيجة البحث والسعي. فهل ستعُدّون هذا البحث كله أمرا عبثيًّا وغير ذي صلة؟ ولو فعلتم ذلك لأثبتم أنه ليس في رأسكم جوهر يسمّى العقلَ، وليس في صدوركم قلب بل حجر. فهبُّوا أيها الأعزة واشرعوا في البحث عن ذلك الإله، انهضوا وفرّوا إلى هذا الينبوع الذي هو ينبوع حياتكم. قوموا واسعوا إلى هذا الكنـــز الذي سيغنيكم عن الدنيا وما فيها. لو

نلتموه فقد نلتم ما لا يسعني وصفه، فاسمعوا المسيح الموعود عليه السلام الذي قال في أبياتٍ من شعره ما تعريبه:

"لك القوة والقدرة كلُّها يا إلهي، حين حظينا بقربك فقد تحقَّق كل مطلب لنا

لقد اتخذ كلٌّ عاشق لنفسه صنما، أما أنا فقد تبوأ قلبي هذا الحبيبُ

ولقد أعجبتْ نفسي وقلبي تلك الراحةُ التي تُسمّى ربّ البرايا

فقد تجلى عليَّ ذلك الإله بالأيادي **فسبحان الذي أخزى الأعادي**

إن لي علاقةً بذلك الحبيب علاقةَ الجسم بالروح، فهو الجنة وهو دار الأمان

أنى لي أن أصف محاسنه إذ يتدفق في قلبي نهر الحب؟

ما أكثرَ مننَك يا ربي الهادي! **فسبحان الذي أخزى الأعادي**

ليس ثمة أي نقص في نعمك، فلم تخلُ منها أيةُ ساعة

وإن أفضالك ورحمتك لا تُعدّ ولا تحصى و لم أعد قادرا على الشكر

فما أعظم مننك يا ربي الهادي! **فسبحان الذي أخزى الأعادي**".

أما لو فشلتم في هذا السعي على سبيل الافتراض، فإنّ فشلكم هذا دليل على أنه لا هدف لحياتكم؛ لأنه لا أهمية لما كان وليد الصدفة. وفي هذه الحالة كان لا بد لكم على أية حال من أن تقضوا أيام حياتكم في عمل من الأعمال دون هدف. فافهموا أنكم بذلتم حياتكم غير الهادفة باحثين عن هدف لها. ألن تكون هذه الهزيمة أفضل من الفتوحات التي

تنالوها دون هدف في حياتكم غير الهادفة؟ ولكني أقول بأنكم لن تفشلوا أبدا، فاخرجوا إلى هذا الميدان بحسن النية والحب القلبي والحرقة الصادقة فترون أن النجاح سيستقبلكم سريعا جدا. ألم تسمعوا أبياتا من شعر المسيح الموعود عليه السلام قال فيها ما تعريبه:

"يا ربنا، مَن ناداك في هذا العالم، ثم عاد صفر الدين؟

من كنتَ أنت الأحب إليه فقد استند إلى ركن ركين."

طريق البحث في وجود الله تعالى

والآن أريد أن أبيّن بإيجاز شديد كيف يجب أن يكون طريق البحث في وجود الله، لأنه ما لم نعلم الطريق الصحيح للبحث في وجود شيء كان النجاح صعبا، بل من الممكن تماما أن نضيّع كافة جهودنا باختيارنا طريقا غير سليم. الذي يريد أن يستخرج الماء بحفره بئرًا في الأرض لا يسعه بلوغ الماءِ ما لم ينتخب قطعة معينة من الأرض، وما لم ينـــزل إلى الأسفل بحسب القواعد حافرا الأرض عموديا. ولو لم يحفر الأرض عموديا بل حفرها حفرًا متوازيا مع سطحها، فلن يجد الماء ولو حفرها إلى مائتي ميل؛ لأنه اختار طريقا خاطئا للوصول إلى الماء. وتكون شكواه بأنه لم يجد ماء مع بذل جهود مضنية لغوا وسخفًا تماما ولن يقبلها عاقل. فتبين أن السعي والجهد وحدهما لا يعنيان شيئا ما لم يكونا على ما يرُام. وكما نرى في جميع الأمور في الدنيا أن هناك طريقا خاصا ومحددا بحسب

قانون الطبيعة الذي لا يتم ذلك العمل بدونه. كذلك في الأمور الروحانية أيضا هناك طريق محدد لتحقيق كل هدف ومقصود، ولا نستطيع نيله دون العمل بذلك الطريق، مهما سعينا واجتهدنا. إن وجود ذلك المبدأ والقانون إنما هو لفائدتنا، لأن تقدُّم الإنسان العلمي والعملي بدونه محال. تصوروا إن لم يكن في الدنيا قانون واستطاع الإنسان أن ينال شيئا دون جهد على طريق معين، فإلامَ يمكن أن تؤول حالة الدنيا؟ ألن يحِلَّ الجهل والكسل والتهاون والاتكال محلَّ العلم والسعي والجهد والخبرة في كل حدب وصوب؟ وهل سيبقى فرقٌ بين العالم والجاهل، والمجتهد والخامل، والخبير والغِرّ؟ ألن ينسد طريق تقدّم الإنسان العقلي كليا؟ ألن ينهدم بناء أخلاق الإنسان الشاهق في لمح البصر؟ فكّروا جيدا فتعلموا أن تقدم الإنسان الجسدي والمادي والعلمي والعملي والأخلاقي والروحاني الذي ترونه الآن يعود سببه إلى أن نظام العالم يجري وفق قانون معين، وأن لنيل كل هدف طريقًا محددًا لا يُنال بغير سلوكه. ولو غضضتم البصر عن هذا القانون لرأيتم أن باب كل نوع من التقدم ينسدّ فورا ويتصلّب ذهن الإنسان ويغدو كحجر، والكيان الذي يُسمّى أشرف المخلوقات سيتردّى في لمح البصر إلى أدنى من أحقر المخلوقات. فلا تحسبوا هذا القانون عرقلة في سبيلكم، إنما هو بمنـــزلة أجنحة أعطاكموها خالق الكون لتطيروا بها وتصلوا إلى قمم العلم والعمل العليا، وهو شمس هداية أطلعها ربكم الرؤوف لإراءتكم سبيلا لأنواع التقدم في المستقبل، وهذا امتحان وُضع

ليتميز العالِم من الجاهل والعامل من العاطل والخبير من الغرّ والمجتهد من الكسول.

دور النية في مجال البحث في وجود الله

أولا يجب أن يكون معلوما في هذا الباب أنه عندما يشرع المرء في عمل، فالنيّة التي يبدأ بها العمل تؤثر إلى حد كبير في أسلوب عمله مستقبلاً. عندما يقوم المرء بعمل بنية معينة يتصبّغ العمل بصبغة ويكون له تأثير، وعندما يعمله بنية أخرى يظهر بصبغة أخرى ويكون له تأثير آخر تماما.

باختصار، إن لنيّة المرء تأثيرا كبيرا في كل عمل من أعماله، ويظهر هذا التأثير في كافة الأعمال بأسلوب أو بآخر. وهذا التأثير لا يكون افتراضيا وخياليا فقط بل يكون حقيقيا وواقعيا. فمثلا إذا كان العامل يطيع مسؤولا فوقه لأنه مسؤول عنه، ولا تكون لديه رغبة شخصية في العمل بأحكامه ولا علاقة محبة ذاتية معه ولا تأثير في قلبه لمواهبه أو مرتبته العلمية، ففي هذه الحالة تكون طاعته طاعة رسمية فقط، ويطيع أوامره لأداء واجبه فقط، ولن ترى في أعمال هذا العامل أدنى شوق ولا شغف ولا رغبة. ولكن إذا كان العامل على علاقة محبة ذاتية مع المسؤول عنه ومعترفا بمواهبه ومرتبته العلمية وراغبا في العمل بأوامره، فتظهر طاعته بأسلوب آخر تماما وسيكون أسلوب عمله مختلفا كليا، وسيتراءى الشوق

والشغف والحب والرغبة الذاتية في كل عمل من أعماله. والسبب في هذا الاختلاف مردّه اختلاف النية، وإن كان العمل واحدا، أي الطاعة، ولكن اختلاف النية غيّر أسلوب العمل تماما.

والحال نفسه ينطبق على البحث في وجود الله، بمعنى أن الفيلسوف يحقق، والسالك أيضا يحقق في الموضوع نفسه، وكلاهما يستهدف الهدف نفسه، أي الاطلاع على وجود الله، ولكن هناك فَرق شاسع بين نيَّتَيهما. الفيلسوف يدخل في هذا المجال ليتأمل في الكون مستعينا بعقله وليعرف هل لهذا الكون خالق أم لا؟ ثم يضيف النتيجة التي توصّل إليها إلى رصيد معلوماته العلمية ليس إلا، ولا يهمّه ما هي صفات الله إذا كان موجودا أصلا؟ وما علاقته مع عباده وكيف يجب أن تكون علاقة العباد معه؟ وما هي وسيلة الوصول إليه؟ ذلك لأنه لا يهدف إلى العلاقة بالله، بل يهدف إلى أن يعرف علميا هل لهذا الكون خالق أم لا. فلا يتمنى العلاقة به ولا يتوق إلى التقرب إليه ولا يتحرى صداقته وليس في قلبه ولعٌ للوصول إليه ولا يرغب في الاطلاع على مرضاته والعمل بها، بل لا يريد إلا إنجاز تحقيق علمي فقط. ثم هناك سالك في الطريق المؤدي إلى الله، وهو هائم للوصول إليه عَزَّ وَجَلَّ ويتمنى توطيد العلاقة معه ويتوق لقربه وصداقته وهو مضطرب للوصول إليه ويرغب في العثور على مرضاته والعمل بها ويبحث عنه بحرقة صادقة. هل يمكن أن يكون بحثهما من النوع نفسه؟ كلا، ثم كلا. فمن الضروري قبل كل شيء أن يصلح الإنسان نيَّته ولا يدخل هذا

الميدان كفيلسوف، بل كسالك الطريق، ويخلق في قلبه الحرقة والاضطراب اللذينِ لا بد منهما للبحث عن الحق. خذوا لبن الأمّ مثلا، فإنه لا يَدِرُّ إذا قال لها الطفل بجدّية: يا أمِّي أريد أن أرى لبنك هل هو موجود ليكون غذائي أم لا؟ بل يدرُّ الحليب عندما يبكي الولد ويضطرب جوعا. وفي هذه الحالة لا يحول دون تدفُّق الحليب شيء ولو أرادت الأُمّ إيقافه، بل يدرّ من الثديين تلقائيا ليصبح غذاء جسمِ الطفل وينقذه من الهلاك. فالله تعالى أيضا لا يجلّي وجهه على الفيلسوف بل يبتعد عنه لأنه ﷻ لا يريد أن يكون ألعوبة أفكارِ الفلاسفة، ولكنه ﷻ يأتي سالكَ طريقِه بنفسه، لأنه إله وفِيّ ويُحِب أكثر من الأمّ، ولا يريد أن يبقى الباحث الصادق عنه في ظلام ويهلك. إنه لمشهد غريب حقا أن الفيلسوف والسالك كليهما يبحث عن الله ﷻ، ولكنه تعالى يبتعد عن الفيلسوف ويأتي السالكَ بنفسه سعيا.

فيا أعزائي، لا تبحثوا عن الله بأسلوب الفلاسفة، لأنكم لن تجدوه على هذا النحو، بل البحث بهذه الطريقة عبث تماما، لأننا إذا أردنا أن نعثر على وجود الله علميا فقط ثم نسكتُ بعد ذلك، فما حاجتنا إلى تحمل هذا العناء أصلا؟ ولماذا نضيع وقتنا وتركيزنا وقوتنا لسبب وحيد فقط؛ أي هل الإلـــه موجود أصلا أم لا؟ هذا العلم لن يفيدنا شيئا بل يضرنا في الحقيقة، لأن الغفلة عن الله بعد الاطلاع على وجوده تجعلنا مجرمين جرما مضاعفا. ولن يجلّي الله تعالى علينا وجوده نتيجة سعينا من هذا

النوع، بل سيظهر علينا فقط حينما يرى أننا نتمنى الوصول إليه بحرقة صادقة لنستفيد من بركات قربه ولنفتح على أنفسنا باب كل نوع من التقدم والترقي، وهو الهدف من حياة الإنسان. فاخلقوا حرقة صادقة وحماسا قلبيا حتى تثمر مساعيكم وتنجح جهودكم. يقول المسيح الموعود عليه السلام في أبيات من شعره ما تعريبه:

"ما من سبيل أقرب من سبيل الحب، بسببه يعبر السالكون آلاف الفلوات الشائكة

أيها الأحبة، هذا هو سر الوصول إليه، وكأنها عملية استخراج الذهب، فلو اطلعتم عليها لوجدتم من الذهب ما لا حصر له

إن سهم الحب لا يخطئ قط، فيا أيها الرماة لا تتكاسلوا في الرمي أبدا

هذه هي النار الوحيدة التي تُنقذكم من النار، وهذا هو الماء الذي تتدفق منه مئات الشلالات

فيلاقيكم ذلك الحبيب الأزلي بنفسه، وسَتُكَلَّلُون من يده بأكاليل زهور معرفة الحق."

ويقول عليه السلام أيضا في بيت من شعره بالفارسية ما تعريبه:

"الفيلسوف الذي يريد الوصول إلى الله تعالى بواسطة العقل فقط، هو مجنون حتما، لأن سبلك الخفية يا ربنا، بعيدة عن متناول العقل والدهاء كل البُعد".

درجتان للإيمان بالله

والآن أريد أن أبيّن أنه ما دام الله تعالى وراء الوراء، وبسبب كمال لطافته وكونه غير محدود ويخرج عن إحاطة أعين الإنسان المادية، ومن ناحية ثانية لا يكمل الإيمان ولا يفيد كثيرا ما لم يخلق الإنسان في قلبه إيمانا بالله كإيمانه بالأشياء المادية في الدنيا؛ لذا فقد قدّر الله تعالى بحكمته أن يتقدم الإنسان إليه إلى حد ما، لينـــزل الله بنفسه إلى الإنسان بعد ذلك ويرفعه. هذا يعني أن الله تعالى قد قسم الإيمان إلى قسمَين، أي الإيمان الذي يصل إليه الإنسانُ مستعينا بعقله فقط، والثاني هو الإيمان الذي لا يدركه العقل وحده، بل في هذا المقام تنـــزل من السماء بعض الأشياء الأخرى لنصرة العقل فيتسنى للإنسان هذا الإيمان. فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، أي أن بصر الإنسان عاجز عن الوصول إلى الله تعالى وعن معرفته، لذلك فقد قدّر الله تعالى أن يصل هو إلى بصر الإنسان بنفسه. أي قد دبّر الله تعالى أن يعلَم الإنسانُ عن الله ويعرفه، لأنه مع أن نظر الإنسان الظاهري لا يصل إلى الله لكونه لطيفا، لكن الله تعالى في الوقت نفسه خبير أيضا، بحيث يعرف أن حياة الإنسان الروحانية مستحيلة بغير معرفته ﷻ. فهيّأ من عنده أسبابا لتتسنى للإنسان معرفته مع كونه لطيفا وخفيا.

إذًا، فقد وُضعت صفة الله "اللطيف" مقابل: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ ليتبين أن إدراك الله بالعقل مستحيل لأنه لطيف، ووُضعت صفته "الخبير" مقابل: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾. أي أن الله تعالى يدبّر معرفته بنفسه لأنه خبير. بمعنى أن صفتَي الله المذكورتين أولا أي: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ نتيجة طبيعية لصفتيه المذكورتين بعدهما، أي ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

فمن ناحيةٍ هذا هو تعليم القرآن الكريم كما ذُكر آنفا، ومن ناحية ثانية نرى أنه قد وُجِّهت أنظار الناس في القرآن الكريم مرارا إلى التفكر والتأمل في الكون وفي السماء والأرض وغيرهما من المخلوقات، أيمكن أن يكون الكون كله مع نظامه الحكيم والمحكم وليد صُدفة محضة؟ كلا، بل هذا النظام كله يعلن بأعلى صوته أنه يجب أن يكون له خالق حتما. وبذلك لفت القرآن الكريم أنظار الناس مرارا وتكرارا إلى إمعان النظر في قضية وجود الله ومعرفة الخالق من خلال دراسة المخلوقات. والعقل وحده يكفي لهذا الأسلوب من الاستدلال، ولا حاجة إلى أيّ مؤيد سماوي، مع أن الآية المذكورة آنفا توحي لنا أن إدراك الله خارجٌ عن قدرة بصر الإنسان، لذلك يدبّر بنفسه أسبابا من السماء لينال الإنسان بعونه معرفة الله تعالى. هذان الأمران يبدوان متعارضين في بادئ الرأي، ولكن لو أمعن الإنسان النظر فيهما لتبين أنه ليس هناك مِن تعارض، بل كلاهما صحيح في حد ذاته. أي يصح القول بأنه يمكن للإنسان أن يهتدي إلى الله

بواسطة العقل، وصحيح أيضا أن العقل وحده لا يمكن أن ينال معرفة الله وعلمه، بل ضروري له أن يعينه الله تعالى بالآيات والتأييدات من السماء. وبيان ذلك أنه قد ذُكر آنفا أن الإيمان بالله منقسم على درجتين. الدرجة الأولى هي التي يمكن نوالها بالاستعانة بالعقل فقط، والدرجة الثانية هي- والحق أن هذا هو ما يسمَّى الإيمان بالله في مصطلح الشريعة- التي نوالها بالعقل وحده مستحيل، بل يدبّر الله تعالى تدبيرا خاصا لإعانة العقل في هذه المرحلة. الدرجة الأولى من الإيمان التي تُنال بالعقل لا تتعدى أنْ نتوصّل بالأدلة العقلية إلى نتيجة أنه يجب أن يكون لهذا الكون خالق ومالك، لأن كل ما نراه في الأرض والسماء لا يمكن أن يكون من تلقاء نفسه بغير خالق ووليد صدفة. والدرجة الثانية للإيمان هي أن ذلك الخالق والمالك موجود فعلا ويتحلى بصفات كذا وكذا ويمكن للإنسان أن يصل إليه بطريقة كذا وكذا. إذًا، هناك مرتبة هي: "يجب أن يكون"، وهناك مرتبة أخرى هي: "هو موجود فعلا".

والآن فكّروا بأنفسكم فتعلموا أن العقل وحده لا يوصلنا أبدا إلى مرتبة "هو موجود فعلا"، بل ليست مهمته إلا أن يخلق في قلوبنا يقينا بأنه "يجب أن يكون". إذًا، لو تعمّقنا في الموضوع لعلمنا أنه لا يمكن للعقل أن يخلق فينا إيمانا بالله، ولكن يمكنه أن يُعِدّنا للإيمان. ولا يقدر على أن يرينا الله بل يمكنه أن يشير إليه من بعيد، ولا يسعه أن يوصلنا إليه ﷻ بل يمكن أن يفتح لنا باب لقائه، ولا يمكنه أن يخلق فينا طمأنينة بل يمكنه أن يخلق

فينا حتما حرقة هي ضرورية للحصول على تلك الطمأنينة. لا يقدر على خلق اليقين بالله في قلوبنا بل يقدر حتما على أن يخلق يقينا أنه يجب أن يكون هناك إله. ليس للعقل أن يأخذنا إلى أبعد من ذلك لأنه عندما يبلغ هذا المقام تواجهه البوابة الحديدية التي تحرسها الملائكة متمثلة في الآية: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، فلا يمكنه أن يتجاوزها ما لم يأذَن اللهُ له بوجه خاص. أو قولوا إن شئتم إنَّ نظر العقل المحدود يتوقف عند: "يجب أن يكون"، ولا يتعداه ما لم يؤذَن له بوجه خاص. وعندما يأذن اللهُ له تتمزق الحُجُب الحائلة في طريقه. والنظر نفسه الذي كان يعود مرة بعد أخرى وهو حسير يقع الآن على وجه الله الخالق مباشرة. وبقدر ما يقترب الإنسان يتضح مشهده هذا أكثر فأكثر ويتقدم علما ومعرفة. ولكن بما أنه لا حدود لهذا القرب، ولا للعلم والمعرفة نهاية، لأن الله غير محدود، فمعرفة غير المحدود أيضا لا تكون محدودة، لذلك كان سيد الكونين، خاتم الرسل ﷺ أيضا يدعو بدعاء: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ -كما كان يدعو به الآخرون- وهو الذي أجرى الله تعالى على لسانه ﷺ كلمات: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"، والذي قال الله تعالى عنه: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩-١٠). اللهم صلّ على محمد وبارك وسلّم.

ولكن من المؤسف حقا أن معظم الناس عندما يبلغون الدرجة الابتدائية من الإيمان يزعمون أنهم قد نالوا كل ما كانوا يبتغونه. والأكثر أسفا من

ذلك أن الجزء الأكبر من العالم يتكوّن من الذين عندما يفكرون في الله لا يتعدّون مرتبة "يجب أن يكون" ويزعمون ببلوغهم هذا المقام أنهم قد وصلوا إلى الله، مع أنه لا شك أن مرتبة: "يجب أن يكون" مِرقاة للوصول إلى مرتبة: "هو موجود فعلا"، وأن الإنسان يصحو صحوة روحانية ابتدائية عند بلوغه هذا المقام، ولكن لو توقف عن الخطو إلى الأمام بعد بلوغه هذا المقام وزعمه انتهاء سلوكه وبلوغ مرامه، فيمكن أن تكون هذه الحالة خطيرة ومدعاة لهلاكه. وتكون نتيجة ذلك في معظم الأحيان أن الإنسان يعود أدراجه ويسقط في هوة الإلحاد المظلمة إلى الأبد، وينكر الله مع أنه كان يبحث عن الله من قبل، فتصيبه المنية في حالة الإنكار، لأنه عندما يرى أنه لم يصل إلى الله على الرغم من السعي والجهد، ولم يبلغ على أكثر تقدير إلا فكرة أنه يجب أن يكون هناك إله، يغلبه اليأس رويدا رويدا، فينكر الله في نهاية المطاف حاسبا هدي عقله خديعة محضة.

إذًا، إن مَثله كمثل الذي يجد باب غرفة مغلقا من الداخل، ويستدل بذلك على أنه يجب أن يكون فيها شخص، وإلا لما أُغلق الباب من الداخل تلقائيا. وإذا بقي واقفا أمام الباب إلى فترة طويلة وظل يطرقه وينادي ويصرخ ولم يُفتح له الباب، تنشأ الشكوك في قلبه رويدا رويدا فيقول: لعل الباب قد أُغلق تلقائيا لسبب مجهول أو مات داخل الغرفة مَن أغلقها، وهلمّ جرا. وسيأتي وقت أخيرا حين يقنط كليا ويرجع عن الباب بيقين أنه ليس في الغرفة أحد.

فإن لم يهدِ الإيمانُ بالله، القائلَ: "يجب أن يكون موجودا" إلى مرتبة "هو موجود فعلا"، فلا نتيجة له سوى الإلحاد. أما المعتادون على التفكير والتأمل فيستحيل عليهم أن يتوقفوا عند هذا المقام، فإنهم إما أن يخطوا إلى الأمام أو يعودوا إلى الوراء بعد فترة يائسين. ولكن من المؤسف حقا أن هناك كثيرا من الناس في العالم -بل هم الذين يشكّلون الأغلبية- الذين على أعينهم غطاء الغفلة فيطمئنون بعد بلوغهم مرتبة "يجب أن يكون موجودا" زاعمين أنهم قد وصلوا إلى الله، وقد حازوا ما كانوا حائزين. فيزعمون بسبب جهلهم وغفلتهم وحمقهم أن في معرفة الله إلى درجة "يجب أن يكون موجودا" كفاية، ولا يتوجه عقلهم بيقظة كاملة إلى أنه إذا كان وجود الخالق ضروريا فهل هذا الخالق موجود أم لا؟ وإذا كان موجودا فمن هو؟ وأين هو؟ وما هي صفاته؟ وكيف يمكننا أن ننشئ علاقتنا به؟ وكيف يمكننا أن نعرف أن له علاقة بنا؟ الناس من هذه الفئة لا يفكّرون في المضي إلى الأمام ولا يعودون إلى الوراء نتيجة اطمئنانهم الزائف، وتصيبهم المنية وهم يظنون جالسين في الطريق بأنهم قد وصلوا غايتهم المنشودة. وإنّ الذين يدّعون الإيمان بالله في العصر الراهن معظمهم يندرجون تحت هذه القائمة.

يا أيها الإنسان الشقي، لقد قطعتَ شوطا مستفيدا من سراج العقل ذي الضوء الخافت والضعيف، ولما آن الأوان أن تخطو إلى الله بشوق ولهفة، دون أن تتعثر وتسقط، مستفيدا من أشعة قوية لشمس الله

الروحانية وتسرع إليه ﷻ وتعرف ربك ومولاك من بعيد بداية، ثم تقترب إليه زلفى لتحتضنك صفاته المقدسة كأمّ رؤوم وتغشيّك؛ جلستَ متنحيا عن الطريق ظانًّا أنك وصلتَ إلى الله وقضيتَ بقية أيام حياتك على هذا النحو. لا أفهم كيف يهدأ دون نيل المراد قلبُك الذي أودعهُ الله خالق الفطرة عطش اليقين الذي لا يهدأ بغير الطمأنينة الحقيقية والذي أُضرمت فيه نار الحب والعشق التي لا تنطفئ إلا برذاذ من حب الله؟ إن لم تكن خادعا لغيرك فإنك مخدوع حتما. واعلم أن كون المرء مخدوعا يجعله أحيانا في عِدَاد المجرمين. فاتّق الله ولا تهلك نفسك، ولا تكن سببا لضلال الآخرين بجلوسك في الطريق.

الأدلة العقلية على وجود اللّه

الدليل الوقائي

والآن أبين بإيجاز بعض الأدلة العقلية على وجود الله. وكما قلتُ من قبل، هذه الأدلة توصلنا إلى مرتبة: "يجب أن يكون" فقط، وللوصول إلى المرحلة التالية نحن بحاجة إلى أدلة من نوع آخر وسأبيّنها لاحقا. ولكن قبل بيان الأدلة العقلية أريد أن أبيّن دليلا هو دليل وقائي فقط. لا يخفى أننا في بعض الأحيان نقوم بما لا يكون ضروريا نظرا إلى سبب معقول، ولكنه يكون ضروريا كإجراء وقائي. فمثلا إذا خيّمنا في فلاة ليلا نتّخذ أحيانا حراسة كإجراء وقائي وإن لم يكن هناك خطر لهجوم سباع أو سرقة سارق. ونفعل ذلك واضعين في الحسبان أنه يمكن أن يطرأ خطرٌ صدفة -وإن لم يكن ماثلا للعيان ظاهريا- فنبقى بلا حيلة. عندئذ يشير علينا عقلنا أن الحراسة لن تضرنا شيئا وإن لم يطرأ الخطر، أما إذا طرأ فإن تدبير الحراسة ينفعنا كثيرا دون أدنى ريب.

باختصار، في كثير من الأحيان نقوم بإجراءات وقائية، والعالم كله يعترف بأنها ضرورية ومفيدة جدا.

فحين نلقي نظرة على مبدأ وجود البارئ تعالى من هذا المنطلق يحكم عقلنا أن الإيمان به أحوط وأكثر أمنًا من الإنكار على أية حال. إن لم يكن هناك إله وكان الكون كله وليد صدفة فمن الواضح أن الإيمان

بالله لن يضرنا شيئا، أما إذا كان الله موجودا فإيماننا به سيكون مفيدا جدا لنا دون أدنى شك. الحق أن لهذا السؤال جوابين فقط لا ثالث لهما، أي إما أن الكون كله جاء إلى حيّز الوجود تلقائيا ويعمل تلقائيا وأن فكرة وجودة الله باطلة (والعياذ بالله)، أو له خالق ومالك وهو الذي يديره. ولا يقترح عقلنا شيئا آخر قط. وإذا أنكرنا الله تعالى مع إمكانية وجوده فإن إنكارنا إياه يضعنا أمام أخطار كثيرة، ولكن إذا آمنّا به مع إمكانية عدم وجوده فلا نواجه أيّ خطر على الإطلاق؛ ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢). فثبت أن الإيمان بالله هو الطريق الأحوط، لأنه لا يشكّل أيّة خسارة، أما الإنكار فإمكانية الخسارة موجودة فيه.

يُروى أن شخصا سأل عليًّا رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الله؟ ردّ عليه عليّ رضي الله عنه الرد نفسه نظرا إلى بساطة السائل فقال: يكفيك بأنه لو لم يكن هناك إله فالمؤمنون والكافرون به سواسية، ولا خطر على أحد، أما إذا كان الإله موجودا فاعلم أن المنكر لن يأمن عواقب الإنكار. فاطمأن السائل بهذا الدليل وحده ولم يطرح أيّ سؤال آخر. فالحق أنه إن لم يكن هناك إله فما الضرر علينا نتيجة الإيمان؟ هل نضطر إلى ترك شيء نتيجة الإيمان بالله؟ هناك جرائم معروفة مثل الزنا والقتل والسرقة والنهب والكذب والخديعة والزيف وما شابهها التي يتطلب منكم الإيمان بالله أن تتركوها. وهذه كلها أمور تجبركم على تركها فطرتكم وعقلكم

وحكومتكم أيضا. فماذا خسرتم نتيجة الإيمان بالله؟ هذا الإيمان لا يحول دون أية أمنية من أمانيكم المشروعة قطعا. فكلوا واشربوا بصورة مشروعة، وناموا واستيقظوا، اقعدوا وقوموا وارتعوا والعبوا، واقرؤوا، واكتبوا واعملوا أعمالا دنيوية واكسبوا الأموال وأنشئوا الصداقات وتزوجوا واعمروا بيوتكم وتناسلوا، فلا يمنعكم الإيمان بالله من أيّ شيء، وإنما يمنعكم مما هو مضر ويسبب الخسارة لكم ولغيركم. والامتناع عن أمور من هذا النوع هو مما تقتضيه فطرتكم وعقلكم وقانون التمدن والسياسة. فأيّ ضرر عليكم في الإيمان بالله؟ وإن قلتم: لماذا نؤمن به بغير دليل؟ قلتُ: كما تقومون بإجراءات وقائية كثيرة في الدنيا خذوا هذا الأمر أيضا كبقية الإجراءات الوقائية. فلباب الكلام أنه ما دامت في الإيمان إمكانية النفع ولا ضرر فيه، أما الإنكار فلا فائدة فيه بل هناك إمكانية الضرر فقط، لذا فكّروا بأنفسكم أي السبيلين أحوط وأقرب إلى الأمن؟ من المعلوم أن منكري وجود الله ينكرونه عادة لأنه لا دليل على وجود الله بحسب زعمهم، ولا ينكرون لأنهم يملكون دليلا على عدم وجود الله. ففي هذه الحالة يفتي العقل بالنظر إلى مبدأ الحيطة والحذر أن الإيمان بالله هو الأقرب إلى الأمن.

خلاصة القول أنه إذا لم يكن هناك إلـــه كان كلا الفريقين سيين، ولن يخسرا شيئا نتيجة الإيمان به، أما إذا كان موجودا فسيربح المؤمنون به، وليفكر المنكرون في عاقبتهم.

وإذا أثار أحد شبهة وقال: ما الفائدة من الإيمان الذي ليس مبنيا على حقيقة بل مبني على جانب الحيطة والحذر؟ فجوابه: لا شك أن هذا الإيمان لا يسمّى إيمانا حقيقيا، ولكنه أفضل من عدمه على أية حال. وصاحب هذا الإيمان سيبقى متوجها إلى الله تعالى إلى حد ما بسبب إيمانه هذا، وتوجهه هذا سوف ينفعه كمرقاة للوصول إلى إيمان حقيقي. وإضافة إلى ذلك يمكن أن يكون هذا الإيمان سببا لكسبه أعمالا صالحة بين فينة وفينة. على أية حال، مهما كان هذا الإيمان ناقصا، إلا أنه خير من لا شيء حتما. وكما قلت من قبل أن هذا النوع من الإيمان يمكن أن ينشأ نتيجة الدليل الوقائي الذي ذكرتُه آنفا، ولا مبرر لحرماننا منه.

دليل الفطرة

بعد هذا البيان أشرع في سرد الأدلة الحقيقية. والدليل الأول الذي أريد تقديمه على وجود الله هو دليل الفطرة. لقد قلتُ في بحث التحقيق في وجود الله أن فطرتنا تُنشئ فينا سؤالا مفاده: هل للكون خالق ومالك أم لا؟ فلا يسعنا أن نغض الطرف عنه. والآن أريد البيان أن الفطرة لا تلزم الصمت بعد طرح هذا السؤال، بل تردّ عليه أيضا، والمتعودون على سماع صوت الفطرة يسمعونه أيضا. ولكن ما المراد من الفطرة؟ يجب أن تفهموا الرد على هذا السؤال أيضا لأنه ما لم يعلم المرء ما هي الفطرة يصعب عليه إدراك معنى صوتها أيضا. فليكن معلوما أن كلمة "الفطرة" مستمدة

من "فطر"، فيقال: "فلان فطر الأمر، أي اخترعه وابتدأه وأنشأه". أي صنع ما لم يكن له وجود من قبل، وأخرجه إلى حيزّ الوجود من العدم. وبناء على ذلك قال علماء اللغة في بيان معنى الفطرة: "الصفة التي يتصف بها كل مولود في أول زمان خلقه".

فبحسب هذا التعريف يكون المراد من فطرة الإنسان صفاته وخواصه التي لم تتكون بسبب تأثيرات خارجية، بل أُودعَت فيه كطبيعته وخَلقه ليقدر بواسطتها على فتح أبواب التقدم على نفسه. من الواضح أن في كل شيء خصائص تُسمَّى خواصُّه الطبيعية، ومجموعة هذه الخصائص تسمى "الفطرة".

هذه الصفات والخصائص تخمد أو تتنشط نتيجة تأثيرات خارجية. وهذا ما يعتمد عليه تقدُّم المرء أو انحطاطه. وكل إنسان يستطيع أن يعرف بالتأمل في ذاته أيّ نهج تنهجه خصائصه الفطرية. فمثلا قول الصدق نزعة فطرية في الإنسان، أي أن من صفاته الفطرية ألا يتفوه إلا بما هو صحيح ومطابق للواقع، وكل طفل يعمل بحسب هذه الصفة الفطرية في البداية. ولكن حين يرى في بعض الأحيان أن والديه يسخطان على عمل من أعماله، بينما يكون هو راغبا في العمل نفسه لسبب ما، فتشتد في قلبه أمنية للعمل به، ولكنه يريد أن يخفي فعله هذا خشية سخط والديه. وهذه أول غشاوة تقع على فطرته، ثم يتعود رويدا رويدا على فعْل ما يرغب فيه، ولكن لا يكتفي فقط بإخفائه عن والديه بل يكذب أيضا عندما يُسأل عنه

ويقول بأنه لم يفعله. وبذلك تظل قوته الفطرية التي تقتضي صدق المقال في جميع الأحوال محجوبة بحُجُب الظلمة حتى يأتي وقت ينسى فيه مقتضى فطرته تماما. ففي مثل هذه المناسبات يقال عندنا: "ماتت فطرته". مع أن الفطرة الحقيقة لا تموت أبدا، بل تُحجب وتستر بحُجُب التأثيرات الخارجية. والحال نفسه ينطبق على العواطف الفطرية الأخرى. فمثلا الحب والكراهية والحِلم والغضب والعفو والانتقام والشجاعة والخوف والعفة والشهوة والرغبة في التقدم والنفور من الانحطاط وما شابهها من النـــزعات مودَعة في فطرة الإنسان بصورة طبيعية، ولكن التأثيرات الخارجية تكبتها أو تنشطها؛ بمعنى أن هذه الخصائص تميل تارة إلى الإفراط وتارة أخرى إلى التفريط، وأحيانا تبقى في حد الاعتدال.

إذًا، إن مبدأ سماع صوت الفطرة في ظل هذه الظروف يصبح حساسا وصعبا جدا، وينخدع الناس عادة بخصوص فطرتهم أيضا إلا الذين تكون عواطفهم الفطرية معتدلة. ومع ذلك ما من شك في أن الفطرة حقيقةً لا يسع أحدا إنكارها، ولكل خاصية فطرية مُتَطَلَّبها الذي يُسمَّى صوتَها. فمثلا إن صدق المقال نزعة فطرية، ومقتضاها أن يقول الإنسان صدقا وحقا كلما تطلب الأمر ذلك، وألا يقول ما يخالف الواقع ولا يزيد فيه شيئا، وهذا المقتضى يسمّى صوت الفطرة. فلإبقاء هذا الصوت الفطري حيّا يقول الله في القرآن الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣١). أي يا أيها الإنسان التزم الاعتدال، كي تبقى قائما على فطرتك التي خلق اللهُ الإنسانَ عليها.

والآن، فليفكر كل إنسان في نفسه، هل يصعد من فطرته صوت عن وجود الله أم لا؟ عندما يسأل المرء نفسه في خلوة: هل وجودي وليد صدفة فقط أم خلقتني قوة عليا؟ وهل يتناهى إلى أذنيه صوت الفطرة أم لا -ردّا على هذا السؤال- بغير أن يتبنّى رأيا معينا نتيجة التفكر والتأمل في الأدلة العقلية؟ يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأَعراف: ١٧٣).

المراد من هذه الآية الكريمة هو أنه عندما خلق الله الإنسان أودع في فطرته -كما أودعها خصائص وصفات أخرى- أن لك خالقا ومالكا يجب ألا تغفل عنه. وقد فعل الله ذلك لكيلا يكون عند أحد يوم القيامة عذر أنه قضى نحبه وكان غافلا، وإلا لتوجه إلى الله. باختصار، هذه أيضا خاصة فطرية مثل بقية الخصائص، وهي أننا لم نأت إلى حيّز الوجود من تلقاء أنفسنا بل خلقَتنا ذات عليا. وكل من ليست فطرته محجوبة أو مستورة نتيجة تأثيرات خارجية فسوف يجد حتما بين حين وآخر صوتا صاعدا من داخله يقول بأن لي خالقا. بل الذين دفنوا فطرهم تحت حُجُب الظلمة والغفلة تطرأ عليهم أيضا بعض الحالات حين تفيق بغتة فطرهم الراقدة وتبعث هذا الصوت في آذانهم. فقد لوحظ في كثير من

الأحيان أن ملحدا شديد الإلحاد أيضا ينادي الله تعالى فجأة عندما يواجه مصيبة. قد يقول قائل هنا بأن هذه الظاهرة ناتجة عن عادته. ولكني أقول بأن العادة تكون نتاج الظروف السائدة. فمن كان ينكر الله منذ سنين عديدة وظل ثابتا على الإنكار بل ينفث السم من خلال كتاباته وخطاباته ضد المؤمنين، لا يمكن القول بأنه بدأ ينادي الله تعالى نتيجة عادةٍ. بل الحق أن من عادته الإساءة إلى الله وكيل الشتائم والسباب له وليس دعاؤه للنصرة. إذًا، إنَّ تفوُّه ملحد شديد الإلحاد باسم الله فجأة عند حلول مصيبة به لا يمكن أن يكون نتيجة شيء سوى صوت الفطرة. الحق أن المصيبة أيضا بمنـــزلة الزلزال، وكما أن الزلزال يُخرج إلى السطح أشياء مدفونة كذلك زلزال المصائب المفاجئ ينتشل أحيانا فطرة الإنسان المدفونة من مدفنها ويُظهرها للعيان، وبالتالي يظهر للعيان نداء الفطرة الذي كان مسموعا من قبل وكان محجوبا تحت آلاف الحُجُب.

كذلك نرى أنه عندما يشيخ الإنسان يسمع أصوات الفطرة بوضوح أكثر. والسبب في ذلك أيضا يعود إلى أن آلاف أنواع الغفلة قد أحاطت به عادة في أيام شبابه، وزد إلى ذلك كثرة الأشغال الدنيوية، كما يتجاوز الناس حد الاعتدال عادة بسبب ثورة عواطفهم. ولكن عندما تطرأ عليه الشيخوخة تفتر تلك الثورة رويدا رويدا وتزول الغفلة شيئا فشيئا، ويتفرغ الإنسان من المشاغل الدنيوية أيضا نوعا ما، ففي هذه الحالة تجد فطرته فرصة مجددا لتوصل صوتها إلى أُذنيه. ترون أن معظم الملحدين هم

شباب، وعندما يقترب شبابهم من نهايته يطرأ التغير على أفكارهم أيضا في معظم الأحيان، فنرى أن كثيرا من الملحدين يبدؤون بالإيمان بالله عند بلوغهم الشيخوخة، لأن صوت الفطرة يصل إليهم في هذه المرحلة ويُجبرهم على التخلي عن الإنكار. إذا كان هناك بعض الاستثناءات فهذا أمر آخر، ولكن القانون العام هو ما ذكرتُه آنفا. غير أنه إذا ظل أحد يواجه في الشيخوخة أيضا ظروفا تكبتُ فطرته فلا شك أنه سيبقى قائما على إلحاده. ولكن ما دام المرء يواجه ظروفا تدفعه إلى الغفلة في الشباب عادة، لذا يكون الشُّبان عرضة للإلحاد في معظم الأحوال.

قد يقول أحد أن هذا التغيُّر لا يحدث بسبب صوت الفطرة بل يطرأ خشية الموت، بمعنى أنه عندما يشيخ الإنسان ويرى أنه موشك على الموت يستولي عليه الخوف بطبيعة الحال، وبالنتيجة يتوجه إلى الله تعالى. فأقول بأن هذا الدليل يؤيد موقفنا ولا يخالفه. إن خوف الموت أيضا هو صوت الفطرة، وإلا ما للملحد والموت؟ الذي يحسب حياته وليدة صُدفة فقط لا حقيقة للموت في نظره سوى أن الحياة التي كانت وليدة صدفة قد انقرضت الآن إلى الأبد نتيجة صدفة أو لسبب آخر. إذًا، إن قرب الموت يجب ألا يؤثر في قلب ملحد. فثبت أن خوف الموت أيضا هو نتيجة تغيّر داخلي، وهذا ما نسميه صوت الفطرة. الحق أنه عندما تبدأ حُجُب الغفلة والظلمة في الزوال تجد فطرتنا فرصة مجددا للتحكم في قلوبنا، وننجذب إلى الإيمان بالله بقوة لا نشعر بها. ونِعم ما قال المسيح الموعود عليه السلام في

هذا الموضوع في بيت من شعره ما تعريبه: "لقد حالت مئات الحُجُب دون ظهور وجهك للعميان، وإلا فإن وجهك الكريم إنما هو قبلة كل كافر ومؤمن"

باختصار، الفطرة البشرية هي دليل قوي على وجود الله تعالى بشكل لا يسع عاقل إنكاره. وإنها لـمنّة الله العظيمة علينا إذ قد بذر في فطرتنا بذرة الإيمان، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢)، أي أيها الناس لا حاجة لكم إلى البحث هنا وهناك، بل إن آيات الله موجودة في نفوسكم أنتم، ولكن عليكم أن تلحظوها. ونِعم ما قاله شاعر ما تعريبه: "في مرآة القلب مرسومة صورة الحبيب، فعندما أريد رؤيتها أخفض عنقي فأراها"!

لا أدري ماذا كانت الفكرة في ذهن الشاعر حين نظم هذا البيت، ولكن مما لا شك فيه أن الله تعالى قد رسم صورته في قلب كل إنسان، ولكن المتكبّر لا يخفض عنقه. لقد أودع الله تعالى جذوة حبه في فطرة الإنسان ولكن قليل ما هم الذين يحمونها من الانطفاء. ويقول المسيح الموعود عليه السلام في أبيات من شعره ما تعريبه. "لقد أودعتَ بنفسك الأرواح حرقة لوصالك، وبسبب ذلك يثير المحبون المشغوفون هذه الضجة كلها.

لا يهدأ لي البال ولا أرتاح دونك ولا لحظة واحدة، وأضيق ذرعا كما قلب المريض.

ما هذه الضجة في زقاقك! فانتبه إليها لئلا تزهق نفسُ مجنون الحب."

دليل خلق الكون ونظام العالم

والآن أتناول دليلا هو أهم الأدلة من بين الأدلة العقلية كلها، بل الحق أن إيمان معظم الناس في العالم مبني على هذا الدليل وحده. هذا وإذا أمعنّا النظر في الموضوع لَعلمنا أنه لا يمكن أن يخطر ببالنا -من منطلق العقل الإنساني البحت- دليل أكثر منه سطوعا وأسرع تأثيرا. ليكن معلوما أنه لم تُذكر هنا الأدلة والبراهين التي تنـــزل من السماء ويثبت بها وجود الله كحق اليقين، والتي لا يجد الإنسان بواسطتها إشارة فقط إلى وجود الله بل يراه في الحقيقة ويصل إليه، بل ذُكرت هنا أدلة عقلية لا تتعدى مرتبة "يجب أن يكون". والدليل الذي أريد بيانه الآن هو فعلا دليل بيّن جدا من بين الأدلة هذه. ومن بركات هذا الدليل أكثر من غيره أن العالم في العصر الراهن في مأمن من إنكار الله كليا -مع كونه في ظلام حالك من حيث معرفة الله- ولا يتجاسر على الخطو إلى الإنكار. وهذا هو الدليل الابتدائي الذي استُخدم دائما في كتب الله لتنبيه الغافلين. وقد كرره القرآن الكريم أيضا كثيرا.

هذا الدليل يعود من الـــمُسبب إلى السبب، وإذا فحصناه علميا وجدناه يجمع في طياته دليلينِ في الحقيقة. أحدهما هو دليل معروف يُستدَلّ به على الخالق بالنظر إلى المخلوقات كلها. وهذا الدليل يستقطب عامة الناس أكثر لكونه سهل الفهم. الدليل الثاني هو تدبر ظروف هذا العالم المادي ونظام العالم ويُستدَلّ بذلك على خالق العالم ومدبّر نظامه

وقيّومُه. ثم ينقسم هذا الدليل نفسه على جزأين، ولكن من أجل السهولة والإيجاز سوف أبيّنه كدليل واحد.

الجزء الأول منه الذي يتعلق بالاستدلال بالمخلوق على الخالق بسيط جدا من حيث صورته الظاهرية. فمثلا في هذا الوقت الذي أحُلّ فيه ضيفا عند أحد الإخوة في منطقة "جبل منصوري" وأؤلف هذا الجزء من الكتاب، هناك أشياء كثيرة موضوعة على الطاولة أمامي، وكل شيء منها يعلّمني درسا بوجودها. الورق أمامي والقلم في يدي، وفي القلم حبرٌ، وتحت الورق نشّاف لتنشيف الحبر. وقد وُضعت على الأوراق قطعة زجاجية جميلة لئلا تتطاير هنا وهنالك. ولجلوسي يوجد كرسي ولاستنادي طاولة وعليها قماش للمحافظة عليها وإبقائها نظيفة. وعلى جانب الطاولة بعض الكتب التي أطالعها عند الضرورة. فكل هذه الأشياء موجودة أمامي الآن، وبوجودها فقط تخلُق في ذهني يقينا أن صانعا قد صنعها. إضافة إلى ذلك أنا موجود داخل غرفة لها أربعة جدران وعليها سقف، وفي الغرفة نوافذ وأبواب وعليها ستائر، وعلى أرضية الغرفة سجادة وعليها أشياء موضوعة هنا وهناك. وأنا أرى هذه الأشياء ومتأكد تماما أنها لم تأت إلى الوجود من تلقائها، بل هي ثمرة جهد صانع. وإذا جاءني شخص وأراد أن يُقنعني أن هذه الأشياء التي أراها لم يصنعها أحد بل ظهرت بصورتها الحالية تلقائيا فلن أقبل كلامه كما لن يقبله غيري. ولكن من المؤسف حقا أن كثيرا من هؤلاء الناس أناس يريدون أن نعترف

بأن الأرض والسماء والحيوانات والنباتات والجمادات والأجرام السماوية وطبقات الأرض وجسم الإنسان ليس ثمرة صنع صانع بل موجودة من تلقائها منذ الأزل. ولكن أنّى لي أن أقبل كلامهم؟ أمامي الآن قولُ بدويٍّ سأله سائل: ما الدليل عندك على وجود الله؟ فقال: "البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام على السفير، فالسماء ذات البروج والأرض ذات الفجاج أما تدلّ على قدير".

سبحان الله، كم هو صادق وبريء من التصنع ومليء بالحكمة هذا الكلام الذي خرج من لسان بدوي غير مثقف! ولكن لم يبلغ عمقه الفلاسفة من أوروبا وأميركا مع فلسفتهم وحكمتهم. ويقول القرآن الكريم عن خلق العالم ونظامه:

﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٥).

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢).

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (ق: ٧-٩).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (الرعد: ١٦).

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤١).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٦٧- ٧٠).

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: ٢٥-٣٣).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٢-٥).

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: ٤٣).

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: ١٨).

لا تحتاج إلى الشرح والتفسيرِ الفصاحةُ والبلاغةُ التي بهما توجِّه هذه الآيات -التي اقتبستُها من سور مختلفة من القرآن الكريم- أنظارنا إلى المخلوقات في الكون ونظام العالم، وتُرشد إلى وجود البارئ تعالى.

الحق أن كل شيء في العالم يوجِّه كل متدبر إلى الله تعالى؛ فبقدر ما يتقدم الإنسان في دراسة نظام العالم وخصائص الأشياء يتضح له هذا التوجيه أكثر ويصبح أكثر تحديدا. خذوا أصغر شيء في العالم وأمعنوا النظر فيه تروا أن ذلك الشيء البسيط يعمل بحسب قانون عظيم وحكيم جدا، ويلاحَظ فيه ترتيبٌ وهدفٌ يترك الإنسان في حيرة من أمره، وأن أصغر جزء منه أيضا يعرُض على ذهن الإنسان عقدة لا تنحلّ. يقول المسيح الموعود عليه السلام في بيت من شعره ما تعريبه:

"ليس بوسع الإنسان مطلقا أن يخلق حتى رِجل حشرة صغيرة، فأنّى له أن يخلق نور الحق؟"

خذوا الذبابة مثلا، كم تلاحَظ في هذه الحشرة الحقيرة تجليات قدرة الله العظيمة، حتى إن الإنسان لو بذل حياته كلها في البحث فيها وفي أعضائها ودراستها لانتهت حياته وسيبقى مجال البحث والدراسة أمام عينيه غير مكتمل. ثم انظروا إلى جسم الإنسان نفسه، فمنذ أن خُلق العالم ظل مئات الآلاف من أذكى الناس يبحثون في خلقه ولا يزالون يبذلون قصارى جهودهم للعثور على القانون الحكيم الذي يعمل في مختلف أعضاء الإنسان مثل القلب والدماغ والكلية والرئة والكبد والمعدة والعين

والأنف وغيرها. ولكن كم استطاعوا بادئ الرأي أن يقدّموا إلى اليوم أمام العالم من هذا الكنـــز الإلهي الصغير؟ لا شك أن الدنيا ستنتهي ولن تنتهي كنوز هذا العالم الصغير.

خذوا مثلا زهرة تنبت تلقائيا على جانب طريقكم، وفي بعض الأحيان تُداس تحت قدمَي سالك طريق غير واعٍ وتغيب عن أنظار الناس إلى الأبد. تنتشر في أوراقها الناعمة مئات العروق مثل شبكة، وكل عرق يمثّل بحد ذاته، ومن حيث عمله والقانون الذي يخضع له، عالَمًا لا تكفي لاكتشافه مئات السنين. ثم أمعنوا النظر في بذرة صغيرة تُرى بالكاد بحيث يسع شبر من الأرض مئاتِ الآلاف منها. ولكن عندما تُبذر في الأرض تصبح دوحة كبيرة في غضون فترة وجيزة يستظل تحتها كثير من الناس. وهل درستم حياة الإنسان مرة؟ فقد أتى عليه حين من الدهر كان فيه جزءا من جسم والده بصورة جرثومة حقيرة لا تُرى إلا بالمنظار، ولعل شخصا مرهف الحس لا يريد حتى رؤيتها، ولكنها صارت الآن كيانا جميلا وخلابا متحليا بأعلى القوى القلبية والذهنية.

تعالوا الآن وارفعوا نظركم إلى السماء، وانظروا إلى مشهد تقدمه لكم الشمس والقمر والنجوم. خذوا الشمس مثلا، هل تعلمون كم تبعد الشمس عن أرضكم؟ إنها تبعد عنها بقدر ٩٣ مليون ميلا. ولولا تعجبون لأخبرتكم أن شمسكم هذه من أقرب الأجرام نسبيا إلى الأرض، لأن بعض الكواكب تبعد عنها مسافة لا توجد لبيانها أرقام في لغتكم. ولعلكم

تعرفون حجم الشمس أيضا. فاسمعوا إن سعة أرضكم التي تعتزون بها كثيرا والتي تبدو مسطّحة بسبب عظمة سعتها على كونها كروية يبلغ قطرها ٧٩٢٦ ميلا، ولكن قطر الشمس يبلغ ٨٦٥٠٠٠ ميل. ولولا تعجبون لأخبرتكم أيضا أن هناك أجراما سماوية كثيرة ولا شأن لحجم الشمس مقابلها حتى كشأن عصفور صغير أمام الصقر.

هذا هو حال الأجرام السماوية من حيث صورتها الظاهرية. ولو درسنا هذا النظام العظيم الذي تدور بحسب قوانينه ملايين بل عشرات ملايين العوالم في جوّ السماء لاحتار عقل الإنسان حيرة ما بعدها حيرة. والغريب في الأمر أن كل كوكب يدور في مداره ملتزما بقوانينه ولا يمكن أن يصطدم بغيره أو ينحرف عن مداره ويدخل مدارا آخر. وهذا القانون ليس ملزما فيما يتعلق بالأجرام السماوية فقط بل الحق أن كل شيء على الأرض أيضا محصور في دائرته ولا يمكن أن يخرج من دائرته ويدخل في دائرة أخرى. فمثلا مهمة النار هي الإحراق، ومهمة الماء هي الإطفاء، ومهمة الشجرة هي أن تبقى مستقيمة وثابتة على الأرض، ومهمة الطيور هي الطيران في جوّ السماء، والمطلوب من الإنسان أن يمشي على الأرض، ومن السمك أن يسبح في الماء، ويتوقع من البقرة أن تأكل العشب والكلأ، وخُلق الأسد ليصيد الحيوانات الأخرى ويأكلها. هذه بعض الأمثلة المعروفة وإلا فكل شيء محصور في دائرة عمله بحسب

خصائصه وقدراته وعمله ولا يخرج عن دائرته. وزدْ إلى ذلك أن كل شيء يحقق هدفا وغاية معينة.

فكّروا الآن، هل هذا النظام العظيم الذي لا يخرج عنه شيء في السماء ولا في الأرض جاء إلى حيّز الوجود من تلقائه؟ هل هذا القانون الحكيم والمحكم الذي نراه يعمل في كل شيء ساري المفعول بغير تصرُّف ذات عليا؟ هل هذه الأرض مع المخلوقات التي لا تُعَدّ، وهذه السماء مع أجرامها التي لا تُحصى هي خالقة نفسها وربّ نفسها؟ دعكم من السؤال عمَّا إذا كان هناك إله فمن هو وأين هو؟ بل أجيبوا فقط على سؤال "هل يطمئن قلبكم إلى أن هذا الكون وهذا النظام كله جاء إلى حيّز الوجود من تلقائه بغير خالق وربٍّ ومالك وبغير مدبِّر؟". لا أسألكم هل تؤمنون بإله أم لا؟ بل سؤالي هو: هل يمكنكم أن تقولوا بأمانة إن هذه الأرض والسماء والحيوانات والنباتات والجمادات والأجرام السماوية وطبقات الأرض كلها وليدة صدفة بحتة؟ هل هذا النظام العظيم الذي خرط بلايين الأشياء في سلك واحد يجري تلقائيا بغير مدبّر؟ لا أظن أن من كان من أولاد آدم ويملك العقل والذهن والقلب يمكن أن يطمئن إلى أن هذا الكون الذي هو مجموعة أصناف من الغرائب يمكن أن يأتي إلى حيّز الوجود من تلقائه.

لباب القول بأن الكون كلّه مع نظامه الحكيم دليل قوي على وجود الله تعالى بحيث لا يسع عاقلا إنكاره.

لقد تناولت هنا الأشياء الدنيوية والمختلفة وأجزاءها بصورة فردية، وقلتُ إن كل شيء في الدنيا هو وجودٌ غريبٌ في حد ذاته ويعمل تحت نظامٍ حكيم بحيث يضطر الإنسان إلى أن ينسب خلق العالم إلى عليم وقدير وحكيم ومدبّر. ولكن عندما ندرس العلاقات المتبادلة بين أجزاء مختلفة لشيء أو علاقات متبادلة بين أشياء مختلفة، يمثُل هذا الدليل أمامنا بصورة أوضح من ذي قبل. نأخذ البعير مثلا، ونقبل أنه أُعطي أرجُلا طويلة نتيجة مبدأ خفيّ وغير معلوم لقانون الطبيعة، بمعنى أن حصوله على أرجل طويلة عائد إلى قانون من قوانين الطبيعة، ولكن السؤال هو كيف علِم هذا القانون الأعمى أنه إذا أعطاه أرجلا طويلة يجب أن يجعل عنقه أيضا طويلا حتى يصل وجهه إلى الأرض بسهولة. وهذا القانون الحكيم لا يعمل في البعير فقط، بل هو ساري المفعول في كل حيوان؛ أي إذا كانت لحيوان أرجلا طويلة كان عنقه أيضا طويلا، وكلما كانت الأرجل قصيرة كان عنقه أيضا قصيرا. قد يقول قائل بأن ذلك كان نتيجةً لظروف سادت إلى فترة طويلة، أي أن العنق يتطاول رويدا رويدا إذا كانت الأرجل طويلة. ولكن هذا الكلام ليس صحيحا، لأن تاريخ الحيوانات في العالم لا يقدم دليلا على أن عنق الحيوانات ذات الأرجل الطويلة كان قصيرا من قبل ثم طال رويدا رويدا.

ثم ما الجواب على السؤال عن كيفية معيشة الحيوانات ذات الأرجل الطويلة حين كانت أعناقها قصيرة؟ هذا مثال بسيط فقط وإلا إذا تعمّقنا

في الموضوع أكثر لوجدنا أن أجزاء مختلفة للأشياء كلها قد رُبطت ببعضها باعتدال تام بحيث تترك المرء في حيرة.

وإذا تقدمنا على ذلك قليلا نرى المشهد أكثر غرابة وخلابة من ذلك؛ إذ قد خلَق قانون الطبيعة في صُلب الرجل صدفة جراثيم نسل البشر، ثم خلق القانون نفسه في الرجل والمرأة رغبةً في الجماع، ثم أوصلت الصدفة نفسها تلك الجراثيم من صلب الرجل إلى رحم المرأة المظلم، ثم انتخب القانون نفسه جرثومة واحدة منها وربَّاها إلى تسعة أشهر وجعلها ولدا جميل الشكل وأعطاه قلبا وعقلا، ثم أخرجه من بطن أمّه. هذا يعني أن التغيرات الداخلية كلها في هذه النطفة قد حدثت بحسب قانون الطبيعة صدفة. لكن وضّحوا لي بالله عليكم، كيف علِم هذا القانون الأعمى أنه عندما أوشك الجنين على الخروج من بطن أمّه خلق في ثديَي أمّه حليبا غذاءً له، وذلك ليكون غذاء الوليد موجودا في الدنيا قبل أن يرى النور. إن ثديَي الأمّ ليسا جزءا من جسم الوليد، فكيف حصل أن بدأ صدر امرأة ينهد من أجل الوليد؟ سبحان الله! ما قدروا الله حق قدره.

ثم اسمعوا، لنفترض أن الأرض وُجدت تلقائيا، ووُجدت الأشياء الدابة عليها أيضا تلقائيا، وجاء الإنسان إلى الوجود من العدم، وتكوّن له الأنف والأذنان والعينان وما شابهها تلقائيا؛ أي وُجد كل ذلك نتيجة قانون الصدفة. ولكن كيف حصل أن خلق القانون نفسه

لإظهار قوة البصر في العين مصباحا عظيما أيضا على بُعد ٩٠ مليون ميل ليصل ضوؤه إلى الأرض لتستخدم العين بصارتها. صحيح أن الشجرة نبتت على الأرض وتكوّنت بذورها أيضا ونُثرت على الأرض وزُرعت، ولكن من فكّر أن هذه البذور تحتاج إلى الماء لنباتها؟ ومن دبّر أن يُرسِل أشعة الشمس على البحار ويُصعد منها عشرات ملايين الأطنان من الماء ويوصله بواسطة الرياح إلى أصقاع الأرض الجافة ثم يُحوّل تلك الرياح سحابا ويُنـــزِل الأمطار؟ إذا كان كل ذلك قد فعله قانون الصدفة، وهذا القانون هو الخالق والمالك والربّ والعليم والقدير والحكيم والمتصرف والمهيمن الذي يفكّر ويتدبر ويهتم بمقتضى الظروف، وإذا خلق في مكان ضرورة يهيئ في مكان آخر أسبابا لسدها أيضا. فإذا كان الأمر كذلك فلا تهمّنا الأسماء، لأن هذا هو إلهنا وله نسجد سجدة الحب والعبادة. باختصار، أيّ طريق اخترناه فلا مندوحة لنا من القبول أن هذا الكون ونظامه الحكيم والمحكم يشير إلى خالق ومالك وحكيم وعليم وقدير ومدبّر، أي أنه يتحلى بكل الصفات التي ينسبها الدين إلى الإله.

يجب التذكّر هنا أنني قد بيّنت هذا الدليل ببساطة فقط تفاديا للمصطلحات العلمية والتعقيدات ليفهمه شبابنا الأعزاء بسهولة. غير أنه يمكن سرده بصورة علمية أيضا، وبيانه بإيجاز هو أنه يتبين من مطالعة الطبيعة أن هناك ثلاثة أشياء توجد بصورة فردية أو مجتمعة

أيضا في أشياء مختلفة لا تُعدّ ولا تحصى في هذا العالم. أولها أن هناك قانونا مفصلا وكاملا تماما -يسمّى بالإنجليزية (Law of Nature) أي قانون الطبيعة- في كل شيء في العالم، سواء بحد ذاته أو من حيث العلاقات مع أشياء أخرى. لو درسنا هذا القانون بصورة صحيحة لكوّنّا دليلا قويا وبيّنا على وجود خالق العالم. ولكن من المؤسف أن بعض الناس جعلوا القانون نفسه مدعاة للعثار نتيجة قصر نظرهم.

وثانيا: يلاحَظ نظام وترتيب معين في كل شيء في العالم، وكذلك في القانون الحكيم الجاري في الطبيعة سواء على مستوى فردي أو جماعي. وبالنظر إلى هذا النظام والترتيب لا يسع عاقلا أن ينسبه إلى الصدفة. هذا الترتيب والنظام يُسمّى بالإنجليزية (Design or Plan) أي التصميم أو التخطيط.

ثالثا: نجد كل شيء في العالم يعمل مع ترتيبه ونظامه بحسب غاية وهدف خاص، بمعنى أن هناك هدفا وغاية ملحوظة في كل شيء في العالم الدنيوي، وهذا العلم يسمَّى في الإنجليزية (Teleology) أي علم الغائية. وهذه الغائية دليل قوي جدا على وجود البارئ تعالى.

باختصار، إن مطالعة نظام العالم تدفع الإنسان بكل قوة إلى أن هذا العالم لم يأتِ إلى حيّز الوجود من تلقائه بل خلقته ذات مدركة بالإرادة، وهو المراد.

الباحثون الغربيون والاعتقاد بوجود الله

قبل أن أنهي هذا البحث أريد أن أقول شيئا عن الباحثين الغربيين المتعوّدين على مطالعة كل شيء في ضوء العلوم والفلسفة. فليكن معلوما أن أهل الغرب المعاصرين الذين أنكروا وجود الله يستدلون عادة من نظريات العلوم والفلسفة الحديثة، ويقولون بأن في المادة قدرة طبيعية على اختيار أشكال مختلفة، وفيها مزية فطرية أخرى، وهي أنها تتقدم من حالة أدنى إلى حالة أعلى إلى فترة من الزمن. فيدّعون أن العالَم المادي بلغ المرحلة الحالية بعد المرور بتغيّرات كثيرة حدثت بحسب مبدأ الارتقاء. فيقولون مثلا بأن الإنسان لم يكن في هيئته الحالية منذ البداية بل كان في زمن سحيق كيانا أدنى جدا ثم مرّ بمراحل الارتقاء رويدا رويدا وحاز الشكل الحالي. كذلك هو حال أشياء أخرى في العالم أنها كانت في حالتها الابتدائية أدنى جدا ثم ارتقت شيئا فشيئا بحسب قانون الارتقاء. ويدّعون أيضا أن معظم الأشياء في العالم التي نراها حاليا في أشكال وهيئات مختلفة وبخواص مختلفة لم يكن فيها اختلاف إلى هذا الحد في زمن من الأزمان بل كان العالم في حالته الابتدائية بصورة بعض الأشياء المحدودة والبسيطة ثم ارتقت رويدا رويدا وظل يتكوّن هذا العالم العجيب. ويقولون بأنه لا يمكن تقديم الكون الحالي ونظامه الدقيق والمفصل والحكيم دليلا على وجود صانع خارجي، لأن كل هذا ظهر للعيان بصورة طبيعية بحسب قانون الارتقاء.

الأمر الآخر الذي يقول به الباحثون الغربيون هو أن هذا العالم ظل يعمل دائما بحسب قانون معين، وكل شيء فيه يعمل اليوم أيضا تحت قانون معين، وأننا نستطيع أن نكتشف السبب وراء كل تغيّر وحركة وسكون عن طريق البحث العلمي. ويدّعون أنهم يتقدمون في كل يوم جديد نحو الوصول إلى حقيقة قانون الطبيعة وخواص الأشياء والعلاقات بين الأشياء. لقد حصل التقدم في مختلف مجالات العلوم مثل الفيزياء والكيمياء وعلم الحركة وعلم الإنسان وعلم طبقات الأرض وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك والنفس وغيرها، ولا يزال يحصل، حتى أن عديدا من الحقائق التي كانت أسرارا غير مكشوفة وكنا نجهلها تماما قد ظهرت لنا كحقيقة مكشوفة، كذلك مئات من الأفكار الخاطئة التي كانت مترسخة فينا بسبب الجهل واتّباع الأسلاف دون مبرر بدأت تزول في ضوء العلوم الحديثة، وأن حقيقة مسألة الحياة وفلسفة بقاء العالم مستمرة في الانكشاف يوما إثر يوم، فالأمور التي كان الناس يزعمونها فوق قدرتهم وكانوا ينسبونها إلى وجودٍ أعلى، نستطيع أن نثبت اليوم في ضوء العلوم الحديثة أنها نتيجة قانون معين سائد في الطبيعة، لذا فإن نسبة هذا الكون إلى الإله أو غيره الذي لم يره أحد ولم يشعر به جهل بحت.

هذا هو الاعتراض الثاني الذي يقدمه بعض الباحثين الغربيين ضد وجود الله تعالى، ولكن لو تأملنا فيه أكثر لتبين لنا أنه اعتراض سخيف وتافه جدا. لا يمكن تقديم مسألة الارتقاء –التي لا حاجة إلى الخوض في تفاصيلها هنا،

ولا في البحث عن صحتها أو عدمها- دليلا ضد وجود الله تعالى قط، لأنها لا تلقي أدنى ضوء على بداية الكون الحقيقية، بل تتحدث فقط عن أن الأشياء الموجودة في الدنيا حاليا ليست هكذا منذ الأزل بل كانت في حالة دنيا ثم ارتقت وبلغت حالتها الحالية. ولكن السؤال هو: من أين أتت تلك الأشياء الأولية التي كانت في حالة دنيا؟ لا يرد مؤيدو نظرية الارتقاء على هذا السؤال ردا يقينيا. والمعلوم أنه ما لم يتم توضيح بداية خلق العالم فلا أهمية قط لتقديم مسألة الارتقاء دليلا على عدم وجود الله. فإذا ثبت مثلا أن الإنسان أو الأشياء الأخرى في الدنيا كانت في البداية في حالة دنيا ثم ارتقت رويدا رويدا وبلغت المرحلة الحالية؛ فهل يجوز الاستدلال من ذلك أنه لا خالق لهذا العالم؟ كلا، ثم كلا.

ولو قيل: حين ثبت أن هذه الدنيا كانت بسيطة جدا في شكلها الابتدائي ثم حازت صورة أعلى وأكمل بسبب مزايا المادة الداخلية، فهذا يُبطل على الأقل دليلا قدِّم آنفا يتلخص في أنه ما دام هذا الكون، الذي هو مجموعة أشياء مختلفة وكثيرة، يعمل تحت قانون دقيق وحكيم جدا، فثبت أنه يعمل تحت صانع خارجي وعليم ومتصرِّف، لكان هذا القول مبنيا على جهل تام لأنه من أغرب الغرائب أن توجد تلك الخواص في الأشياء في حالتها الدنيا ثم تتقدم لتصير كائنات غريبة، وإلى جانب ذلك ينشأ لها باستمرار قانون حكيم جدا، بل لو تعمّقنا في الموضوع أكثر لتبين أن الحالة الأوّلية التي تُذكر لهذه الدنيا المادية -بغض النظر عن صحة هذه

النظرية أو خطئها- هي أغرب من حالة الكون الحالية وتترك عقل الإنسان في حيرة من أمره، لأنه من الواضح أن تلك الحالة الأولية كانت بمنـــزلة البذرة للدنيا الحالية. وكل عاقل يستطيع أن يفهم أن البذرة أكثر غرابة وتحتوي على حِكمٍ أكثر من الشجرة نفسها، لأنها مع كونها صغيرة جدا حجما وبسيطة شكلا تتضمن جميع القوى والخواص والكمالات التي تكون كامنة في الشجرة وتظهر للعيان فيما بعد. إذًا، إن كون هذا العالم أدنى وبسيطا في حالته الأوّلية يثبت أن هذا الكون مليء بالحِكم والغرائب أكثر، وبالنتيجة يَمثُلُ للعيان دليل آخر على وجود خالق الفطرة وكيف أودع المادةَ في حالتها الأولية تلك القوى الخفية حتى تحولت رويدا رويدا إلى عالَـــم عظيم ومهيب وحكيم. وكيف ظَلّ يتشكّل معه قانون كامل وحكيم تعمل- في دائرتها- بحسبه اليوم أشياء لا تُعَدّ ولا تحصى في الدنيا، وتحير عقول الناس. إذًا، من الحمق تماما الاستدلالُ ضد وجود الله تعالى بمسألة الارتقاء. بل الحق أن هذه المسألة قد ألقت ضوءا أكثر على قدراته الحكيمة وصناعته عديمة النظير.

أما الاعتراض الثاني بأن كل شيء في العالم وكل تغيّر وسكون ينتج عن قانون معين وبأننا نطّلع كل يوم أكثر فأكثر على هذا القانون الخفي والسائد في الطبيعة، وفي كل يوم جديد يتبين بوضوح أكثر المبدأ القائل بأن كل ما يحدث في العالم إنما يحدث بحسب قانون الطبيعة المعيّن، وهذا يُثبت أن كل شيء ناتج عن قانون معين وليس هناك إله قط. هذا الاعتراض

أيضا سخيف وتافه للغاية. لم ندَّعِ قط أن نظام العالم لا يتْبع قانونا أو أسبابا، أو أنه يعمل بغير سبب وقانون أو بغير تصرُّف من الله تعالى. إننا نعترف بل ندّعي، وهذا ما يعلّمنا الإسلام، أن نظام العالم كله يعمل بحسب قانون حكيم للغاية وسلسلة من الأسباب الدقيقة جدا، بل قدمتُ هذا القانون ضمن الدليل قيد البحث لإثبات وجود الله تعالى. إذًا، إثبات أن كل شيء في الدنيا يعمل تحت نظام خاص ومعين لا يؤثر تأثيرا سلبيا على موقفنا. والسؤال الذي لم يستطع أن يردّ عليه أيّ ملحد ردّا مقنعا هو: من أين جاء هذا القانون الكامل والمتكامل؟ يردّ عليه البعض قائلين بأن هذا القانون خاصية طبيعية للمادة، وهذا القانون ينشأ نتيجة قانون آخر، وهكذا ظلت هذه السلسلة جارية وستظل جارية. ولكني أقول: من أين جاءت هذه الخاصية الطبيعية؟ ثم إنه لا شك أن قانونا ينشأ نتيجة قانون آخر، لكن مهما أطلنا سلسلة السبب والمسبب فإنه لا بد من الاعتراف ببدايةٍ بدأت منها هذه الأشياء كلها. فمثلا يقول العلماء بأن من قانون الطبيعة أن الأرض تدور حول الشمس، ويقولون أيضا بأن هذا القانون هو نتيجةُ قانون آخر سائد في الطبيعة، وهو أنه كلما أثَّرتْ على شيء قوتان أو قوى أكثر ذات اتجاهين مختلفين أخذ ذلك الشيء نتيجة تلك القوى مختلفة الاتجاهات يتحرك إلى جهة ثالثة تسمّى بالإنجليزية: (Resultant) أي المحصَّلة. ولما كانت تؤثر في الأرض أيضا قوى مختلفة

الاتجاهات، لذا بدأت تدور حول الشمس في جهة ثالثة نتيجة تلك القوى المذكورة.

نحن نقبل ذلك مبدئيا، ومع ذلك يبقى سؤالنا قائما على حاله وهو: من أين جاءت هذه القوى المؤثِّرة؟ وإذا قيل بأنها نشأت نتيجة أمر كذا فسينشأ سؤال: من أين جاء ذلك الأمر؟ باختصار، لا بد من الاعتراف ببذرة أوّلية لهذا الكون والنظام الموجود حاليا، كذلك لا بد من الاعتراف بأن تلك البذرة الأولية تضم في طياتها جميع الكمالات والقوانين والخواص الموجودة في هذه الدنيا. فمن هذا المنطلق أيضا وصل البحث إلى النقطة نفسها التي رُدّ عليها من قبل.

ملخص الكلام أن البحث عن سبيل لإنكار وجود الله بتقديم تلك القوانين والتغييرات المتوسطة خديعة لا أدري كيف تطمئن لها فئة من العلماء في الغرب. نرى أنه كلما تقدمت البحوث العلمية وانكشفت حقائق قانون الطبيعة ترسخ في قلبنا يقين، من الناحية العقلية وببصيرة أكثر، بأن هذا الكون مع قانونه الحكيم يعمل تحت خالق ومالك وعليم وحكيم وقدير ومتصرف حتما. ما دمنا نتوصل برؤية شيء بسيط إلى نتيجة مفادها أن صانعا قد صنعه فلا بد من أن يتولد عندنا يقين بوجه أَولى بالنظر إلى شيء غريب ومبني على الحكمة بأنه لم يأت إلى حيز الوجود من تلقائه بل هو تجلي قدرة وجود أعلى.

فيا أعزائي، فكّروا جيدا فتعلموا أنه لا تأثير لهذه العلوم والبحوث الجديدة إلا أن يَثبت أن القانون السائد في الدنيا وما فيها أفضل وأكثر حكمة بكثير مما ظُنّ من قبل، وأن الأشياء المختلفة في الدنيا لا تعمل بحسب قوانينها المنفصلة بل منخرطة بصورة جماعية أيضا في سلك قانونٍ حكيم جدا، وكل واحد منها يؤثر على غيره تأثيرا غريبا، وأنه ليس في العالم شيء زائد، بل كل شيء يعمل في دائرته وبحسب قانونه، ولكن هذا الاكتشاف -إذا سمِّي اكتشافا- يؤيدنا ولا يخالفنا، لأنه لا يمكن الاستدلال به ضد وجود الله قط بل تظهر تجليات قدرات إلهنا الحكيمة أكثر من ذي قبل.

ولكن الحق أن هذا الاكتشاف ليس اكتشافا جديدا، بل قد كشف القرآن الكريم هذه الحقيقة إجمالا قبل ١٣٠٠ عام إذ يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٤٩-٥٠).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٧).

أي ألا يرى هؤلاء الناس كيف يؤثر كل شيء على ما في اليمين وما في الشمال مطيعا ربه؟ وكل ما في الأرض وما في السماء يعمل بحسب قانون وضعه الله تعالى. ولم نخلق الأرض والسماء دون هدف بل خلقناها لهدف معين.

هذه هي الحقيقة التي لاكتشاف تفاصيلها يبذل اليوم باحثون في أوروبا وأميركا أعمارهم كلها. ولكن ما دامت عينهم الدينية مغلقة فيزعم بعضهم لسوء حظهم أن بحوثهم تمّثل هجومًا على الدين وعلى الله نفسه، بينما الحق أنه كلما ظهر كمال نظام العالم وقانون الطبيعة يُشير هذا العالم في رأي أهل البصيرة بوضوح أكثر فأكثر إلى خالق حكيم وعليم وقدير ومتصرّف. علمًا أن هناك عددا لا بأس به من الباحثين الغربيين الذين يؤمنون بالله، والبحوث الجديدة لا تعرقل سبيل إيمانهم بالله مطلقا، بل يستخدمونها سلاحا ضد الإلحاد.

فيا أعزتي، لا تتضايقوا من العلوم الجديدة، فهي خادمة لكم كلها، ولا تأثير لها أكثر من أن التجليات الحكيمة لقدرة إلهكم تظهر أمام أعين الناس بوضوح وتحديد أكثر من ذي قبل، ويثبت على العالم كعلم اليقين أن ما في الأرض والسماء إنما هو لفائدة البشر بصورة مباشرة أو غير مباشرة كما قال القرآن الكريم قبل ١٣٠٠ عام:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٠)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الجاثية: ١٤) أي خلق الله كل ما في السماوات والأرض لفائدتكم، وقد سخر لكم كل الأشياء لتطلعوا على حقائقها وتستفيدوا منها، ولكن الأسف كل الأسف على الإنسان، فالأشياء التي خلقها ربه ومالكه لهدايته وتقدُّمه، فقد اتخذها نفسها سببا

لضلاله وهلاكه. ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: ١٨). لا شك أن عدم الشكر لا يقود الإنسان إلا إلى الدمار والهلاك.

يجب التذكّر في هذا المقام أن السؤال: هل هناك إله أم لا؟ يخرج عن دائرة البحوث العلمية في الحقيقة ولا يمكن لعالم أن يخوض في هذا البحث باقيا في دائرة عمله، لأن المراد من العلوم هو علم اكتشاف خواص الماديات وقوانينها، أما البحوث عن الأشياء غير المادية، أو يمكن أن نقول بالأصح أن البحوث في ما وراء الطبيعة (Metaphysics) خارجة عن دائرة عمل العلوم الحالية على الأقل. إضافة إلى ذلك لا علاقة للعلوم بوجه عام بما ليس موجودا بل لها علاقة أكثر بما هو موجود وتحت أيّ قانون يعمل الشيء الموجود. إذًا، القضية أن الله ليس موجودا تخرج عن مجال بحث العلوم الحالية على الأقل. غير أنه يمكن أن يدخل في مجال بحث العلوم أنه كيف جاء هذا العالم المعاصر وما فيه إلى الوجود؟ وكيف بدأت الحياة؟ وهلمّ جرّا. فيمكن للعلماء أن يقولوا على أكثر تقدير بأنهم عثروا على وجود العالم منذ الأزل وأن نظام العالم يعمل تلقائيا تحت سلسلة قانون، وأن هذا القانون يعمل تلقائيا، وبدأت الحياة أيضا تلقائيا. ويمكن أن يستدلوا من هذا البحث استدلالا عقليا أنه ليس هناك إله. ولكن قضية عدم وجود الله لا تدخل في بحث العلوم مباشرة بحد ذاتها.

إضافة إلى ذلك جدير بالذكر أيضا أن الناس لسوء الحظ واقعون عموما في سوء فهم كبير عن العلوم، إذ لا يميّزون بين نظريات العلماء والحقائق الثابتة علميا. ومن المعلوم أن إعلانات العلماء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نظريات العلماء.

٢- تجارب العلماء غير المكتملة.

٣- الحقائق العلمية الثابتة.

لهذه الأقسام الثلاثة أهمية ومرتبة مختلفة، وإعطاؤها نفس القدر من الأهمية خطأ كبير. ولكن غير العارفين بالحقيقة يعلّقون عليها القدر نفسه من الأهمية، وكل ما يخرج من لسان العلماء وكل نظرية يقدمونها وكذلك كل ما يعلنه العلماء من المشاهدات والتجارب غير المكتملة يحسبها هؤلاء المذكورون حقائق علمية ثابتة. كما يطيعون العلماء جهلا منهم طاعة عمياء بدلا من اتّباع الصدق والحق، بينما كلّ من يملك ولو قليلا من العلم يعلم جيدا أنه لا تُعدُّ حقائق تاريخية إلا ما شوهد ولا يزال يشاهَد كالشمس في وضح النهار من خلال تجارب مختلف العلماء المتكررة، وما ثبت حقيقته علميا بصورة قاطعة على سبيل السبب والمسبب. أما ما عداه من نظريات العلماء وأفكارهم أو تجاربهم غير المكتملة فلا يمكن عدُّها حقائق ثابتة بأي حال، لأن فيها إمكانية الخطأ بقدر ما في كلام غيرهم من أصحاب العقل والفطنة. الحق أنه كلما اكتُشف أمرٌ جديد من خلال تجارب العلماء العملية ثم بلغ مبلغ الثبوت

بناء على تجارب مختلف الناس المتكررة في ظروف مختلفة، و لم يبقَ جانب منه في ظلامٍ من الناحية العلمية أيضا، عندئذ فقط يُعَدّ حقيقة ثابتة. ولكن قبل بلوغ هذه المرحلة -وإن كانت بعضٌ من تجارب العلماء تلقي عليه ضوءا وقبِله أيضا بعض العلماء- لا يمكن عدّه حقيقة ثابتة. ولكن لسوء الحظ أن عامة الناس لا يميّزون بين هذين الأمرين، بل يحسبون كل شيء من هذا القبيل حقيقة علمية ثابتة ويخضعون رأسهم أمامه. الأدهى والأمَرّ من ذلك أن ما يتبناه العلماء من أفكار ونظريات بناء على بحوث علمية يعُدّونها أيضا حقائق علمية ثابتة، أي يخلطون بين ثلاثة أشياء معًا، مع أنها تتباين وتتنافى مع بعضها تمامًا. وبذلك فإن العلوم التي يُتوقع منها أن تزوّد أذهان الناس بالنور العلمي تتسبب في دفعها إلى غياهب الجهل والظلمة.

من الواضح أنه عندما يبلغ أمرٌ مبلغ الثبوت بالتجارب العلمية ومن خلال المشاهدات المتكررة تحدث بناءً عليها في الشريحة العلمية في العالم بطبيعة الحال حركةٌ، ويبدأ مختلف العلماء في تأسيس أفكارهم ونظرياتهم المختلفة في ضوء هذا البحث الجديد، وبذلك تتولد أفكار ونظريات جديدة مع كل بحث جديد. والبسطاء من الناس يحسبون مجموعة الغث والسمين حقيقة علمية ثابتة مرعوبين بكلمة "العلوم" أو لسبب آخر، بينما الحقائق الثابتة تكون قليلة جدا، وما عداها فتكون أفكار العلماء ونظرياتهم التي لا تتغير فقط مع مرور الوقت بل أيضا يختلف فيها العلماء دائما.

باختصار، إنه لمن الخطأ الكبير عدم التمييز بين: (١) نظريات العلماء، و(٢) تجارب العلماء غير المكتملة، و(٣) الحقائق العلمية الثابتة. بل كل ما يخرج من لسان عالِم أو قلمه يُخضِع الناس له أعناقهم كالعبيد. ولسوء الحظ قد أخذ سكان الشرق نصيبا أكبر من هذه العبودية الذهنية والعلمية، أما أهل أوروبا وأميركا فيميّزون بين هذه الأمور جيدا ولا يعُدّون حقائق علمية إلا ما ثبت بالتجارب المتكررة ولم يعُد جانبا منه في ظلام من الناحية العلمية أيضا.

والآن، لو ألقينا نظرة من هذا المنطلق على السؤال قيد البحث لما وجدنا حقيقة علمية ثابتة يمكن أن يرد بسببها اعتراض على وجود الله. وأبسط دليل على ذلك هو أنه عندما يبلغ أي بحث مبلغ الثبوت لا ينكره أي عالِمٍ لأن بلوغه مبلغ الثبوت يعني أنه لم يبلغ مبلغ اليقين علميا فقط بل شوهد أيضا من خلال التجارب المتكررة التي تمت في ظروف مختلفة بحيث لا يبقى فيه مجال للشك والشبهة. ومعلوم أيضا أنه لا ينكره بعد بلوغه هذا المبلغ أيُّ عالِم ولا مَن لديه أدنى إلمام بالأمور. ونرى عمليا أيضا أن كل حقيقة ثابتة علميا تكون مسلَّما بها عند العلماء ولا يختلف أحد فيها، بل يكون الخلاف في الأمور التي لم تثبت تماما إلى الآن، أو هناك أفكار ونظريات بعض العلماء التي تبنّوها بصورة النظريات مؤسسين إياها على حقائق ثابتة.

باختصار، ليس هناك أيّ خلاف قط في الحقائق العلمية الثابتة، ولكننا نرى أن كثيرا من العلماء يؤمنون بالله، بل لو أمعنّا النظر أكثر لوجدنا أن قلة قليلة منهم ينكرون الله وأكثرهم لا ينكرون. فثبت أنه ما من حقيقية علمية ثابتة يمكن الاستدلال بها على وجه اليقين على أن الكون يعمل من تلقائه بغير خالق ومالك، وإلا لما وُجد هذا الاختلاف في العلماء.

وإذا قال أحد أنه إذا ثبت في المستقبل ما يوحي أن هذا العالم وما فيه، جاء إلى حيّز الوجود من تلقائه ويعمل تلقائيا فماذا سيكون الجواب؟ قلت: أولا، هذه فكرة سخيفة، بل من الأفكار الطفولية القول: ماذا لو حدث كذا وكذا؟ وماذا لو حدث كيت وكيت؟ ولكن إذا كان لا بدّ من إثارة هذا السؤال قلتُ: نحن نتحرى الصدق والحق، ولن ننكر ما ثبت على أرض الواقع. يقول الله تعالى لرسولنا ﷺ -فدته نفسي- أن يقول للنصارى أنه ليس لله ابن، بل الإقرار بوجود ابنٍ لله فعلٌ باطل وخطير إلى درجة أن ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ﴾، ولكن قل لهم على الرغم من ذلك أنه لو ثبت أن لله ولدا: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. إذًا، إننا مجبولون على تحرّي الحق والصدق، وهذا ما ورثناه من رسولنا الحبيب ﷺ، لذا إن جوابنا المبدئي هو أن كل ما ثبت على صعيد الواقع والحقيقة، مهما كان، سوف نؤمن به. ولكن الجواب الحقيقي هو أنه لن يثبت شيء يجعل وجود الله تعالى عرضة للشك والشبهة، لأن ذلك يعني اصطدام حقيقتين ثابتتين، وهذا مستحيل بالبداهة. هل يمكن أن يثبت علميا أن

المغناطيس يجذب الحديد، ثم يثبت علميا أيضا أنه لا يجذب الحديد في الظروف المماثلة؟ من الواضح أن هذا لا يمكن حدوثه، وإذا رأينا الأمر على هذا النحو على سبيل المثال فلا بد لنا من اعتبار إحدى الحقيقتين باطلة؛ أي سنضطر إلى القول عن إحداهما أنها ليست حقيقة ثابتة، بل فُهمت على هذا النحو خطأً. إذًا، إذا كان هناك بحث علمي ثابت يقول على سبيل الافتراض أن كل شيء في العالم موجود تلقائيا وهذا النظام كله يجري تلقائيا، فإننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر الله مطلقا، لأنه إذا كان ذلك البحث بحثا علميا، فإن وجود الله أيضا قد بلغ مبلغ الثبوت علميا من حيث المبدأ. وليس هناك ما يبرر أن نترك بسبب هذا البحث المزعوم حقيقة ثابتة بواسطة المشاهدة منذ بدء الخليقة. وإذا كان الحال على هذا المنوال سوف نفكّر أولا في مدى مصداقية هذا البحث الحديث الذي يُعَدّ حقيقة علمية ثابتة وفي مدى جدارته بالقبول.

فكِّروا جيدا تعلموا أن صحة الحقائق العلمية تُقبل فقط لأنها تكون مبنية على التجربة والمشاهدة إلى جانب كونها مدعومة بالأدلة العلمية والعقلية. ومن الواضح أيضا أنه عندما تقترن التجربة والمشاهدة مع الأدلة العقلية لا تبقى إمكانية للخطأ، إلا إذا كان هناك نقص في المشاهدة أصلا. والحق أن هذا الأسلوب من البحث هو الأنسب، وذلك لأن الحقائق العلمية الثابتة تُعَدّ الأكثر صحة بين العلوم الدنيوية كلها. ولكننا نرى أن الأدلة التي بها يثبت وجود الله تعالى في هذا العالم هي أيضا مبنية

على هذا الأسلوب العلمي نفسه، لأنه كما قلت من قبل إن وجود الله لا يثبت بالأدلة العقلية فقط، بل ثبوته مبني، مثل الحقائق العلمية، على التجربة والمشاهدة أيضا. بل هذه التجربة والمشاهدة أعلى وأكثر بكثير من الحقائق العلمية كيفا وكمًّا. لا يبلغ شوط العقل إلا إلى أنه "يجب أن يكون" الإله موجودا، وأما المرتبة فوقها، أي "هو موجود فعلا"، فتُنال بالتجربة والمشاهدة، واللهُ تعالى هو الذي يخلق الأسباب لتلك التجربة والمشاهدة كما يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٤)... أي أن معرفة الله بالأدلة العقلية وحدها مستحيلة. بمعنى أن الله تعالى بنفسه يخلق أسبابا ليراه الإنسانُ بواسطتها كيلا تبقى مشاهدته ناقصة. أما السؤال: كيف يمكن أن تتحقق هذه المشاهدة؟ فهو سؤال طويل وجوابه يتعلق بالجزء الثاني من هذا الكتاب. ولكن تكفي الإشارة هنا بإيجاز إلى أن هذه المشاهدة تتسنى بواسطة كلام يُنـــزله الله تعالى على عباده الأطهار ويكون زاخرا بآيات إلهية كما تكون الشجرة المثمرة مليئة بالثمار في موسم الثمار، وكما لا يرتاب أحد في معرفة الشجرة بعد تذوّق ثمرها كذلك إن وجود الله أيضا يظهر أمام الإنسان كالشمس في منتصف النهار بعد تذوّق هذه الثمرة الروحانية.

باختصار، إن إثبات وجود الله أيضا مبني، مثل الحقائق العلمية -وإن كان أكثر منها بكثير في كماله وإيضاحه- على التجربة والمشاهدة إضافة إلى الأدلة العقلية.

إذًا، لو ظهر للعيان بحث علمي يبدو مخالفا لوجود الله على سبيل الافتراض، فلن ننكر الله على الرغم من ذلك، بل سوف نتأمل في مصداقية ذلك البحث الجديد وفي جدارته بالقبول. ولا يمكن أن تكون نتيجة هذا التأمل بحسب رأينا إلا أنّ وجود الله حق، وأن البحث العلمي المزعوم الذي يبدو منافيا له؛ إما أنه لا يخالفه في الحقيقة، أو أنه قد عُدّ حقيقةً ثابتة خطأً بناءً على مشاهدة ناقصة، وإلا فهي ليست حقيقة ثابتة.

الحق، كما سنُثبت لاحقا، أن وجود الله تعالى قد بلغ مبلغ الثبوت نتيجة مشاهدة كاملة ومكتملة بحيث إن القول بأنه يمكن أن يخالفه بحث علمي ليس إلا جمع الضدين في مكان واحد، وهذا مستحيل. لو خالفَت العلوم مشاهدتَنا لكان مَثلها كمثل الباحث عن حتفه بظِلفه، لأن أساسه أيضا على المشاهدة.

على أية حال، هذا البحث سابق لأوانه، لأن ما سيحدث في المستقبل سنحكم فيه عندئذ، ولكن لا شك قطعا في أنه ما من حقيقة ثابتة حاليا يمكن أن يقدّمها المرء ضد وجود البارئ تعالى من حيث المعقول. والحق هو، وسيبقى كذلك، أن العالم مع ما فيه من الأشياء المختلفة وغريبة الصورة التي يستحيل إحصاؤها، ومع القانون الحكيم إلى هذه الدرجة الذي يُلاحظ عاملا في كل شيء فيه، ومع نظامه المحير للعقول الذي خرط في سلك واحد أشياءه كلها ذات الخواص المختلفة، والذي بسببه تعمل المصانع الطبيعية على بُعد مئات آلاف الأميال أو عشرات ملايين

الآلاف من الأميال ليل نهار لسد حاجة أصغر شيء أيضا في هذا العالم، يدل دلالة عظيمة على أن وجودا حكيما وعليما وقديرا يعمل فوق العالم ولا يخرج عن سيطرته شيء.

لماذا صارت الفلسفة الحديثة حجر عثرة؟

قبل إنهاء هذا البحث أريد أن أبين بإيجاز شديد: لماذا صارت الفلسفة الأوروبية الحديثة أو نظريات بعض العلماء -بغض النظر عن صحتها ومدى خطئها- حجر عثرة لكثير من الناس في العصر الراهن مع أنها ليست عرضة للاعتراض في الحقيقة؟ فليكن معلوما أن نظريات أهل أوروبا الحديثة أوقعت الناس في الخطأ لسببين، **أولهما:** عندما رأى الباحثون الغربيون أن في المادة خاصية ذاتية بحيث تأخذ أشكالا مختلفة وتستمر في الارتقاء من حالة دنيا إلى حالة عليا، وأن كل الأشياء في هذا العالم وخاصة الإنسانُ مَظهر قانون الارتقاء، ولما لم يكونوا حائزين على أية بصيرة روحانية عن البارئ تعالى، فقد بدأت الشبهات بالنشوء في قلوبهم؛ ومنها أنه قد لا يكون للعالم إله، بل يكون قد وُجد تلقائيا، وأن نظام الكون كله يجري نتيجة الخواص في المادة، فتمسّكوا في نهاية المطاف بفكرة أن العالم يعمل كمصنع وأن جميع التغيرات فيه هي نتيجة هذه الآلية الداخلية، وهلمّ جرا.

لقد رددتُ على هذه الشبهة من قبل بأنه إذا أمعنّا النظر في الموضوع لوجدنا أن قانون الخلق الملحوظ في العالم يقتضي بحد ذاته الإيمان بوجودٍ فوقه أودع المادةَ هذا القانونَ الحكيمَ. كذلك إن المادة بنفسها تقتضي من منظور أحوالها وكيفياتها إلها خالقا ومالكا. ولقد قلتُ أيضا بأنه ليست في العالم آلية فقط بل يتبين من مطالعة الطبيعة أن في العالم ترتيبا خاصا، وعلّة خاصة أيضا. وكل هذه الأشياء تشير إلى خالق مستقل ومدبر بالإرادة. وسأوضّح هذا الأمر أكثر لاحقا.

والأمر الثاني الذي بسببه صارت الفلسفة الأوروبية الحديثة سبب عثار لبعض الناس هو أن مسألة الارتقاء قد قدّمت خَلق العالم وخاصة خلق الإنسان بأسلوب يبدو منافيا لتعليمٍ معروف للأديان المعاصرة الموحى بها. ومن الطبيعي جدا أنه عندما يُشَنُّ على الدين الموحى به هجوم يجعله مشتَبها فيه عند عامة الناس، ولا يقدر الإنسان على الرد عليه، تخالج ذهنه شبهات وشكوك في وجود الله، ويزعم أنه ما دام قد ثبت الخطأ، وكان يُنسب إلى الله، فإن قصة الأديان كلها باطلة، وأن فكرة وجود الله أيضا ليست إلا مجرد وَهْمٍ ومحض خيال. هذا بالضبط ما واجهه الناس المعاصرون في مسألة الارتقاء. عندما كان النصارى يسمعون من قُسسهم، والمسلمون من مشايخهم والهندوس من رهبانهم، والآخرون من علماء أديانهم أنه لم يكن في البداية إلا دخان أو ماء، وقد خلق الله أصناف الأشياء من الدخان والماء، وخلق الأرض والسماوات وما فيها

في ستة أيام -أي اليوم الذي يتكوّن من ٢٤ ساعة- ثم صنع من التراب تمثالا ونفخ فيه فخُلق آدم وخرجت حواء من ضِلعه ثم بدأ نسلهما. وهذه السلسلة من نسل البشر جارية منذ سبعة آلاف عام. ويقول البعض أن المادة اتخذت بحسب مشيئة الله صورة بيضة، ثم انقسمت البيضة إلى قسمين وتكوّنت في جانبٍ أرضٌ وفي جانب آخر سماء، وأن الرجل والمرأة خُلقا من وجود الله، أو أن اللهَ تعرّق وخُلق العالم كله من قطرات عرقه، وهلمّ جرا.

كان الناس يسمعون كلاما من هذا القبيل من قساوستهم ومشايخهم ورهبانهم وغيرهم حتى تناهى إلى آذانهم صوت مفاجئ أن هذه القصص كلها ثبت بطلانها نتيجة البحوث العلمية. والحق أن العالم الغريب كله جاء إلى حيّز الوجود نتيجة خواص المادة، وأن كل شيء قد بلغ من حالة دنيا إلى حالة أعلى على مدى مئات آلاف السنين أو عشرات ملايين السنين، وأن الإنسان أيضا مظهر الارتقاء نفسه، وهكذا دواليك. فساء ظنُّ الناس بالدين بغتة، وخلب لمعان العلوم الجديدُ أبصارهم حتى فقدوا صوابهم إلى درجة أنْ نبذوا الاعتقاد بالله أيضا وراء ظهورهم.

إن أكبر مسؤولية عن الهزيمة النكراء التي صُبَّت على الدين تقع على القساوسة الغربيين لأن صوت الفلسفة الجديدة والعلوم قد تناهى إلى آذانهم قبل غيرهم وهم الذين فقدوا صوابهم نتيجة ذلك الصوت وقاموا بتصرفات مدمّرة فانكشف دمارهم على الناظرين. لقد وجد كثير من

الناس أنفسهم بلا حيلة حيال هذا الموقف، وبالإضافة إلى ذلك رأوا حالة القساوسة هذه واختاروا طريق الإلحاد. فكانت النتيجة أنه حين تناهى الصوت نفسه إلى أقوام آخرين، حبطت همم بعضهم أيضا إذ رأوا أن فئة من أهل الأديان قد لقيت هزيمة سلفًا نتيجة هذا الهجوم. وكذلك ظلَّت هزيمة تمهد طريقًا لهزيمة أخرى، بينما كان الأمر بسيطًا لو أمعن الناس النظر قليلا في الموضوع، لأن كثيرا من الأفكار التي يعتنقها في هذه الأيام أتباع الأديان المختلفة عن خلق العالَـــم وخَلق آدم إنما هي حواشٍ أضافها العلماء الذين جاؤوا فيما بعد، ولا أثر لها في كتب تلك الأديان الأصلية الموحى بها أو غيرها من الكتب الموثوق بها. فمن الواضح أنه لا يقع أدنى اعتراض على الدين في حال ثبوت خطئها. وثانيا: هناك بعض الأفكار عن خلق العالَـــم التي صارت جزءا من الكتب الدينية نتيجة التحريف فيما بعد أو في بعض الحالات بسبب الخطأ في التراجم إلى لغات أخرى، ولكنها لم تكن موجودة في الكتب الأصلية الموحى بها. كل شخص يستطيع أن يفهم أن في هذه الحالة لا يقع اعتراض على تعليم الدين. وثالثا: لا شك أن بعضا من هذه الأفكار موجودة في الكتب الأصلية الموحى بها ولكن معظم الناس أخطأوا في فهم المراد منها، وبسبب شرحهم الخاطئ وجد الباحثون الجدد فرصة الاعتراض.

فمثلا، لقد ورد في القرآن الكريم فعلا بأن الله خلق الأرض والسماوات في ستة أيام ولكن بعض الناس أخطؤوا في تفسير ذلك وظنوا أن المراد من

اليوم هو يوم يتكوّن من ٢٤ ساعة، بينما كلمة "يوم" في اللغة العربية تستخدم في كثير من الأحيان بمعنى الوقت والزمن أيضا إلى جانب معناها المعروف. وقد استخدمت كلمة "يوم" في كلام شعراء العرب في الجاهلية بهذا المعنى بكثرة. ولكن البعض استنتج منه معنى اليوم المعروف نتيجة بساطتهم أو قلة علمهم. ثم فهِم الآخرون أن المراد من اليوم هو اليوم المعروف الذي يتكوّن من ٢٤ ساعة، مع أن القرينة في الآية توضّح بجلاء أن المراد هنا ليس اليوم المعروف، لأن اليوم المعروف بوجه عام يتعلق بالشمس ويُحدَّد نتيجة دوران الأرض، بينما الزمن المذكور في هذا الآية كان قبل وجود الشمس والأرض كليهما، لأن الله تعالى يقول بأننا خلقنا الأرض والسماوات والشمس والقمر والنجوم في ستة أيام. إذًا، المراد من اليوم هنا لا محالة هو اليوم الذي كان موجودا قبل الأيام الشمسية المعروفة عندنا، وهو الزمن والوقت بوجه عام. إذًا، إن قرينة اللغة العربية والقرينة في الآية دليل على أنه ليس المراد من اليوم هنا اليوم المعروف، بل المراد هو الزمن والوقت. وعلى ذلك سيكون معنى الآية الكريمة أننا خلقنا العالم الحالي في ستة أوقات مختلفة تدريجا. ولا يقع على هذا الادعاء أيّ اعتراض من حيث العلوم. بل يعترف العلماء بأنفسهم أن هذا العالم بلغ مبلغه الحالي رويدا رويدا مرورا بدرجات ومراحل مختلفة.

كذلك ورد في الحديث الشريف أن عمر الدنيا هو سبعة آلاف عام، وأن آدم خُلق قبل النبي ﷺ بخمسة آلاف عام. فقد فهم من ذلك بعض

الناس خطأً أن النسل البشري قد ابتدأ قبل بضعة آلاف من السنين فقط، وبذلك وجد القائلون بمسألة الارتقاء فرصة الاعتراض. بينما الحق هو أن الإسلام لا يعلّم قط أن هذا الكون موجود منذ بضعة آلاف السنين فقط ولم يكن هناك شيء قبله. وإن نسبة هذا التصور إلى الإسلام جهل وحمق بحتٌ. الإسلام يعتنق اعتقادا بأنه لم تتعطل صفة من صفات الله بصورة دائمة في أيّ زمن قط، بل ظلت كل صفة من صفاته تتجلى في كل زمن بشكل أو بآخر. فلما كان الخَلق أيضا من صفاته ﷻ لذا فالاعتقاد بأن سلسلة الخلق بدأت قبل خمسة أو ستة أو سبعة آلاف سنة فقط، ولم يكن قبلها شيء ينافي الإسلام أيما منافاة. فثبت من ذلك أن الحديث المذكور لا يعني قط أن عمر الدنيا هو بضع آلاف سنين فقط. بل كما قال السلف الصالح وكذلك المصلحُ المبعوث في هذا الزمن أي المسيح الموعود عليه السلام أيضا قدَّم شرحًا مفصلا[3] أن معنى الحديث المذكور هو أنه قد أتت على الدنيا مراحل أدوار مختلفة، وأن دورة النسل الحالي بدأت قبل بضعة آلاف من السنين. ولا ندري كم من فترات أتت على هذه الدنيا. يقول محيي الدين بن عربي، العالم والصوفي المعروف، ما مفاده: لقد أُريت في الكشف أنه قد مضى في العالم مئات آلاف الأوادم، وعندما تنتهي دورة آدم تبدأ دورة آدم آخر. والله وحده أعلم كم من أدوار حلّت بالدنيا[4].

---

[3] جريدة الحكم عدد: ٣٠ أيار/ مايو ١٩٠٨م، وينبوع المعرفة.

[4] الفتوحات المكية، المجلد٣، باب حدوث الدنيا.

فمن منطلق هذا المعنى لا يبقى أيّ اعتراض أبدا، وهذا هو المعنى الصحيح. والقولُ بأنه لم يكن هناك خَلق قبل بضع آلاف السنين وكان الله عاطلا، باطل تماما بحسب الإسلام.

كذلك ورد في القرآن الكريم ما معناه أننا خلقنا آدم من تراب ثم نفخنا فيه الروح بأمرنا، فاستنبط منه بعض الناس أن نسل الإنسان بدأ بأن صنع الله تعالى تمثالا من التراب بصورة ظاهرية ثم نفخ فيه الروح ظاهريا، وهكذا بدأت سلسلة النسل الإنساني، بينما الآية القرآنية لا تعني إلا أن خَلق آدم يشمل أجزاء مادية، لذلك يميل إلى الماديات سريعا، فوضع الله في خلقه عنصرا من الروحانية أيضا حتى لا تعرقل العناصر المادية تقدمه الروحاني. فهذا موضوع لطيف جدا قد بيّنه القرآن الكريم بصورة الاستعارة بحسب سنّته، ولكنه أُخِذ بالمعنى الحرفي وجُعل عرضة للاعتراض. ولكني أقول بأنه لو أُخذ المعنى الظاهري أيضا للآية، فمع ذلك لا يقع عليها اعتراض، لأن القرآن الكريم لم ينـــزل ليبين كيفية خلق العالم بالتفصيل، بل مهمته هي إصلاح العالم الأخلاقي والروحاني. وقد تناول المواضيع الأخرى بقدر ما كان ضروريا لتحقيق مهمته وترك الأمور الأخرى. فمثلا ليس من مهمة القرآن الكريم أن يبيّن قوانين الطب، لأنه ليس كتاب طب، ولكن ما دامت صحة الإنسان تؤثر في أخلاقه ودينه لذا فقد وجّهت الشريعة الإسلامية الأنظار إلى بعض الأمور المبدئية المتعلقة بالصحة نظرا إلى ضرورها، ولكنه اكتفى ببيانه هذا بقدر

ما كان ضروريا لبيان هدفه وغايته. فلو أخذنا المعنى من الآية المذكورة من هذا المنظور فلا يبقى أي اعتراض. يكتفي القرآن الكريم بالقول فقط بأن الله خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون ثم نفخ فيه الروح بأمره (انظر: سورة الحجر: ٢٩-٣٠). المراد من ذلك أن الإنسان حيوان ناطق وقد خُلق ممتازا عن الحيوانات الأخرى ليتقدم بواسطة صفة النُطق. وثانيا: قد خلق الله روحه وجسمه كليهما، وجاءا إلى عالَم الوجود بحسب أسلوب خاص. وقد سكت القرآن الكريم عن المراد من التراب، لأن كل الأملاح الكيميائية جزء من التراب. وكذلك سكت القرآن عن كيفية خَلقِ الله الإنسانَ من التراب، وعن الزمن الذي استغرقه خلقه، وكم من مراحل مرّره بها قبل بلوغه إلى حالته الراهنة؟ ومن أين نفخ فيه الروح؟ وكيف نفخها؟ وما هي درجات نفخها؟ وما هي كيفية تلك الدرجات؟ وما كيفية نموّ الروح؟ فقد رأى القرآن بيان هذه الأسئلة عديم الصلة بهدفه وغايته فسكت عنها. فلا يسع عالما أن يعترض على بيان القرآن الكريم، لأنه قد ذُكرت فيه كيفية خلق الإنسان بصورة إجمالية وصحيحة تماما ولا تخالف أية حقيقة علمية ثابتة، بل تفيد العلومَ نفسها كمصباح الهداية من حيث المبدأ. ولكن لو أضاف أحد أشياء من عنده إلى بيان القرآن الكريم ثم وضعه مقابل قضية من قضايا علمية فهو المسؤول عن ذلك، ولا يمكن الاعتراض على الإسلام بسببه.

كذلك ورد في الحديث الشريف أن حواء خُلقت من ضِلع آدم، وقد أخذ البعض منه معنى أنه قد خُرق جسم آدم وأُخرجت حواء من ضِلعه، وبذلك وجد العلماء فرصة الاعتراض. بينما الأسلوب المتداول في الكتب الموحى بها هو أن الكلمات قد استُخدمت فيها على سبيل الاستعارة. ومعنى هذا الحديث أن المرأة خُلقت للعيش جنبا إلى جنب مع الرجل، وأنها جزء من حياة الرجل لا يتجزأ. ولكن يجب على الرجل أن يعرف أنه كما يكون الضِلع معوجّا كذلك قد وُضعت في طبيعة المرأة بعض نقاط الضعف بناء على بعض الحِكَم، ويجب على الرجل أن يعاملها باللطف والعفو نظرا إلى ضعفها الفطري. لقد استخدم النبي ﷺ في حديث آخر الكلمات نفسها بحق المرأة، فقال ما مفاده بأن المرأة مثل الضِلع، وهذا الاعوجاج هو جمال أنوثتها. فعلى الرجال أن يراعوا اعوجاجهن الفطري وألا يحاولوا تقويمهن إلى حد يؤدي إلى كسرهن وافتقاد جمالهن الأنثوي.

باختصار، يتبين من إمعان النظر في الكلمات الواردة في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة عن خلق العالم أو خلق آدم أنه لا يمكن الاعتراض عليها أبدا، والذين اعترضوا عليها أو زعموها جديرة بالاعتراض كان سببه عائدا إلى جهلهم أو قلة علمهم. كذلك أرى أن تعليمات الكتب الأخرى الموحى بها التي حُسبت جديرة بالاعتراض قد حدث سوء فهم بحق كثير منها، و لم يُفهم معناها الصحيح، وإذا وقع اعتراض على بعضها

فكان بسبب التحريف الذي طالها فيما بعد والذي لم يسلم منه لسوء الحظ أيّ كتاب موحى به سوى القرآن الكريم. أما القرآن الكريم فهو محفوظ تماما بفضل الله تعالى ويشهد بحقه ألدّ الأعداء أيضا أنه بريء من التحريف تماما. لذا يمكننا أن نقول عن القرآن الكريم بكل تحدٍّ أنه ليس فيه شيء يمكن أن يقع عليه اعتراض معقول. وما من حقيقة علمية ثابتة تنافي أيّ تعليم في القرآن الكريم. وهذا مستحيل أصلا، لأن القرآن كلام الله، وأن الطبيعة التي تفسرها العلوم إنما هي فعل الله، ولا يمكن أن يتصادم قول الله وفعله.

قبل إنهاء هذا البحث أرى ضروريا البيان ولا سيما عن نظرية "داروين" المعروفة بمساوئها، فأقول بأن هذه النظرية ما زالت بصورة النظرية ولم تدخل في قائمة الحقائق العلمية الثابتة، بل قد فنّدها كثير من العلماء بشدة. فالبرقية التي نُشرت في الجرائد عند وفاة العالم المعروف عالميا Sir John Ambrose Fleming (السير جون فليمنج) جاء فيها: كان السير جون عالما معروفا ولكنه لم يُنكر المعجزات... وكان يَعُدّ نظرية الارتقاء لـــ "دارون" خيالا ذهنيا فقط."[٥]

إذًا، لا يمكن عدُّ الاعتراض على الله تعالى بناء على هذه المسألة طريقَ العقل والفطنة بأيّ حال.

[٥] سيفل آند ملتري غازيت، لاهور، عدد: ١٩٤٥/٤/٢٢م.

إن الله غير مخلوق

قبل الشروع في دليل جديد أرى ضروريا إزالة شبهة تخالج في هذا المقام قلوب بعضٍ من قليلي الفهم وخاصة الشباب، وهي أنه إذا كان الله قد خلق هذا العالم، فمن خلق اللهَ؟ أي إذا كان ينشأ عن المخلوق سؤال: من هو خالقه ومالكه فيجب أن ينشأ عن الله أيضا السؤال نفسه، أي من هو خالقه ومالكه؟ الجواب على هذه الشبهة هو أنه -بغض النظر عن أن هذا السؤال لا يمكن أن ينشأ بحق الله كما سأثبتُ لاحقا- لو افترضنا جدلا أن خالق هذا الكون ومالكه قد خلقه خالق ومالك آخر أعلى منه، مع ذلك لا ضير من حيث الدليل لأننا في هذه الحالة سنسمّي ذلك الوجود الأعلى إلـــها ونعُدّ الوجود تحته مخلوقا من المخلوقات وسببا من سلسلة الأسباب وواسطة من وسائط الخلق. وإذا طرح أحد سؤالا: مَن هو خالق ذلك الوجود الأعلى ومالكه؟ فيكون الجواب أنه إذا كان أحد آخر خلق الوجود الأعلى المذكور من قبل فذلك الوجود الأعلى سيُسمى إلها، وكل مَن هو تحته سيُعَدّ جزءا من المخلوقات.

باختصار، إن الوجود الذي تظنون أن هذه السلسلة منتهية إليه، أي الذي يُعَدّ الأول في هذه السلسلة وليس فوقه أحد هو الذي نسمّيه إلها، ونعُدّ كلّ من سواه جزءا من المخلوقات.

وإذا انتابت أحدا فكرة أنه ما دام السؤال، أي من هو خالقه ومالكه؟ ينشأ عن كل شيء، فلن يثبت أيّ وجود يمكن عدُّه الوجود الأول.

فجوابه أنه من المستحيل عقليا ألا يكون هناك الوجود الأول في هذه السلسلة، لأنه لو لم يُعترف بكيان أوّلي لكانت النتيجة الحتمية أن نضطر إلى رفض وجود الكيانات التحتية كلها التي هي نتيجة الكيان الابتدائي بما فيها هذا العالم أيضا. وسيكون معناه بكلمات أخرى أن الدنيا وما فيها ليست إلا وهما فقط وليس هناك أرض في الحقيقة ولا سماء ولا قمر ولا شمس ولا نجوم ولا إنسان ولا حيوان ولا شجر ولا ماء ولا هواء ولا شيء آخر. فمثلا لو اعتبرنا الدنيا "أ" ونسمي خالقها "ب" ثم لو افترضنا أن "ج" خلق "ب"، و"د" خلق "ج"، ونظل نصعد إلى الأعلى على هذا النحو بقدر ما في وسعنا، أي نظل نفترض عن كل كيان أن كيانا أعلى منه قد خلقه. فمن الواضح أن هذه السلسلة لن تنتهي أبدا. وسيكون معنى ذلك أنه لن تثبت لهذه السلسلة حلقة يمكن أن نسميها الحلقة الأوّلية. ولما لم تثبت الحلقة الابتدائية لن تثبت حتما الحلقة التي تليها والتي خلقتها الحلقة الابتدائية، وهكذا دواليك.

إذًا، سوف تبطل الحلقات كلها تدريجا لعدم ثبوت العروة الابتدائية. فيمكن القول بالنظر إلى المثال المذكور آنفا أنه إن لم يثبت وجود "د"، لن يثبت وجود "ج" أيضا وهكذا دواليك. أي إن إنكار وجود "د" يلزم إنكار كل شيء إلى "أ"، مع أن وجود "أ" الذي أطلقناه على الدنيا مسلَّم الثبوت على الأقل، لأنه لا يسع أحدا إنكار وجود الدنيا. فثبت أن طريق الاستدلال الذي يؤدي إلى عدم إثبات حلقة ابتدائية لهذه السلسلة طريق

خاطئ لأنه يؤدي إلى إنكار وجود الدنيا. لذا نحن مضطرون إلى أن نوقن بأن لهذه السلسلة حلقة ابتدائية، وهذا يعني أنه يجب أن نؤمن بوجودٍ لا يفوقه أحد. من الواضح أنه لا يمكن أن يكون هذا الوجود إلا من كان غير مخلوق، وهو ما نسميه إلها. ملخّص الكلام أنه مهما أطلنا هذه السلسلة لا بد من وضع حد لها عند نقطةٍ ما. أي لا بد من التسليم بأن بدايتها من وجودٍ ما. وهذا الوجود هو الله، وهو غير مخلوق، والكيانات الأخرى التي تحته -مهما كانت أعلى وأشرف من بعضها من حيث القوى الطبيعية والقدرات الفطرية- كلها جزء من المخلوق وتعمل تحت تصرّف الله، وهو المراد.

بعد ذلك أريد البيان بإيجاز أن السؤال: "من هو خالق الله ومالكه؟" سؤال خاطئ بحد ذاته، لأن هذا السؤال لا يمكن أن ينشأ عن الله أصلا. الحق أن مفهوم الألوهية ومفهوم الخَلق مفهومان متضاربان تماما، ومن المستحيل عقليا أن يجتمعا معا في وجود واحد، لأن مفهوم الألوهية يقتضي أن يُطلق اسم الإله على وجود يفوق الجميع، أما مفهوم الخلق فيقتضي أن الذي نَعُدّه مخلوقا يجب أن يكون فوقه وجود آخر. فهذان المفهومان لا يمكن أن يجتمعا في مكان واحد بأيّ حال.

فكّروا جيدا فتعلموا أن عدّ أحدٍ مخلوقا يعني أن نؤمن بوجود أعلى منه يكون خالقه ومالكه. إذًا، فإن عدّ الله مخلوقا يستلزم أن هناك وجودا آخر فوقه وهو خالقه ومالكه والحاكم عليه وأن الله تعالى قائم على سند منه،

أي هو يفوق الله وأعلى منه من كل النواحي والجوانب. فكروا الآن، إذا كان وجود أعلى مثله موجودا فعلا فيكون هو الإله وليس الإله المزعوم الذي تحته والذي هو مخلوق ومملوك ومحكوم أيضا. أيّ عاقل يستطيع أن يستخدم كلمة "إله" بحق ذات سفلى في حال وجود تلك الذات العليا؟ ثم فكّروا، تستطيعون أن تسموا أحدا إلها ما دمتم تؤمنون به غير مخلوق، وكلما أثرتم سؤالا عن كونه مخلوقا اضطررتم إلى أن تؤمنوا بوجود يفوقه وهو خالقه ومالكه. وفي حال الاعتراف بذات عليا ينتقل مفهوم الألوهية من الذات السفلى إلى الذات العليا. باختصار، من كان مخلوقا لا يمكن أن يكون إلها، لأن اسم الإله في هذه الحالة سيُطلق على الذي خلقه ويتفوّق عليه. فثبت أن مفهوم الألوهية والمخلوقية لا يجتمعان في وجود واحد أبدا. أي من غير الممكن تماما أن يكون أحد إلها ومخلوقا أيضا في الوقت نفسه. وما دام ذلك غير ممكن فلا بد لنا من التسليم بأنه إذا آمنا بأحد إلـــها فلا يمكن أن ينشأ عنه سؤال: من هو خالقه؟

الرد الثالث الذي أريد أن أردّ به على هذه الشبهة هو: فلنفترض لحظة -بغض النظر عن عدم إمكانية أن يثار بحق الله سؤال: من خلقه؟- أن الله مخلوق، ثم نرى ماذا ستكون نتيجة ذلك. من المعلوم أن كل شيء يملك بعض الصفات والخواص المعينة وبها ينفرد عن أشياء أخرى. فمثلا في الماء خواص لا توجد في الهواء والحجر، ونميز الماء من الهواء والحجر. لو فُصلت هذه الخواص من الماء لن يبقى ماء. ملخص الكلام أن كل شيء

يتضمن بعض الخواص المعينة، وهذه الخواص هي التي تحافظ على وجوده وتميزه عن أشياء أخرى. فعندما نستخدم عن وجودٍ كلمة "الإله" تخطر ببالنا بعض الصفات التي بسببها يستحق أن يسمّى إلها وينفرد عن الأشياء الأخرى كلها. أي أن تلك الصفات بمنـــزلة العمود للألوهية. ولو فُصلت عنه تلك الصفات لما بقي إلـــها قط. فمثلا يخبرنا العقل أنه إذا كان هناك إله فيجب أن يكون أزليا، أي موجودا من الأزل، ويخبرنا العقل أنه إذا كان هناك إله فليكن غير فانٍ، وإذا كان هناك إله فليكن قائما بذاته دون سند أيّ وجود آخر، وإذا كان هناك إله فليكن قادرا على كل شيء، أي يجب أن يتحلى بقدرة كاملة وألا يقدر أحد على التدخل في أفعاله، ويخبرنا العقل أنه إذا كان الإله موجودا فليكن أحدا لا شريك له وألا يكون هناك وجود سواه يمكن أن يدّعي كونه ندًّا له. يخبرنا العقل أنه إذا كان هناك إله فيجب أن تكون صفاته دائمة ومستقلة أي ألا يكون قيام صفاته مقتصرا على مشيئة وجود آخر.

هذه بضع صفات ذكرها على سبيل المثال ويجب وجودها من منطلق العقل فيمن نسميه إلها لأن بقاء نظام العالم -كما يجري حاليا وكما ظل جاريا منذ القدم- محال من دون هذه الصفات. أي هذه الصفات وصفات مماثلة أخرى بمنـــزلة العمود لعرش الألوهية، ولا بقاء له بدونها بأي حال. ولكن لو قبلنا الله مخلوقا لاضطررنا إلى إنكار جميع صفاته، وليس هناك صفة من صفاته يمكن بقاؤها مع قبوله مخلوقا. فمثلا من الواضح أنه إذا

كان الله مخلوقا فلا يمكن أن يكون قديما، بل لا بد من الاعتراف بكونه حادثا. وإذا كان مخلوقا فلن يكون غير فانٍ، بل لا بد من الاعتراف بكونه فانيا. وإذا كان مخلوقا لا يمكن أن يكون قائما بذاته بل يجب الاعتراف بكونه قائما بسند وجود آخر هو خالقه ومالكه. وإذا كان الإله مخلوقا فلن يكون قادرا على كل شيء بل لا بد من كون قدراته محدودة، وأن خالقه ومالكه يقدر على التدخل في أعماله متى يشاء وكيفما يشاء. كذلك إذا كان مخلوقا لا يمكن الإيمان به أحدًا، لأنه لا بد من القبول بإمكانية أن هناك آلهة أخرى سواه، لأن الذي يستطيع أن يخلق إلها واحدا لماذا لا يكون قد خلق آلهة أخرى كثيرة لإثبات صفته "الخالق" وسعة حكومته وسلطنته؟ وإذا كان الإله مخلوقا لا يمكن عدُّه مستقلا وحُرا في أيّ من صفاته بل لا مندوحة من القبول بأن كل صفة من صفاته تعتمد على مرضاة الوجود الأعلى الذي خلقه لأن كل صفة من صفات المخلوق أيضا تكون مخلوقة ويجب الاعتراف بأنها تعمل تحت حُكم الخالق. باختصار، إن عَدَّ الله مخلوقا يسفر عن بطلان جميع صفاته التي نضطر بسببها إلى التسليم بقيام عرش الألوهية عقليا، ويُعزل الله عن عرش ألوهيته ويقف في صف الذين يبحثون عن سند خالقهم ومالكهم في كل شيء وليس لهم حياة مستقلة قط. ملخّص الكلام أنه أيا كان منظور تفكيرنا ورؤيتنا نجد مفهوم الألوهية والمخلوقية متناقضَين تماما، ولا يمكن أن يجتمعا في وجود واحد مطلقا.

فنحن مضطرون إلى أن نَعُدّ الذي نؤمن به إلها غير مخلوق والذي نَعُدّه مخلوقا يجب ألا نؤمن به إلها، وهو المراد.

لماذا لا نَعُدّ العالَم كله غير مخلوق؟

والآن أريد أن أردّ على شبهة أخرى تخالج قلوب معظم الناس ويثيرها الملحدون في أوروبا عادة وهي: لو آمنا بالله غير مخلوق وموجود تلقائيا منذ الأزل بغير خالق ومالك له، فلماذا لا نَعُدّ العالم كله غير مخلوق وقائما بذاته حتى ينتهي النقاش كله؟ هذه شبهة يمكن أن تنشأ وتنتاب قلوب كثير من الناس فعلا، ويقدمها الملحدون عادة. ولكن لو تأمّلنا في الموضوع أكثر لتبين أنها مبنية على قلة التدبر وناتجة عن أفكار سطحية تماما ولا حقيقة لها أكثر من ذلك. الحق أن هذه الشبهة مبنية على فكرة أنه ما دام اللهُ يُعَدّ غير مخلوق فثبت أن مجيء شيء إلى حيز الوجود من تلقائه وبغير خالق ممكن. ولما ثبت ذلك فلا نعُدّ هذا العالم مخلوقا ونؤمن بوجود الله فوقه. بل يمكن أن نَعُدّ هذا العالم كله غير مخلوق وقائما بذاته، وهكذا ننهي القضية هنا. الجواب على هذه الشبهة هو أنه ليس سبب اعتبارنا العالم مخلوقا أننا نرى ضرورة أن يكون كل شيء مخلوقا لذا يجب أن يكون العالم أيضا مخلوقا، بل لأن الظروف المحيطة به تُثبته مخلوقا. لو تمسّكنا بمبدأ أنه يجب أن يكون كل شيء مخلوقا حتما وبلا استثناء مهما كانت الظروف المحيطة به، لأمكن أن يُثار اعتراض أنه إما أن نَعُدّ الله

أيضا مخلوقا أو نرفض هذا المبدأ ونسلّم بإمكانية كون العالم أيضا غير مخلوق. فلا يصح الاعتراض بأنه ما دمنا مضطرين إلى الإيمان بإله غير مخلوق فلا بأس إذا اعتبرنا العالم أيضا غير مخلوق. الحق أن لكل أمر ظروفا مختلفة تحيط به، ويجب أن نتبنّى رأيا عنه في ضوء الظروف التي تحيط به. إن ظروف الماء تختلف عن ظروف النار والحجر والهواء. فمن غباوتنا أن نقيس كل واحد منها على الآخر حاسبين إياها تابعة لقانون واحد. كذلك لا يمكن تبنّي الرأي عن الله قياسا على أشياء دنيوية، كما لا يجوز قياس أشياء دنيوية على الله، بل يجب الحكم في كل شيء بحسب ظروفه الخاصه وبمعيار مختلف.

فحين نمعن النظر بحسب هذا الأصل، نجد بكل وضوح أن الله ليس مخلوقا، والدنيا مخلوقة حتما. وقد أثبتنا في البيان السابق أن الله لا يمكن أن يكون مخلوقا، لأننا لو قبِلناه مخلوقا، أي اعترفنا بأن أحدا خلقه، لانفصل عنه مفهوم الألوهية فورا ولانتقل إلى مَن خلقَه. أي لا يبقى الله إلـــها بمجرد أن تخطر بالبال فكرة كونه مخلوقا. وثانيا: إذا اعتبرنا الله مخلوقا نضطر إلى إنكار جميع صفاته التي تُعَدّ عمودا لعرش الألوهية، والتي لا يبقى الله إلها بدونها.

باختصار، لقد أثبتنا عن الله بصورة قاطعة أنه ليس مخلوقا، أما فيما يتعلق بالدنيا فقد مضى بحث طويل حولها وقلنا أن كونها مخلوقة ثابت من الظروف المحيطة بها، ولو لم تكن ظروفها على النحو الحالي التي تبين كونها

مخلوقة لقبلناها غير مخلوقة بكل سرور. ولكن الله تعالى يُثبت أنه غير مخلوق من خلال صفاته بينما تعلن الدنيا بأعلى صوتها وتشهد على أنها تَجَلِّي صفة الخلق لوجود أعلى وقائمة بسنده.

الأمر الأول هو أنه ما من شيء في العالم إذا اعتبرناه مخلوقا نضطر إلى إنكار صفة معينة من صفاته. ومقابل ذلك إذا آمنا بالله مخلوقا نضطر إلى إنكار كافة صفاته المبدئية، كما مرّ. فمثلا، إذا حسبنا الماء مخلوقا لا نضطر إلى إنكار أية خاصة من خصائصه، بل تبقى خصائصه على حالها. وإذا حسبنا النار أو الهواء مخلوقين تبقى خصائصهما قائمة على حالها. كذلك إذا اعتبرنا الإنسان مخلوقا فلا يحدث أيّ ضير قط في كونه إنسانا، وإذا اعتبرنا الأرض والقمر والشمس مخلوقة فلا يقع أدنى خلل في صفاتها الطبيعية. كذلك لو اعتبرنا العناصر الأخرى مخلوقة تبقى ماهيتها قائمة على حالها. باختصار، ليس في العالم شيء، أدنى كان أم أعلى، مركّبا كان أم مفردا يستلزم اعتباره مخلوقا إبطال أيٍّ من صفاته الأساسية، بل يبقى على حاله كما هو موجود في الدنيا الآن مع أنه يُعَدّ مخلوقا. ولكن إن اعتُبر اللهُ مخلوقا تبطل كافة صفاته التي هي بمنـــزلة عمود لألوهيته فلا يبقى الله إلـــها. فمن الجهل الظن أنه ما دمنا مضطرين إلى الإيمان بالله غير مخلوق فلا ضير إذا حسبنا العالم كله غير مخلوق. خذوا الماء مثلا فإنه يتخذ لكونه سائلا شكل إناء يوضع فيه. ولكن هل لعاقل أن يقول: أيّ ضير إذا قلنا عن الحجر أيضا أنه سيتخذ شكل إناء يوضع فيه كالماء؟ هذه

الأمور الناتجة عن الجهل والغباوة لا يُتّهم بها عاقل فطين. فالله تعالى غير مخلوق، لأنه لا يمكن أن يكون مخلوقا لأنه لن يبقى إلها في حال كونه مخلوقا. (كما لا يمكن للحجر أن يتخذ شكل إناء يوضع فيه كالماء لأنه في هذه الحالة لن يبقى حجرا)، ولكن كون أشياء الدنيا الأخرى مخلوقة، فهذا لا يخالف خصائصها الطبيعية. فالفرق واضح.

لقد اكتفيت إلى الآن بالقول بأنه ما من شيء في العالم لو عُدّ مخلوقا لاستلزم ذلك إنكار صفة من صفاته. وما دام المبدأ العام هو أنه إن لم يكن هناك مانع من الموانع الطبيعية في اعتبار شيء مخلوقا يجب عدّه هكذا، لذا ثبت أن هذه الدنيا مخلوقة. والآن أريد أن أبين باختصار، أنه لا يقتصر الأمر على أنه ليس هناك مانع في اعتبار الدنيا مخلوقة، بل الظروف المحيطة بها تُجبرنا على أن نعُدّها كذلك. ومنها مثلا:

أولا، الدنيا تتضمن الكثرة، أي أنها ليست اسم شيء واحد، بل هي مجموعة أشياء كثيرة، وهذه الكثرة الهائلة التي لم يقدر الإنسان على الإحاطة بها إلى يومنا ولن يقدر أبدا، تقتضي أنه يجب أن يكون للعالم خالق ومالك قادر على جمع هذه الأشياء الكثيرة تحت نظام واحد. ثم لنأخذ مقابل ذلك وجود الله- الذي نؤمن به واحدا من حيث العقل والدين وليس فوقه مدبّر - القادر على خرطها في سلك نظام واحد.

ثانيا: هناك اختلاف في الدنيا، بمعنى أنها ليست اسم أشياء من نوع واحد بل تشمل أشياء كثيرة ذات أشكال مختلفة وهويات مختلفة، ولكل

واحد منها خواص متنوعة وتدور في حلقة خاصة بها وتعمل بحسب قانون مختلف. فهذا الاختلاف أيضا يُثبت وجود خالق ومالك وقدير ومتصرِّف يقدِر على خرْط هذه الأشياء المختلفة التي لا تُعَد ولا تحصى في سلك قانون واحد. ولكن لا يمكن نشوء خلاف عن وجود الله لكونه واحدا.

ثالثا: كل شيء في الدنيا عرضة للزوال والتغيُّر، أي ما من شيء في الدنيا يبقى قائما على حالة واحدة، بل هو في طور التغيّر دائما، وكل شيء تنقص ساعات عمره المحدود باستمرار. هذه الحالة أيضا تدل على أن العالم لم يأت إلى حيّز الوجود من تلقائه بل عمل تحت إمرة وجود أعلى ومدبّر. أما وجود الله تعالى فيجب ألا يتغير وأن يكون فوق تأثير الزمان.

رابعا: كل شيء في الدنيا محدود ومقيد في دائرة قوته وقواه الطبيعية وحلقة عمله، وليس هناك شيء بلغت صفة من صفاته مبلغ الكمال حتى تتحرر من الحدود والقيود. إذاً، إن تحديد الخواص والصفات على هذا النحو يدل على محدِّد، أي يشير إلى وجود يحدد هذه الأشياء ذات الصفات المختلفة التي لا تُحصى في حدود معينة تحت قانون معين، بينما هو مستقل في حد ذاته ويفوق الحدود والقيود كلها.

خامسا: ليس في العالم شيء قائم بحد ذاته، بل يحتاج إلى سند من غيره لقيامه وبقائه. لقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة هذا الأمر إلى حد أن

كل شيء في العالم يؤثر في أشياء أخرى ويتأثر بها من أجل بقائه، أي ليس هناك شيء قائم بذاته. إذًا، إن كون كل شيء في العالم غير قائم بذاته دليل كاف على أن العالم لم يأت إلى الوجود من تلقائه بل قائم بسند وجود أعلى وضَعَ كل شيء في محله تماما في نظام حكيم.

سادسا: يوجد في العالم ترتيب خاصّ يقتضي وجودا مدبّرا ومرتّبا بالإرادة. ولكن هذا السؤال لا ينشأ عن الله.

سابعا: كل شيء في العالم يجري نحو هدف معين وغاية متوخاة بحسب ظروفه. وهذه الغاية المتوخاة التي تلاحظ في كل شيء كما يتبين من دراسة الطبيعة تقتضي أن يكون وراء هذا العالم وجود آخر في يده دائما أسلاك غير مرئية لنظام العالم، ويقود العالم من وراء الحُجُب إلى هدف معين وغاية متوخاة بحسب خطة مدروسة. ولكن مقابل ذلك لا ينشأ سؤال العلة المتوخاة عن الله قطعا لأنه الواحد الأحد والأول والآخر والقائم والصمد وجامع جميع الكمالات بحد ذاته. كذلك ظروف العالم وأحواله الأخرى كلها أيضا تدل على كونه مخلوقا.

باختصار، إن ظروف العالم تُجبرنا على أن نعُدّه مخلوقا ومملوكا. أما صفات الله مقابلها فلا تقتضي كونه عَزَّ وَجَلَّ مخلوقا، وليس ذلك فحسب، بل إن مفهوم الألوهية والمخلوقية متضاربان تماما بحيث لا يمكن اجتماعهما في وجود واحد أبدا. فمن الغباوة وقلة العلم القول بأنه إذا أمكن كون الله غير مخلوق فلماذا لا يُعَدّ الكون كله غير مخلوق؟ بينما الحق أن كل

شيء مخلوق. ولكن الله ﷻ ليس فوقه خالق. كل شيء محكوم وليس على الله حاكم، كل شيء مملوك وليس على الله مالك. إن وجود الله هو النقطة المركزية التي تجتمع عليها الخطوط كلها ولا طريق بعدها. طوبى للذي يعرف هذه النقطة ويجتنب الوقوع في هوة الهلاك.

لقد ورد في الحديث الشريف قولٌ للنبي ﷺ مفاده أنكم تستطيعون أن تسألوا عن كل شيء: مَن خلقه؟ ولكن لا تطرحوا هذا السؤال عن الله. قد يظن قليل العقل والفهم أنه ﷺ أراد بذلك أن يُغلق على أتباعه طريق البحث الحرّ ومنعهم من الخوض في الأسئلة العلمية بُغية إنقاذهم من الشكوك والشبهات، بينما كان النبي ﷺ يقصد من ذلك ما سبق بيانه، أي يمكن أن ينشأ عن كل شيء سؤال كونه مخلوقا، ولكن لا ينشأ هذا السؤال عن الله، وإذا أثاره أحد فذلك يدل على حمقه وغباوته. إذًا، لم يُغلق ﷺ باب العلم، بل أغلق باب الجهل، ولم يعرقل سبيل البحث والتحقيق، بل منع من الوقوع في الأوهام. اللهم صلِّ عليه وسلّم، ويا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلِّموا تسليما.

زبدة الكلام أن هذا العالم الواسع مع نظامه الحكيم -الذي يلاحَظ التفاعل في أشيائه الكثيرة التي لا تُحصى وذات الفئات المختلفة والقابلة للتغيّر وغير القائمة بذاتها والمحدودة في صورتها الفردية والجماعية- يشهد بلسان حاله أنه ليس من تلقاء نفسه بل جاء إلى حيّز الوجود بقدرة الخلق لوجود أعلى وقائم وجارٍ بسند ذلك الوجود الأعلى نفسه، وهذا الوجود

الأعلى غير مخلوق وغير مملوك لأنه وهو النقطة النهائية التي تنتهي عليه السلاسل كلها. أنهي بحثي هذا على قصيدة أردية جميلة للمسيح الموعود عليه السلام وتعريبها:

"ما أجلى نورَ مبدأ الأنوار ذلك! فالعالم كله يكاد يصبح مرآة للأبصار

حين رأيت القمر يوم أمس أصابني اضطراب كبير، إذ كان فيه أثر من جمال الحبيب

إن قلبي نشوان بهذا الربيع من الجمال، فلا تذكروا لي جمال الأتراك أو التتر مطلقا

يا حبيبي، إن تجلي قدرتك الغريب ملحوظ في كل حدب وصوب، فحيثما ننظر نحظى برؤيتك

إن أمواجك مشهودة في منبع الشمس، ولمعانك يتجلى في كل نجم

لقد أودعتَ بنفسك الأرواح الحرقة لوصالك، وبسبب ذلك يثير المحبون المشغوفون هذه الضجة كلها.

ما أعجب الخواص التي أودعتَها كلَّ ذرة! فمن ذا الذي يقدر على قراءة دفتر أسرارك كله؟!

لا يقدر أحد على إدراك منتهى قدرتك، ومن ذا الذي يقدر على حل هذه العقدة العويصة؟!

في ذوي الحسن والجمال تنعكس ملاحةُ حسنك هذا، وفي كل وَرْد وحديقة يتجلى حسنُك

إن عين كل جميل تعكس وجهك كل حين وآن، كما أن يد كل خُصلة شعر تشير إليك

قد انسدلتْ مئات الحجب أمام أعين العميان، وإلا فإن وجهك هو قبلة كل كافر ومؤمن

إن نظراتك أيها الحبيب، سيف صارم تقطع الصلة عن كل ما سواك

لقد صرنا ترابا من أجل لقائك، لعل آلامَ هذا الفراق والهجران تُعالج بهذه الطريقة

لا يهدأ لي بال ولا أرتاح دونك ولا لحظة واحدة، وأضيق ذرعا كما قلب المريض

ما هذه الضجة في زقاقك؟! فانتبه إليها لئلا تزهق نفسُ مجنون الحب."

دليل الشعور بالحسنة والسيئة

الدليل العقلي الذي أريد تقديمه الآن على وجود البارئ تعالى يتعلق بالقانون الأخلاقي المنقوش في فطرة كل إنسان. فكما أن الدليل السابق كان يتعلق بالقانون الطبيعي الذي يلاحَظ عاملا في الإنسان وفي كل شيء من الأشياء الأخرى في هذا العالم المادي، كذلك الدليل الذي أريد بيانه الآن مبني على قانون الأخلاق الذي يعمل في فطرة كل إنسان ولا يسع عاقلا إنكاره. الشعور بالحسنة والسيئة منقوش في فطرة الإنسان، ولن تجدوا شخصا يعوزه هذا الشعور. من الممكن أن تضعف فطرة أحد

نتيجة التأثيرات الخارجية أو تُكبت حتى تبدو كأنها ماتت ولكنها مع ذلك تظهر للعيان بطريقة ما وبمناسبة من المناسبات. معلوم أن كل إنسان، مهما كانت حالته سيئة، يحب الحسنة ويكره السيئة بطبيعته. لا شك في أن سارقا شقي القلب ومتعودا على السرقة منذ مدة طويلة يكون قد دفن فطرته تحت حجب الذنب المظلمة، فيقول أحيانا متضايقا من مطاعن الناس أو تفاديا لوخزات ضميره بأن سرقته ليست عملا سيئا، لأن الناس يكسبون لقمة العيش باختيارهم مِهَنا مختلفة، كذلك أسُدّ أنا أيضا رمقي ورمق أهلي وأولادي بالجهد والمشقة ومواجهة أنواع الأخطار. ولكن على الرغم من ذلك تأتيه حتما أوقات حين تلومه فطرته وتوبخه بأن فعله هذا ظالم وغير مسموح به. لذلك يحدث في كثير من الأحيان أن سارقا عندما يخرج من فترة الشباب وتحل به الشيخوخة ويرى موته قريبا يترك السرقة ويتوجه إلى الصلح مع ضميره. أما إذا كان ضمير أحد قد خمد كليا وبدأ يحسب سوء أعماله مدعاة للاعتزاز له وكان يبدو في الظاهر أنه تلاشى في نفسه الشعور بالحسنة والسيئة كليا، مع ذلك لا يخفى على الناظرين بنظرة دقيقة أن مثل هذا الشخص لا يكون محروما من جوهر الفطرة الذي يسمّى الشعور بالحسنة والسيئة، لأنه وإن بدت فطرته ميتة في المعاملة مع الآخرين، ولكن عندما ينشأ سؤال: كيف يجب أن يعامله الآخرون؟ تُمزِّقُ فطرتُه الخامدةُ الحُجُبَ كلها وتتنشط، فلا يكون ذلك الشخص مستعدا ليترك حتى أبسط حقٍّ

من حقوقه الذي يرى أنه يستحقّه تحت شعور الحسنة أو السيئة. فمثلا السارق المتعود على سرقة مال الناس الذي قتل فطرته بكثرة السرقة يحسب أنه على حق، أو يمكن أن يُظهر على الأقل أنه على حق، ولكن عندما يغصب أحد آخر مالَه تهيج فورا فطرته شبه الميتة وتهبّ لحماية حقوقه. كذلك الزاني الذي يكون مستعدا دائما لاغتصاب بنات الآخرين وأخواتهم وزوجاتهم، وينهمك في بعض الأحيان في هذه الفعلة الشنيعة إلى درجة أنه إذا حاول أحد منعه منها يقول له ضاربا بمقتضى الحياء عرض الحائط أن هذا ليس عملا سيّئا إذ أقوم به بموافقة الفريق الثاني ولا علاقة للآخرين به. ولكن إذا امتدت يد شقي آخر إلى أهل بيته يستشيط غضبا وينسى أنه إذا كان له الحق أن يشبع رغبته فلماذا لا يحق ذلك لغيره؟ كذلك الكذاب يفرح بخداع الآخرين، ولكن إذا خدعه غيره بالكذب يستعد للانتقام ممتلئا غيظا وغضبا.

باختصار، الشعور بالحسنة والسيئة مودَع في فطرة كل إنسان، وهذا الشعور دليل قوي على أن الإنسان ليس وليد صدفة، وليس نتاج قانون أعمى بل خلقه عليم وحكيم ولهدف معين وغاية معينة، وتلك الغاية هي أن ينمّي الإنسانُ ذلك الشعور الفطري المودَع فيه كبذرة، ويفتح لنفسه أبواب أصناف التقدم، ويخلق في نفسه انعكاس البارئ تعالى، المنبع الكامل للحسن والإحسان، ويرتقي إلى أبد الآباد إلى أعلى قمم الحسن والإحسان من كل نوع. فكّروا جيدا، واعلموا أن الشعور بالحسنة

والسيئة منقوش في فطرة كل إنسان، وإن ينبوع النور القلبي هذا الذي يتدفق من قلب كل إنسان لا يمكن أن يكون نتيجة قانون أعمى أو ارتقاء غير ملحوظ، بل يثبت بكل جلاء أن خالق هذه العاطفة الفطرية هو وجود مدرك بالإرادة وهو الذي خلق الإنسان بهدف أن ينمّي هذه العاطفة الفطرية ويرث إنعاماته العظيمة. لا أفهم كيف يمكن للذي يقدر على شيء من التدبر والتأمل أن يحسب هذا الشعور الفطري بالحسنة والسيئة الموجود في كل إنسان والذي بسببه تصدر منه الأفعال الحسنة، هو نتيجةَ قانون مصادفة أو ارتقاء فطري!

يقول البعض أن مَثل العالم كمثل ماكينة تعمل أدواتها في حلقاتها تلقائيا بحسب تركيبة الماكينة الداخلية، ويستدلون من ذلك على أنه ليس هناك إله. ينبغي لهؤلاء الناس أن يفكروا بأمانة: هل يمكن أن يكون الشعور الفطري الذي بسببه يشعر كل شخص بالميل إلى كسب الحسنات نتيجة آلية عمياء؟ هل توجد أو يمكن أن توجد ماكينة تعمل تلقائيا نتيجة قوتها الداخلية وتميز في المعاملة بين الغني والفقير، والسعيد والمنكوب، والشاب والشيخ، والضعيف والقوي، واليتيم وغيره. فمثلا إذا طحنت الطاحونة قمح فقير ومنكوب وشيخ عجوز وضعيف ويتيم سريعا وبصورة أحسن، فهل تطحن لغني وذي سعة وشاب وقوي ولطفل أبواه حيّان بصورة عادية؟ فإن لم تكن هناك طاحونة مثلها كما هو الحال فعلا، أفلا يدلّ وجود الشعور بالحسنة والسيئة في الإنسان وحبّه الحسنةَ بطبيعته والرحمَ

والعفو أو نصرة المنكوب أو قيامه بالتضحية بحسب مقتضى الظروف على أن حياة الإنسان لا تعمل كالآلة تلقائيا بل وراءها أحد آخر قد نقش هذه العواطف في فطرته لهدف معين وغاية معينة.

كذلك من الخواص الفطرية أن يكره الإنسانُ السيئةَ حتى لو صدرت منه بسبب غفلة أو في حالة شعوره بالندم والخجل في قلبه فيما بعد. وهذا أيضا دليل على أن حياة الإنسان ليست كمثل آلة بل خلقه وجود أعلى لهدف خاص، وقد وُضعت هذه الحراسة الفطرية على قلعة قلبه لهدف معين. لقد أُودع قلب الإنسان كنز عشرات العواطف، كذلك أُودعت فطرته شعورا ما كبذرةٍ، بأن استخدام تلك العاطفة على نحوٍ ما حسنٌ، واستخدامها على نحوٍ آخر سيئ، وأن عليه أن يستخدمها استخداما صحيحا دائما ويكره الاستخدام السيئ. الشريعة تنزل دائما لري تلك البذور الخفية ولإنباتها وتنميتها. باختصار، إن وجود الشعور بالحسنة والسيئة في فطرة الإنسان دليل قوي على أن الإنسان لم يأت إلى الوجود من تلقائه، وأن حياته لا تعمل كآلة، بل تعمل وراءها قوة ووجودٍ مدرك بالإرادة خلقه لغاية معينة ولهدف معين، وهو المراد.

وإذا خالج ذهن أحد هنا شبهة تقول: أليس ممكنا أن يكون الشعور الذي يسمَّى شعورا فطريا قد تشكَّل نتيجة الظروف المحيطة والتقاليد العائلية والقومية؟ بمعنى أنه إذا كان الناس يحبون الحسنة ويكرهون السيئة فقد لا يكون ذلك نتيجة مقتضى الفطرة، بل لأن الناس فضّلوا الأعمال

الحسنة وكرهوا السيئة بناء على تجربتهم؟ ثم ترسخت هذه الفكرة في أذهان النسل البشري رويدا رويدا وبدأت تتراءى كشعور فطري؟ فجوابه: مع أن هذا الاعتراض يبدو جديرا بالانتباه في الظاهر ولكن إذا تأمل المرء فيه لا تبقى الحقيقة خافية. من الواضح أن الشعور بالحسنة والسيئة ينشأ لسببين؛ إما أن يكون الدافع وراءه الخبرة الطويلة والظروف المحيطة كما يظن المعترض، أو هو ما أودعه الوجود الأعلى في الفطرة كما يعلّمنا الإسلام. ولا تخطر إمكانية أخرى سواهما بالبال قط. والآن علينا أن نرى أيّا من هاتين الإمكانيتين أصح ومبنية على الحقيقة، فالأمر الأول الذي نراه في الشعور بالسيئة -مع أي قوم في العالم ومع أيّ زمن كانت علاقته- هو الوحدة نوعا ما، أو ما يسمّى بالإنجليزية (Uniformity) أي الانتظام، بمعنى أن هذا الشعور يلاحظ في كل قوم في العالم وفي كل زمان بصورة موحّدة من حيث أصله، وهو دليل بيّن على أنه ليس وليد التجربة أو الظروف المحيطة بل وضعته في فطرة الإنسان قوة عليا خارجية تفوق الجميع. فكِّروا جيدا فتعلموا أن ما ينتج عن التجربة والظروف المحيطة يجب أن يختلف من قوم إلى قوم ومن زمن إلى آخر، ولا سيما في الزمن الابتدائي حين كان كل قوم يجهل قوما آخرين بوجه عام، وكانت وسائل الاختلاط مفقودة، فكان ضروريا أن يكون هذا الشعور مختلفا في أقوام مختلفة، لأن تجربة كل قوم وظروفهم تختلف عن غيرهم. إذًا، نرى أن التقاليد والعادات القومية التي تكون نتيجة الظروف المحيطة تختلف

حتما لدى كل قوم. فلو كان الشعور بالحسنة والسيئة نتيجة ظروف الأقوام وتجاربها لتحتّم أن يتراءى بصورة مختلفة في كل قوم وفي كل زمان. ولكن الأمر ليس كذلك، بل الواقع أن هذا الشعور قد لوحظ في كل قوم في العالم وفي كل زمان بصورة موحّدة. فمثلا إذا أخذنا قومين ظروفهما مختلفة، بمعنى أن أحدهما قوم متحضرون ومثقّفون ومؤدبون جدا والآخرون جهلاء ومتوحشون وغير متحضرين، فمع ذلك يلاحظ فيهم هذا الشعور على نمط واحد وبصورة واحدة تماما مع الاختلاف الكبير بين ظروفهم. وإذا وُجد شيء من الاختلاف فسيكون فقط في أمور تتعلق بالنمو الحاصل فيما بعد. بمعنى أن هذا الشعور الفطري سيلاحظ ناميا في قوم على نمط وأسلوب، وفي قوم آخرين على نمط وأسلوب آخر. ولكن إذا فُصل هذا الشعور عند كلا القومين عن التأثيرات الواقعة فيما بعد لظهر على نمط وأسلوب واحد. وهذا يدلّ على أن هذا الشعور من حيث أصله ليس نتيجة الظروف والتجارب بل هو وديعة فطرية لم يُحرم منها أحد من بني آدم.

الدليل الثاني على أن هذا الشعور فطري وليس نتيجة تأثير خارجي هو أنه لو تدبرنا في الموضوع للوحظ الشعور نفسه عاملا في الإنسان في أمور أخرى أيضا لا يمكن أن تكون عند أيّ عاقل نتيجة التجارب والظروف المحيطة، بمعنى أن تلك الأمور هي من نوع لا يمكن العثور على ضرّها أو نفعها بواسطة تجربة الإنسان. لذا إذا وُجد شعور بها فلا يمكن أن يكون

نتيجة الظروف أو التجارب. بل سيُفهم أن مصدره هو وجود آخر حتما قد أودع هذا الشعور في فطرة كل إنسان بحكمته الخاصة. فمثلا نرى أن احترام الميت كان موجودا في كل قوم وفي كل زمان بشكل أو بآخر. ولكن من الواضح أنه لا علاقة لهذا الشعور بالتجربة أو الظروف المحيطة قط ولا يمكن نسبته إلا إلى صوت الفطرة.

ملخص الكلام أن الشعور بالحسنة والسيئة في بعض الأمور التي لم يُعثر على نفعها أو ضرّها بواسطة التجربة ولا يلاحظ لها فائدة في الظاهر، دليل بيّن على أنه ليس نتيجة التجربة أو الظروف بل هو أمرٌ فطري أودعه وجود أعلى في فطرة الإنسان، وهو المراد.

الدليل الثالث على أن الشعور بالحسنة والسيئة شعور فطري هو أنه يظهر للعيان في بعض الحالات ضد التقاليد القومية، وهذا يُثبت بالقطع أنه ليس نتيجة العادات القومية، لأن النتيجة لا يمكن أن تخالف مصدرها. تلاحظ في التاريخ أمثلة كثيرة أن قلوب قوم تقسو نتيجة ظروف مروّا بها إلى زمن طويل فيميل أفرادهم إلى الظلم والجَور والقسوة، وبالتالي تجعل التقاليد القومية كل فرد من أفراده متحجرا وقاسي القلب. ولكن لو درسنا فطرة أفراد القوم ونفسيتهم دراسة عميقة وأمعنا النظر في سوانحهم لوجدنا عاطفة الرحمة حتما تحت القسوة التي غشيتهم، وتتجلى هذه العاطفة الخافية في حين من الأحيان وبشكل من الأشكال. كذلك هناك أمثلة أن قوما مرّوا إلى مدة طويلة بظروف أدّت إلى تنمية عواطف الرحمة

والعفو واللين فيهم حتى صارت الرحمة وحدها جزءا من التقاليد القومية لكل فرد من القوم، ولكن لو تأملنا في الأمر أكثر لعلمنا أنه على الرغم من الظروف المذكورة تلاحَظ في كل فرد من القوم عاطفة أنه إذا كان الإصلاح متوقَّعا نتيجة القسوة والبطش وكان العفو والرحمة مضرا فلا يجيزون العفو والرحمة بل يختارون سبيل البطش والعقوبة المناسبة.

باختصار، إن هذا الشعور الفطري بالحسنة والسيئة يلاحظ في بعض الأحيان ضد التقاليد والعادات القومية والظروف السائدة في البلد أيضا لأنها جزء من الفطرة التي يمكن أن تكبت أحيانا تحت تأثيرات الظروف ولكنها لا تموت أبدا. لذلك يلاحَظ أحيانا مشهد أن ظروف المرء القومية والعائلية وتقاليدها تجعل طبيعته تنهج منهجا معينا وكأن فطرة جديدة تنشأ فيه نتيجة تلك الظروف والتقاليد ويمكن أن تُسمّى الفطرة الثانية. ومع ذلك عندما تجد الفطرة الحقيقية فرصةً فإنها تمزِّق حُجُبَ الفطرة الثانية، كما يمزق البركان ما فوقه، وتظهر للعيان.

ملخص الكلام أن الظروف والتقاليد تؤدي إلى تكوين فطرة جديدة نوعا ما ولكنها تكون الفطرة الثانية لا الفطرة الأصلية. والفطرة الأصلية هي تلك التي لا علاقة لها قط بالظروف والتقاليد السائدة في البلاد ولا بالتجارب القومية، بل هي جزء من خِلقة كل إنسان. وهذه الفطرة الصحيحة التي أُودعت الشعور بالحسنة والسيئة بحكمة كاملة دليل بيّن على أن وراءها خالق الفطرة المدبر بالإرادة الذي أودع فيها هذه المزية

لهدف خاص وغاية خاصة. ويقول القرآن الكريم عنها: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٩)، أي لقد وضع الله تعالى في فطرة كل إنسان شعورا بالحسنة والسيئة، وأخبره بواسطة الفطرة أن هذا سبيل سيئ وهذا حسنٌ. وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١١). أي قد أرشدناه بواسطة فطرته إلى كلا الطريقين، ثم خيّرناه بينهما ليختار طريقا يشاء، إما طريق السيئة أو الحسنة. وقال ﷻ في آية أخرى بكل صراحة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٣).

باختصار، الشعور بالحسنة والسيئة مُودَع في فطرة كل إنسان، وهذا دليل قوي على أن الإنسان لم يأت إلى الوجود من تلقائه و لم يأتِ نتيجة قانون أعمى. وهذا دليل بيّن على وجود الله لا يسع عاقلا إنكاره.

دليل القبول العام

والدليل الذي أريد بيانه الآن هو دليل القبول العام، وهو مبني على مبدأ أن كل فكرة أو معتقد ما حظي بقبول عالمي في عصر معين؛ دليل على أن ذلك المعتقد أو الفكرة من حيث المبدأ مبنية على الصدق والحق. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٨). أي ما يكون نافعا ومفيدا

للناس في الحقيقة، يبقى في العالم دائما، أما الشيء التافه وغير النافع فليس له بقاء. كذلك هناك مبدأ في العلوم يسمّى بالإنجليزية: (Survival of the fittest) أي البقاء للأصلح، أي لا يسلم في صراع الحياة ولا يكون أحق بالبقاء إلا ما كان أكثر نفعا، أما الأشياء الأخرى فتندرس وتنمحي مقابله. وهذا ما توحي به لنا تجربتنا وهو أن البقاء والدوام في الدنيا إنما هو للأصلح والأنسب، أما الشيء الضار والباطل وغير المفيد فلا يدوم ولا يزدهر على المستوى العالمي. لا أقصد من ذلك أنه لا يبقى في العالم شيء باطل وغير مفيد قط، بل المراد هو أن بقاء الشيء من هذا القبيل لا يكون عالميا ودائما، بل يكون مؤقتا وعلى مستوى محدود.

فحين نلقي نظرة من هذا المنطلق على السؤال قيد البحث نجد أن الإيمان بالله اعتقاد لا يمكن لعاقل إنكاره. جميع الأقوام التي تسكن في العالم سواء أكانت صغيرة أم كبيرة، متحضرة كانت أم غير متحضرة، مثقفة أم غير مثقفة، وحيثما كانت؛ متفقة على الرغم من الخلافات الداخلية بينها أن الدنيا وما فيها ليست من تلقاء نفسها بل لها خالق ومالك. وهذه الفكرة لا تقتصر على أقوام معاصرة فقط، بل تلاحظ بغير استثناء في كل زمن عبر التاريخ، ونلاحظ أنه لا يخلو قوم من الاعتقاد بأن وجودا أعلى قد خلق الدنيا وهو ملكها. هناك اختلاف كبير في صفات هذا الوجود الأعلى، فقوم يقدّم الإله بصورة وقوم آخرون يقدمونه بصورة أخرى. وهناك قوم يؤمنون بإله واحد، ولا يعتقدون بأي معبود

فوقه أو تحته، وهناك قوم آخرون قد اتخذوا آلهة كثيرة ويصرون على عبادتها كلها. باختصار، هناك اختلاف كبير بين الأقوام في ذات الله وصفاته. ولكن على الرغم من هذا الخلاف فإن النقطة المركزية لدين كل قوم ومذهبهم هي أن الدنيا وما فيها لم تأت إلى الوجود من تلقائها بل هي تجلي قدرة وجود أعلى. ويتفق على ذلك كل من اليهود والنصارى والهندوس والمسلمين والسيخ والمجوس وأتباع مذهب الجينية والبوذية، وكذلك الهنود الحمر من شمال أميركا وأقوام "هاتن هات" و"زولو" من أفريقيا الجنوبية، والزنوج من أفريقيا الغربية وسكان أستراليا الأصليين والأسكيمو من المنطقة المتجمدة و"ماوري" من نيوزيلندا، و"كوند وسنتال" من الهند، وفئة الطاويين من الصين. ثم إذا نظرنا من حيث الزمن وجدنا الأمر نفسه في الدنيا في الزمن الراهن وفي الناس من زمنٍ مجهول التاريخ، كذلك في الناس من العصور الوسطى والقبائل من الزمن الابتدائي. باختصار، خذوا أيّ قوم أو زمن تجدوا بصورة ما، سواء خفية أو واضحة، الاعتقادَ القائل بأن هذه الدنيا تعمل تحت تصرف وجود أعلى. إذًا، على الرغم من الخلافات العظيمة والكثيرة فإن اتفاق أقوام العالم كلها على أن لهذا العالم إلها -بغض النظر عن صفاته، وبغض النظر عما إذا كان ذلك الوجود واحدا أو أكثر- دليل كاف على أن وجود الله لا يسع عاقلا إنكاره.

لا أقول بأن هؤلاء الأقوام كلهم يدّعون أنهم رأوا الله عيانا أو عرفوه وشاهدوا صفاته، أي أنهم يقدّمون رؤيتهم شهادة في هذا المجال، بل أقول فقط إن جميع أقوام العالم على الرغم من خلافاتهم الدينية الكثيرة كانوا يدّعون الإيمان بالله بشكل من الأشكال في كل زمان. وهذا الادعاء وحده -لحيازته قبولا عالميا- دليل على أن هناك إلها فعلا.

فكّروا جيدا فتعلموا أن حيازة عقيدة ما قبولا إلى درجة أن تصبح عقيدة العالم كله وتجعلها الأقوام كلها نقطة مركزية لدينهم ومذهبهم، ودون وجود مثال واحد منذ فجر التاريخ وإلى يومنا هذا أن قوما أنكروا هذا الاعتقاد كقوم، دليل قوي على صحته ولا يمكن إنكاره. لا شك أن المعتقدات الخاطئة أيضا تأخذ رواجا في العالم، وفي بعض الأحيان تتوسع دائرتها إلى حد ما من حيث الزمان والمكان، ولكن لن تروا استتباب اعتقاد خاطئ في كافة أنحاء العالم بحيث لا ينكره أيّ قوم، ثم لم يبق ذلك الاعتقاد مقتصرا على زمن واحد، بل ظل ينال القبول نفسه على المستوى العالمي منذ بدء الخليقة. لو حدث ذلك لارتفع الأمان وتعذر التمييز بين الحق والباطل. إذًا، إن الاعتقاد أن هناك وجودا أعلى فوق الدنيا وهو منـــزّه عن قيود الزمان والمكان قد نال قبولا عظيما، فهذا الإثبات العظيم الذي لا نظير له في تاريخ العالم دليل على أنه لا يمكن أن يكون كاذبا.

وإذا قال أحد أنه كان في الدنيا أناس ولا يزالون لا يؤمنون بالله قطعا، فجوابه: لا شك في أنه يوجد في الدنيا أناس مثلهم في كل زمان ولكنهم لم يحظوا بأهمية على مستوى القوم في أيّ زمان قط، ولم تستتب عقيدة الإلحاد بصورة مستقلة ودائمة في زمن من الأزمان في أيّ قوم على المستوى القومي، ولم تلق سلسلة الإلحاد رواجا وإحكاما في العالم قط. ولم تحظ في أيّ وقت أهمية أكثر من أنها حكمت قلوب بعض الناس وأذهانهم بصورة مؤقتة فقط. إن مَثل أهمية هذا الاعتقاد في تاريخ أقوام العالم كمثل المتمردين -الذين يرفعون عَلم التمرد بين فينة وفينة- ضد حكومة مستتبة ومُحكمة في البلاد، ولكنهم لا يقدرون على أن يقفوا أمام الحكومة مع جماعتهم إلى فترة طويلة، ولا يستطيعون أن يُحكموا سيطرتهم على رقعة واسعة من البلاد بصورة دائمة ومُحكمة. هل يمكن الشك في حكومة مستتبة في البلاد بسبب هؤلاء المتمردين؟ كلا، ثم كلا.

هل الاعتقاد بوجود الله نتيجة الأوهام؟

إذا انتابت أحدا في هذا المقام شبهة أن بعض المؤلفين الغربيين يقولون أنه كان في الدنيا أقوام لم تعتقد بوجود الله على المستوى القومي، فجوابه أنه لا شك في أن بعض المؤلفين الغربيين كتبوا ذلك. يظن الناسُ عن الزمن الأوّلي خصوصا أن بعض الأقوام لم تعتقد بوجود الله، ولكن إذا تعمّقنا في الموضوع لوجدنا بجلاء أن هؤلاء المؤلفين أخطؤوا في قولهم هذا

و لم يقتلوا الموضوع بحثًا، وقد أخطؤوا بوجه خاص حين نسبوا معتقدات بعض الأقوام القديمة المبنية على الشرك إلى الخوف والجهل والأوهام فقط وفهموا خطأ أنهم لم يعتقدوا بوحدانية الله قط، ولكن هذا خطأ تماما. والحق أن عقيدة الشرك، وإن كانت نتاج الجهل لكنها فرع من الاعتقاد بوجود الله حتما وليست هي الأصل بحد ذاته، أي أن معتقدات الشرك تنتج دائما عن الانحراف عن عقيدة الإيمان بالله، ولا يحدث مطلقا أن تنشأ معتقدات الشرك نتيجة فقدان الاعتقاد بوجود الله كليا. توجد في تاريخ العالم أمثلة أن قوما كانوا ثابتين على الاعتقاد بوجود الله ثم تطرقت إليهم معتقدات الشرك رويدا رويدا، وفي بعض الأحيان تتغلب معتقدات الشرك حتى تصبح عقيدة وجود الله في طي النسيان وتغيب عن الأنظار كليا وتتلاشى في نهاية المطاف.

فما دامت هذه الأمثلة موجودة فمن مقتضى العدل أن نحسب الأقوام التي كانت في أوائل الزمان والتي لا يلاحَظ عندهم إلا معتقدات الشرك وتاريخهم الأوّلي ليس محفوظا عندنا أنهم كانوا مؤمنين بالله تعالى في البداية ثم تلاشت عندهم تلك العقيدة كليا رويدا رويدا، وحلت محلها معتقدات الشرك البحت. الحق أن الأمثلة التي قدمها بعض الناس ضد دليلنا هذا كلها تتعلق بأقوام ليس تاريخهم الأوّلي محفوظا. ولما لم يكن التاريخ الأوّلي محفوظا فإن الظن - بغض النظر عن بعض النظائر الواضحة الأخرى- أن تلك الأقوام كانت ثابتة على الشرك منذ البداية، وأن معتقداتهم الشركية

كانت نتيجة الجهل والخوف واتباع الأوهام فقط، وأن الاعتقاد بوحدانية الله تعالى لم يستتب فيهم قط؛ فهو استدلال غير عادل تماما، ولا يسع عاقلا غير عنيد قبوله بتاتا.

إضافة إلى ذلك لو أمعنّا النظر في الموضوع لتبين لنا بجلاء أن معتقدات الشرك لا تنجم عن مجرد الجهل والخوف والأوهام، بل لا بد من وجود الاعتقاد بوجود الله قبلها. لا شك أنه من مقتضى الفطرة أنه عندما يرى المرء شيئا أقوى منه وأكثر هيبة وعظمة أو أرفع شأنا وأكثر نفعا يذعن له ويحسبه شيئا عظيما ويخافه ويرتعب منه. ولكن إذا كان مثل هذا الشخص يجهل تصور العبادة كليا فمن المستحيل تماما أن يتخذه معبودا له بسبب الخوف ويحسبه خالقا ومالكا له. المعبودية تقتضي أن يكون في ذهن المرء تصور العبودية بشكل من الأشكال. فكّروا جيدا فتعلموا أن تصوّر الإنسان لا يمكن أن يخلق فكرة ما، غير أنه يمكن أن يكون مقلِّدا، بمعنى أنه إذا كان أحد قد رأى شيئا من قبل أو سمع عنه أو جرّبه عندئذ يمكن حتما أن يرسم تصوُّره صورة ذلك الشيء في ذهنه. ثم يمكنه أن يزيد تلك الصُّوَر أو يمددها في تصوّره. أما إن لم ير المرء شيئا ولم يسمع عنه ولم يمثل أمام ناظريه نظيره فلا يمكن لتصوُّره أن يرسم صورته في ذهنه. فما دامت فكرة العابد والمعبود موجودة بشكل من الأشكال في معتقدات كل قوم، فلا بد من الاعتراف بأن كل قوم يعتقد بالله من حيث الأصل، وهو المراد.

وإذا انتابت أحدا شبهة أننا قد أُخبرنا في بداية المقال بكل قوة وشدة أن معظم الناس المعاصرين لا يؤمنون بالله، وكل قوم فريسة الإلحاد، أما هنا فقد قيل بأن جميع الأقوام في العالم تؤمن بالله تعالى ولم يكن هذا القبول العام في نصيب الإلحاد قط، وكأن هناك تعارضا في كِلا البيانين. أقول: هذه الشبهة ناتجة عن قلة التدبر، لأنه حين قيل بأن الأقوام المعاصرة كلها عرضة الإلحاد فقد قيل ذلك بالنظر إلى الإيمان الحقيقي، أما في هذا البحث فقد ذُكر الإيمان غير الحقيقي، فلا تناقض بينهما، بل كلاهما صحيح في محله، إذًا صحيح تماما أن معظم الناس المعاصرين لا يؤمنون بالله، لأن إيمانهم ليس حقيقة حيّة لتؤثر في حياتهم عمليا، وصحيح أيضا أن جميع الأقوام في العالم كانوا يؤمنون بالله بغضّ النظر عمّا إذا كان إيمانهم ضعيفا وميتا أو مبنيا على الشرك، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا بشكل من الأشكال ومن حيث القوم ثابتين على الإيمان بأن فوق هذا العالم إلها وبيده نفوسنا. والمعلوم أنه قد ذُكر هنا الإيمان من حيث الاعتقاد فقط ولم تناقَش الحقيقة الباطنية. فكلا البيانين صادق في محله ولا تناقض بينهما. ملخص الكلام أن القبول العظيم وعلى المستوى العالمي الذي حظيت به عقيدة الإيمان بالله في كل زمان دليل على أنه مبني على الحق والصدق، والاعتقاد الذي يُسمى مقابله إلحادا فهو باطل وخاطئ تماما، وهو المراد.

درجات اليقين الثلاث

الدليل التالي الذي أريد تقديمه لإثبات وجود الله، وإن كان دليلا عقليا أيضا ويتعلق بمرتبة "يجب أن يكون" فيما يتعلق بالله، ولكن يمكن لأهل البصيرة أن ينالوا منه إشارة يقينية وقاطعة على وجود الله تعالى. لا يظننّ أحد أن الأدلة العقلية مبنية على الشك فقط ولا تؤدي إلى مرتبة اليقين بالبارئ تعالى. ومن ظن ذلك فقد أساء الفهم تماما، لأن القول عن الله أنه "يجب أن يكون" إنما هي مرتبة اليقين مثل مرتبة: "هو موجود فعلا". الفرق الوحيد هو أن في مرحلة "يجب أن يكون" لا يتسنى اليقين الكامل الذي يتسنى في مرحلة: "هو موجود فعلا" ولا تُنال الطمأنينة والسكينة التي تتأتّى في مرحلة "هو موجود فعلا"، وإلا فتلك المرحلة أيضا مرتبة من اليقين لا يجد العاقل مجالا لإنكارها أيضا.

الحق أن لليقين ثلاث مراتب، أولاها اليقين الذي ينشأ نتيجة الأدلة العقلية، ويدلُّ المرءَ على وجود شيء بالنظر إلى الآثار. مثال ذلك أننا نرى الدخان صاعدا في فلاة ونستدل منه على أنه لا بد أن تكون هناك نار يصعد منها الدخان، لأن وجود الدخان بغير النار مستحيل. واستدلالنا هذا يُنشئ فينا يقينا عقليا بوجود النار. هذا اليقين يسمى في مصطلح القرآن الكريم "علم اليقين"، أي اليقين الذي ينشأ نتيجة الاستدلال العلمي أو العقلي، وليس فيه دخلٌ مباشر للمشاهدة. والواضح أن مرتبة: "يجب أن يكون" أيضا تمثّل هذا النوع من اليقين لأنه يُستدَلّ

فيه أيضا من الآثار وليس من الرؤية المباشرة. ولكن عندما نرى النار بعينينا أو نجرب خاصيتها في الإحراق عمليا، يتحول هذا اليقين إلى مرتبة: "هو موجود فعلا" القاطعة واليقينية. وبكلمات أخرى يمكن بيان الفرق بين المرتبتين: "يجب أن يكون" و"هو موجود فعلا" بأننا في مرحلة "يجب أن يكون" نؤمن بالله بالأدلة، وفي مرحلة "هو موجود فعلا" لا تبقى وسيلة الأدلة قائمة بل تأخذ صبغة المشاهدة.

لا يخلو من الفائدة هنا ذكر درجتَي اليقين الأخريين اللتين بيّنهما القرآن الكريم. الدرجة الأولى هي "علم اليقين" كما ذكرتُ من قبل، وقلتُ بأن هذا اليقين يتسنى بواسطة الاستدلال العلمي على وجود شيء من خلال تأثيراته. والمرتبة الثانية هي "عين اليقين"، وفي هذه المرتبة لا يبقى الاستدلال باقيا بل تبدأ المشاهدة. مثلا يمكننا القول بذكر مثال النار المذكور آنفا أنه عندما نمشي باتجاه الدخان ونرى النار بعينينا فلا يبقى يقيننا مقتصرا على "علم اليقين" فقط بل يتحول إلى "عين اليقين"، ولا يكون فيه دخلٌ للاستدلال.

وفوق هذه الدرجة هناك درجة ثالثة تُسمى في مصطلح القرآن "حق اليقين" وتتسنى للإنسان عندما يقترب من النار كثيرا ويشعر بحرارتها، أي يشعر بنفسه بخاصيتها الطبيعية والفريدة، أي الحرارة. ومن ناحية ثانية لا يرى ضوء النار فقط بل يستفيد من حرارتها أيضا بسبب القرب، وبواسطة ضوئها يقدر على تمييز الطريق الصحيح من غيره. هذه هي

مرتبة اليقين النهائية التي لا تفوقها أية مرتبة. غير أنه توجد ضمن هذه المرتبة النهائية مراتب مختلفة دونها حتما، وكل إنسان ينال مرتبة اليقين بقدر مواهبه وجهده، ولكن لا حاجة إلى الخوض في تفصيله هنا. باختصار، هناك مراتب مختلفة لليقين، ومرتبة "يجب أن يكون" التي هي قيد البحث الآن هي المرتبة الأولى منها وتسمى "علم اليقين".

دليل غلبة الرسل

الدليل على وجود الله الذي أريد بيانه الآن هو أننا نرى منذ فجر التاريخ أنه كلما تمت المواجهة بين المؤمنين بالله ومنكريه -وإن كان الإنكار من حيث الاعتقاد أو العمل- كانت الغلبة حليفة المؤمنين دائما. وهذا يدل على أن هناك يدا غيبية تعمل لنصرة المؤمنين. لا أقصد أن المؤمن ينتصر على الكافر دائما في كل نوع من الاختلاف، لأن النجاح والفشل في ظروف عادية يتحقق بحسب قانون الطبيعة، ولا يمكن أن يختار كافر طرق الانتصار ولا يختارها مؤمن ثم ينتصر المؤمن دون الكافر. هذا لن يحدث في الظروف العادية أبدا بل سيكون النجاح في نصيب الذي يسلك طريق النجاح، أيا كان. إذًا، لا أتحدث هنا عن الاختلافات والمواجهات الدنيوية العادية بل المراد هو أنه كلما هبَّ في الدنيا صادقٌ مدَّعيًا أن الله جعل الهدف من حياته أن يقيم الإيمان في الدنيا فهو ينجح

في مهمته لا محالة، ولا يمكن أن تقف في سبيل نجاحه قوة من قوى الدنيا. يقول القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢٢).

فنرى أن الرسول ينهض وحيدا ويكون عديم الحيلة كليا من حيث الأسباب المادية، ويبدو معارضوه من حيث العدد والعُدّة والعتاد كما لو أنهم سيسحقونه سحقا في لمح البصر، ولكن على الرغم من ذلك تغزو أفكاره قلوب الناس رويدا رويدا، ويكون النجاح حليفه في نهاية المطاف ويلقى معارضوه الذلة والخزي والنكبة. لم تشاهد الدنيا هذا المشهد مرة أو مرتين ولا عشر مرات أو عشرين مرة بل شاهدته آلاف المرات، وزدْ إلى ذلك أنه لا يوجد في تاريخ العالم مثال واحد كان فيه النجاح في مثل هذه المواجهة في نصيب الملحد. والمراد من الملحد هنا هو الذي ينكر الله تعالى كليا أو يؤمن به إيمانا تقليديا فقط ولا يؤمن به حقيقة.

فيا أعزائي، فكِّروا جيدا فتعلموا أنها حربٌ نشبت في أصقاع مختلفة في الأرض وبين أقوام مختلفة وأزمنة مختلفة وظروف مختلفة، ولم تنشب مرة أو عشرات المرات أو مئات المرات فقط بل نشبت آلاف المرات، وفي كل مرة يكون في جانبٍ عبدٌ من عباد الله عديمُ الحيلة ومفتقر إلى العُدة والعتاد فيهبّ باسم الله، وفي جانب آخر تكون جيوش المنكرين العظيمة مدججة بكل نوع من العدّة والعتاد. وعندما تنشب الحرب يربح المعركة ذلك العبد الإلهي، ويضطر فوج الإلحاد -وهم أسرى- إلى الالتحاق بحلقة أتباعه. أَكُلُّ ذلك يحدث صدفة؟ قدِّموا إليَّ مثالا واحدا حيث انتصر

جيش المنكرين في مثل هذه الحرب ولقي عبد الله الخزي والهوان. أليس هذا المشهد دليلا قاطعا على أن يد الله القادر تنصر الذين يهبّون باسم الله الذي لا تساوي مقابله العُدّة والعتاد الدنيوي حتى دودة ميتة.

انظروا إلى إنجازات كرشنا ورام شندر في ميادين الهند. بأيّ إعلان قام هذان الصالحان وكيف عاملهما الخونة من الهند؟ ثم ماذا كانت النتيجة النهائية؟ ألا تعنو رقاب أهل الهند كلها اليوم أمام هذين المقدسين؟ أولا يقرّون بكونهم خداما مطيعين لهما؟

ثم ادرسوا وقائع حياة أبي الأنبياء إبراهيم خليل الله، وانظروا إلى أن عبد الله هذا قام وحيدا باسم الله في وديان بلاد الشام المكفهرة، وقد ألقاه أبناء الإلحاد الأشاوس في النار، ولكن هذا الإنسان العديم الحيلة ظاهريا لم يخش ولم يخف، بل ظل يكبّر الله تعالى كمن كان مستلقيا على فرش الأزهار بكل هدوء وسكينة. لماذا حدث ذلك؟ لأن صوت وجودٍ أعلى كان يدوّي في أذنَي إبراهيم عليه السلام قائلا: يا إبراهيم، انظر إلى السماء، هل تستطيع أن تحصي نجومها؟ قال إبراهيم: من يستطيع إحصاء جيوشك يا ربي؟ قال عز وجل: لقد عقدتَ معي عهد الحب والإخلاص والوفاء، فأحلف بنفسي، أنّ آلك وأولادك أيضا سيتلألؤون في سماء الهداية كالنجوم ولن يُحصَوا. ثم انظروا، تجدوا أنه لم يتيسر لأي نبي أتباع بعدد ما تيسر لإبراهيم عليه السلام. ثم انظروا: أين اليوم أولئك الذين ألقوا إبراهيم في النار؟

ثم خذوا موسى العَلَيْهِ‌السَّلَامُ مثلا، إذ قد وُلد في عائلة فقيرة، ووضعه أهله في صندوق خشية فرعون وألقوه في اليمّ، فالتقطه أهل فرعون، وأمر فرعونُ بعاطفة الرحمة أو لسبب آخر أن يُربّى الطفل في بيته. عندما شبّ الغلام اضطر إلى الفرار من الوطن خائفا عقوبة جريمة بحق السلطة، وظل يجوب الصحارى والفلوات حتى اختار خدمة أحد الصالحين، وتزوج ابنته بعد خدمته إلى عشر سنين، ثم عاد إلى بلاط فرعون بعد الاستنارة بنور الله، وقال لفرعون أمام أهل البلاط ما مفاده: إني رسول من الله خالقِك وخالقي ومالكك ومالكي، فأرسلْ معي بني إسرائيل وإلا فلن تكون عاقبتك حسنة. فقال فرعون عابسا مخمورا بنشوة السلطة: يا موسى هل تفتح فمك أمامي؟ عُد إلى صوابك إذ تربّيت على مائدتي. فنصحه موسى العَلَيْهِ‌السَّلَامُ ووجد أن نشوته لا تكاد تزول، فخطط ليأخذ بني إسرائيل معه خفية عاملا بخطة حكيمة وسيرى ما يحدث بعد ذلك. وحين علم فرعون بذلك استشاط غضبا وخرج مع جيش الحكومة العرمرم ليلاحق الذين فرّوا في الفلاة وأدركهم سريعا. وبرؤية هذا المشهد ارتعب بنو إسرائيل الذين كانت العبودية لعديد من السنين قد جعلتهم جبناء إلى أقصى الحدود، وقالوا لموسى قلقين: ماذا يمكن أن نفعل الآن؟ ولكن موسى كان ثابتا ثبوت الصخرة فقال بالنظر إلى وجوه مذعورة: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٣)، أي لا داعي للقلق، إن ربي سيجعل لنا سبيلا. سبحان الله، قال ذلك موسى نفسه الذي هرب من وطنه قبل بضع سنين

خائفا من الشرطة المصرية، ولكنه لم يقلق الآن مطلقا في مواجهة جيش فرعون الجرار. وماذا كانت النتيجة؟ لقد انفلق البحر لموسى وجعل له طريقا يبسا، ولكن فرعون أصبح مع جيشه وعدته وعتاده لقمة أمواج البحر المهيبة. ثم لم ينته الأمر على ذلك فحسب بل إن أتباع موسى يفوقون العدّ والإحصاء مثل أتباع إبراهيم عليهما السلام، أما فرعون فلا يعرفه أحد غير أن جثته الهامدة صارت عبرة للناس.

تعالوا الآن نلاحظ وقائع المسيح الناصري عليه السلام الذي وُلد من بطن فتاة عذراء فقيرة من بني إسرائيل، فوجّه اليهود، خبثاء الباطن، تهمًا وقالوا بأن هذه الفتاة لم تتزوج قط، فأنّى لها هذا الابن؟ ونسوا أن ولادته كانت نتيجة نبوءة سابقة[٦]. ونسوا أيضا أن للمسيح أُمًّا على الأقل، بينما آدم عليه السلام لم يكن له أُمٌ ولا أبٌ كما يقولون. على أية حال، لقد شبّ المولود بغير أب وبتأييد من روح القدس رفع الصوت القديم نفسه الذي رفعه من قبْل "كرشنا" في الهند وإبراهيم في الشام، وموسى في مصر. ولكن اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المسيح بازدراءٍ سلفا استشاطوا غضبا وبلغ الأمر إلى تعليقه على الصليب نتيجة تآمرهم وفرحوا ظانين أنهم حققوا غايتهم. ولكن قوة أخرى كانت تؤيد المسيحَ، فجاءت لنصرة المؤمن بها وأنقذته من الموت الوشيك وطمأنته بكلامها الزاخر بالحب قائلة: لقد تسلط عليك اليهود اليوم مؤقتا بحكمتي، ولكني إلهك صادق الوعد وسيبقى

[٦] انظروا سِفر إشعياء ٧: ١٤

اليهود تحت سيطرة أتباعك إلى يوم القيامة، وسيرى العالم أنك أنت المنتصر في الحقيقة وليس اليهود. فما الذي يشاهده العالم اليوم؟ ألم يسيطر خدام المسيح على العالم كله كسيل العرم؟ وماذا آلت إليه حالة اليهود؟ لقد وضع اليهود على رأس المسيح تاج الأشواك وقالوا مستهزئين: انظروا إليه إنه ملِكُنا. أما اليوم فيريد أتباع المسيح رحمة بهم أن يضعوا على رؤوسهم تاج حكم الأرض المقدسة، ولكن لا يسمح لهم أحد بذلك، وكأن أمة بني إسرائيل معلّقة على الصليب منذ ١٩٠٠ عام مغبة تعليق المسيح عليه لسويعات معدودة. سبحان الله، ما أعظم بطش الله عبرةً!

ثم انظروا إلى سيد الجميع محمد المصطفى ﷺ (فدته نفسي). لقد تزوج شابٌّ من عائلة شريفة وفقيرة ينحدر من قريش من فتاة حييّة. لم يُكتَب للزوجين أن يعيشا معا إلا فترة وجيزة جدا حتى مات زوج الفتاة تاركا إياها حاملا. والجنين في أحشائها يثير كل يوم ذكرياته في قلبها البريء بألم كبير. على أية حال، وُلد الولد ورأتْه أُمّه فرحة مسرورة -وقد هاجت ذكرى زوجها المرحوم في قلبها بألم وحزن كبيرين- لأن الطفل الذي قُدّر له أن يُبقي اسم زوجها حيًّا كان موجودا أمام ناظرَيها. أرادت الأُمّ أن تسلِّم ابنها إلى مرضع في البدو بحسب تقاليد قريش، ولكن من سيستلم هذا الولد اليتيم؟ بعد بحث طويل وُجدت مرضع رضيت أن تأخذ الولد معها، وهكذا قضى سيد الأنبياء أيام حياته الأولية في حجرة في صحراء العرب. عندما كبُر قليلا عاد إلى والدته ولكن لم يمض وقت

طويل حتى رحلت أُمّه إلى زوجها المرحوم في عالم الأرواح وصار الولد يتيم الأبوين. حين كبر بدأ التجارة كغيره من قريش. ظلت سنوات العمر تمر على هذا النحو. كان شخصا أُمِّيا لا يقرأ ولا يكتب، ولكن كان يُنظَر إليه في قريش بعزة واحترام خاص بناء على أخلاقه الفاضلة، وأطلق الناس عليه لقب "الأمين". عندما أوشك على الأربعين عاما من العمر مال طبعه إلى الخلوة، وبدت عادات قريش وتقاليدهم وديانتهم مكروهة في نظر هذا الإنسان ذي الفطرة السليمة، وبدأ يبحث بكل شدة عن مبادئ الأخلاق الفاضلة والدين الذي يُطمئن القلوب اطمئنانا صادقا. قرب مكة يقع جبل أجرد وفيه غار متروك، فأحب ﷺ هذا الغار لخلوته، فكان يجلس فيه ليل نهار في خلوة، ويقضي أوقاته في ذكر وجودٍ غير معروف يهدِّئ ذكْرُه قلبه المضطرب. ليس له صاحب سرٍّ، إلا أن زوجته المسنَّة التي كانت تعيش في مكة قلقت نظرا إلى قلق زوجها. ظلت الأيام والأشهر تمر رويدا رويدا حتى أتى وقت حين بدأت أشعة نورانية لتلك الذات غير المعروفة التي كان يبحث عنها تنـــزل على قلبه النقي، وبدأ مشهد العالم الروحاني الواسع ينكشف أمام عينيه شبه المغمضتين.

باختصار، لم يمر زمن طويل حتى خرج من زواية الخمول وعرض على قريش منصبا عيّنه الله فيه ودعاهم إلى الله خالق هذا العالم ومالكه ولا إله سواه. سخرت قريش من كلامه ولم يحسبوه جديرا بالاهتمام. ولكنه استمر في إتمام مهمته، واجتمع حوله بعض العقلاء والمخلصين وآمنوا به

وبدؤوا ينصرونه في مهمته. عندئذ بدأ قومه أيضا يفيقون من رقادهم وشعروا أن الموضوع ينبغي ألا يقابَل بالإعراض والسخرية، بل لو لم يوضع له حدٌّ لأحدث في القوم فُرقة وفِرقا. وبذلك نشبت حرب دينية عظيمة لا نظير لها في تاريخ العالم، وأحدثت في بلاد العرب المترامية الأطراف زلزالا وطوفانا، إن صح التعبير، إلى عشرين عاما، واضطرمت من أقصى البلاد إلى أقصاها نار لم تخمد ما لم تجتمع البلاد كلها تحت راية إله واحد. أولا عزمت قريش في مكة على أن يرُدّوا حفنة من المسلمين إلى دينهم السابق قهرا، وجعلوهم عرضة لمظالم تقشعر لهولها الأبدان. كان بلال عبدا حبشيا، عندما تناهى صوت الإسلام إلى أذنيه قبلته فطرته السليمة فورا. كان سيده أمية بن خلف زعيما كبيرا في قريش. لقد آذاه هذا الشقي إلى حدّ لا يطاق. فكان أمية يأخذه إلى الخارج في حرّ الهواجر حين تكون أرض مكة الحجرية مثل الفرن، وكان يلقيه على الرمل الحارق عاريَ الجسم ويضع على صدره أحجارا ساخنة ويطلب منه أن يتخلى عن محمد ﷺ ويترك عبادة الله ويسجد للأوثان وإلا سيستمر في تعذيبه على هذا النحو. لم يكن بلال يعرف العربية جيدا فكان يرنو إلى السماء ويقول: أحدٌ أحدٌ. أي الله واحد ولا أستطيع أن أتركه. فكان سيده الظالم يشد رباطه بحبل ويسلِّمه إلى الشباب الأوباش ليجروه في أزقة مكة الحجرية فيُجرَح جسمه العاري ويتضرج بالدم. ثم يسأله أُمية: ماذا تقول الآن يا بلالُ؟ فيصعد من لسانه الصوتُ نفسه:

أحدٌ أحدٌ. فكان الشباب الأوباش يجرونه مرة أخرى على الحجارة بإشارة من أميّة.

كان هناك مسلم آخر اسمه خباب ﵁، لم يكن عبدا بل كان حُرًّا، وكان يشتغل حدادا في مكة. ذات مرة أخرج شباب قريش الأشرار جذوات من الكير وألقوها عليه، وجلس أحدهم على صدره كيلا يتمكّن من الانقلاب، حتى خمدت الجذوات تحت ظهره، ولكن عبد الله المخلص هذا لم يترك الله. كانت سميّة رضي الله عنها سيدة فقيرة، طلب منها أبو جهل بشدة أن تتراجع عن الإسلام وإلا سيهلكها بالتعذيب، ولكنها لم تخضع لضغطه وظلت ثابتة على الإسلام. فطعنها هذا الشقي في فرجها وقتلها في ميدان مكة الحارق. هذه بعض الأمثلة لأعمال قريش التي صدرت ضد المسلمين الضعفاء وعديمي الحيلة في أوائل تلك الحرب الدينية.

لقد رشق أوباشُ الطائف سيدَ المسلمين (فدته نفسي) حتى جُرح جسمه الشريف من قمة الرأس إلى أخمصَي القدمين وملئ حذاؤه بالدم. لقد قاطعه داخل مكة أهلها وحاولوا قتله. وعندما بلغت هذه المظالم قمّتها وقررت قريش في نهاية المطاف أن تقتل محمدا ﷺ في كل الأحوال لتندرس جماعته، هاجر النبي ﷺ مع حفنة من أصحابه من مكة إلى المدينة واضعا في الحسبان أن يؤدي ذلك إلى زوال غضب قريش قليلا فيتركوا المسلمين يعيشون في سلام وأمان ولئلا يعرقلوا تبليغ دعوتهم السلمية.

ولكن ذلك أذكى نار غضب قريش أكثر من ذي قبل، وتحوّل زعماؤهم في البلاد كلها وحرّضوا القبائل كلها ضد المسلمين حتى صارت حالتهم كمثل الذي يكون محاطا في فلاة تُصعِد لُـــهَب النار إلى مئات الأميال في كافة جوانبها. إن رواية التاريخ التالية ترسم صورة حالة المسلمين حينذاك، فقد جاء فيها ما مفاده:

عندما جاء محمد وأصحابه إلى المدينة وأجارهم بعض من أهل المدينة هبّت بلاد العرب كلها ضدهم. كان المسلمون آنذاك ينامون ليلا مدجَّجين بالأسلحة كما كانوا يحملونها أثناء النهار خشية أن يهاجمهم العدوّ في أيّ وقت. وكانوا يقولون قلقين مضطربين: لا ندري متى ستكون في نصيبنا أيام نتنفس فيها باطمئنان، ولا نخاف إلا الله.[٧]

لم يكن عدد المسلمين حينذاك أكثر من أشخاص معدودين، وكانوا ضعفاء وفقراء وعديمي الحيلة إلى أقصى الحدود. وفي جانب آخر كانت قوى البلاد كلها مجتمعة ضدهم وتغزو كسيل عارم مع عُدّة وعَتاد لتمحو من صفحة العالم إلى الأبد هذه الجماعة المتكونة من حفنة من الناس الذين قاموا باسم الله.

إن التضحيات التي قدّمها النبي ﷺ وأصحابه في هذه الحرب عديمة النظير، والمشاكل التي مرُّوا بها مرقومة في صفحات التاريخ ولا حاجة إلى تكرارها هنا. ولكن هناك حادث لا أستطيع أن أغض الطرف عن بيانه

---

[٧] اُنظر: لباب النقول في أسباب النـــزول

في هذا المقام، وبيانه أن النبي ﷺ كان ذات مرة يمرّ مع جماعة كبيرة في وادٍ في الحجاز[٨] إذ أطلقت عليهم فجأة قبيلة معادية سهاما من الأمام، فتأخر حلفاء المسلمين مبهوتين من الهجوم المباغت، فعمّت الفوضى جيش المسلمين في الميدان، وفرّت الجِمال والأحصنة والبغال والحمير مع ركّابها. عندما رأى العدو هذا المشهد تقدم مزمجرا كالأسد وأمطر المسلمين الهاربين وابلا من السهام. نظر النبي ﷺ فيما حوله ووجد الميدان فارغا، لم يجد المسلمين الجدد من مكة ولا المخلصين الأنصار من المدينة ولا الصحابة القدامى المهاجرين. فلم ير حوله إلا العدو الذي كان يتقدم من الأمام كطوفان عارم ويمطر وابلا من السهام، ولكنه ﷺ بقي ثابتا في مكانه كصخرة وقال ما مفاده لأحد أصحابه الذي كان واقفا بالقرب منه مذعورا: خذْ لجام فرسي بقوة حتى لا يتأخر إلى الوراء خشية السهام. ثم ركل فرسه وتقدّم إلى العدو معلنا:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

لا أدري أيّ سحر كان في ذلك الصوت بحيث لم يلبث أنْ تناهى إلى آذان المسلمين حتى اجتمعوا فورا حول سيدهم باذلين كل ما في وسعهم ومضحين بنفوسهم، ومزّقوا صفوف العدو الغازية في لمح البصر. باختصار، جرت هذه الحرب على هذا النحو. هذا ولم يمض على لجوء النبي ﷺ -الذي كان متعودا على الخلوة في غار حراء- إلى المدينة تسع

[٨] المقصود غزوة حنين (المترجم)

سنين بالكاد، إلا وبدأت بلاد العرب المترامية الأطراف التي كانت مساحتها تسع مائة ألف ميل مربع تدوّي من أقصاها إلى أقصاها بهتافات "الله أكبر".

قد يقول قائل بأن هذا فعْل السيف كله، فأقول: فلتفعلوا أنتم أيضا ذلك. لقد نهض شخص فقير وضعيف لا حول له ولا قوة ولا حيلة وفي غضون بضعة أعوام قلب رأسا على عقب بلدا كان يعاديه أيما معاداة وكان مدججا ضده بالسلاح من قمة الرأس إلى أخمصَي القدمين. هل هذا فعل السيف أم تجلّي قدرة الله الغيور؟ من رفع السيفَ أيها الأغبياء؟ هل منكم من أحد يستطيع أن يثبت أن المسلمين بادروا برفع السيف؟ وهل منكم من يثبت أنه عندما رفع المسلمون السيف دفاعا عن أنفسهم ولإحلال الأمن أدخلوا شخصا واحدا في الإسلام قهرا؟ يا أبناء الظلمة الأشقياء، كيف أؤكد لكم أن العرب هم الذين سبقوا برفع السيوف ضد المسلمين، ولم يعيدوها إلى أغمادها إلا بعدما تيقّنوا أن وراء محمد ﷺ يدًا ذات قوة وقادرة، لا أهمية أمامها لأسباب الدنيا حتى بقدر جناح بعوضة. صحيح أن الناس قبلوا الإسلام خائفين، ولكن ليس خشية السيف بل نتيجة خشية الله. ولا شك في أنهم كسروا الأوثان بأيديهم، ولكن ليس خوفا من قوة المسلمين بل لأنهم وجدوا الأوثان نفسها ذليلة وبلا حيلة. يتبين من التاريخ أن بعض زعماء مكة استخفوا بالأوثان وهم يقولون: لو

كان فيها شيء من القوة لما عنتْ رقاب العرب المستكبرة أمام محمد (ﷺ)[٩].

الذين شهدوا هذه الأحداث كلها يقرّون ذلك بلسانهم، أما أنتم الذين أتيتم بعد ١٣٠٠ عام وتسكنون على بُعد آلاف الأميال من بلاد العرب وتجهلون تاريخ الإسلام جهلا تاما تزعمون أن العرب قبِلوا الإسلام خشية سيف محمد (ﷺ). ويل للعناد، يجب أن تكون للجَوْر حدود.

باختصار، هذا النجاح عديم النظير الذي حازه النبي ﷺ دليل بيّن على أن يدًا قوية كانت تنصره ﷺ وهي يد الذي نسمّيه إلـــها. واليوم، وقد مرّت على وفاته ﷺ ١٣٥٠ عاما يشعر أربع مائة مليون إنسان بالاعتزاز لكونهم خداما له ﷺ، وهذه الدائرة تتوسع يوما إثر يوم، وليس بعيدا بفضل الله تعالى الوقتُ حين يحكم هذا الملك الفريد في العالم الروحاني قلوب العالم كلها نتيجة جمالٍ أودعه الله تعالى فيه، وحينها ستعنو رقاب السود والحمر كلهم أمام ظل الله هذا. اللهم صل عليه وآله وسلّم، ويا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما.

وبعد النبي ﷺ (فدته نفسي) إن وجود سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني، خادمه ﷺ الصادق وظلّه الكامل وبروز جماله ﷺ أيضا حلقة من هذه السلسلة المقدسة. لقد وُلد طفل في قرية مجهولة خاملة الذكر، بعيدة عن محطة القطار ومرافق البرقية، وتربّى في ظل الوالدين، ولكنه بسبب ميله

[٩] انظروا تاريخ الخميس.

الطبعي إلى العزلة بقي بعيدا عن المجتمع الصغير جدا حتى في قريته. حاول أبوه بشفقة أبوية أن يرقِّي ابنه إلى أعلى وظيفة ممكنة فأرسل إليه: إن لي علاقة ممتازة مع موظف كبير، فتعالَ معي لأدبّر لك وظيفة معقولة. فردّ عليه الابن: يا أبتِ لا تقلق بشأني، فقد توظّفت حيث أردتُ أن أتوظف، أي قد أُكرمتُ بالوظيفة في حضرة الله ولا حاجة بي إلى الوظائف الدنيوية. ومن هنا بدأت قصة تلك الوظيفة المقدسة التي لا تزال تهزّ العالم الديني وتُحدث فيه طوفانا منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا.

لقد أعلن سيدنا مرزا غلام أحمد في عام ١٨٨٤م أمام العالم كونه مجددا. ولكن لما لم يكن في هذا الإعلان ما كان من شأنه أن يفاجئ المسلمين بوجه خاص لأنه قد سبق أن ظهر مجددون كثُر في الإسلام لذا فقد قبل العالم الإسلامي هذا الإعلان بصمت أو لقي الإعلان عدم الإنكار على الأقل، واستمر مرزا غلام أحمد عليه السلام في تأييد الإسلام بحكم منصب عيّنه الله فيه، واستحسن خدماته العقلاء من المسلمين وشكروه عليها لأنهم رأوا نظرا إلى خدماته هذه أنه إذا كان هناك شخص بين المسلمين يستطيع أن يواجه المعارضين بوقار ونجاح فهو ليس إلا مرزا غلام أحمد. ولكن خدماته عليه السلام هذه أضرمت في معارضي الإسلام أي الهندوس والنصارى نار العداوة الخطيرة فعقدوا العزم على إلحاق الضرر به وإفشال مساعيه بأية طريقة ممكنة. لم تمض على هذه الحالة فترة طويلة، وإذا بالمزرا المحترم يعلن بأمر من الله أنه هو مصداق النبوءات المتعلقة

بنـــزول المسيح وظهور المهدي في الزمن الأخير، وأن المسيح الناصري عليه السلام الذي يُنتظَر عودته قد مات. وأعلن أيضا أن الأنباء التي جاءت في أديان مختلفة عن الزمن الأخير ومفادها أن مصلحا عظيما سيُبعث فيه ويقاوم الباطل ويجعله مغلوبا وسينتصر الحق والصدق على يده، قد تحققت في شخصه، وهو الذي وُعد به في الأديان كلها وقُدّر على يده فتح الإسلام العالمي والأخير.

إن ثورة العداوة والشراسة التي أحدثها هذا الإعلان، ونهوض أهل الأديان كلهم مجتمعين ضده أمر لا نظير له. لقد خرج إلى الميدان المسلمون الآخرون والنصارى والهندوس والآريون، وأتباع الجينية، والسيخ والبراهمو وأتباع "ديو سماج" وغيرهم ضده بكل ما عندهم من العُدّة والعتاد، نعم ضد شخص واحد لا حول له ولا قوة. لقد عدّه معظم المسلمين كافرا وملحدا وضالا ومضلا بل دجالا وأعلنوا في العالم الإسلامي كله بواسطة فتوى شرعية أن هذا الشخص كافر وخارج عن دائرة الإسلام بل عدوّ الإسلام اللدود، ومن بقي على أيّ نوع من الصلة معه سيخرج من الإسلام كذلك. ونشروا أيضا أن إلحاق الضرر به بكل طريقة ممكنة ليس جائزا فقط بل فيه ثواب كبير. وقد أفتى بعضهم أن قتله واجب في الشريعة الإسلامية، وقاتِله يستحق ثوابا. وإضافة إلى هذه العداوة القولية التي لم تكن قولية فقط من حيث تأثيرها بل كانت سببا لإشعال نار خطيرة في البلاد، تمت المحاولات المضنية لجعله مغلوبا ولإهانته

عمليا أيضا بكل طريقة شرعية وغير شرعية، وهاجمه المسلمون والنصارى والهندوس كلهم بكل عُدّة وعتاد.

إن تاريخ الجماعة الإسلامية الأحمدية الأولية قصة أليمة جدا تقشعرّ لقراءتها الجلود. ففي جانبٍ هناك شخص وحيد لا جماعة معه بادئ الرأي، ولا يملك الأسباب والوسائل ولا الثروة أو الشهرة، وفي الجانب الآخر كان هناك أفواج العالم كله مع كامل العُدّة والعتاد تتصاعد من كل حدب وصوب كالسيل العظيم، ولكن الرجل لم يخش ولم يرتعب قط بل ظل ثابتا في مكانه مثل صخرة صامدة. ليس في يده سيف يستخدمه ولا مال يُنفقه ولا علمٌ مادي يُرعب به الآخرين، ولا قوة يُرهب بها الناس. غير أن في يده عَلما روحانيا تلمع عليه كلمات مكتوبة بحبر غير أرضي: "جاء نذير في الدنيا، فأنكروه أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويُظهر صدقه بصولٍ قويٍّ شديدٍ صول بعد صولٍ".

وبقدر ما أخذ هجوم العدو صورة خطيرة رفع عليه السلام بيده ذلك العَلم السماوي. ولا نعرف أيّ سحر كانت تزخر به تلك الكلمات، إذ انجذب جنود من جيوش المنكرين إلى عَلمه تاركين صفوفهم! لقد ضايقهم المعارضون بكل طريقة ممكنة بما فيها إنزال عقوبات مدنية عليهم، وغصبُ أموالهم وثرواتهم وفصلُ أهلهم وأولادهم عنهم، وضربُهم، ولم يقصّروا حتى في قتلهم كلما تمكّنوا من ذلك، ومنعوهم من أن يدفنوا أمواتهم في مقابرهم ولكن الناس ظلوا ينجذبون إليه تلقائيا كأنهم فاقدون

صواهم. لقد تخلوا عن عرش استقلالهم الظاهري مضطربين ليلبسوا طوق عبودية ذلك الرجل عديم الحيلة وخامل الذكر الساكن في قرية بسيطة.

سبحان الله، ما أغرب هذا المشهد! يقول المعارضون أنه مثل بعوضة تزعجنا بطنينها، وإن لم تسكت فسوف نسحقها بين أصابعنا. ولكن أتباع صاحب الطنين هذا يهاجمون اليوم كل قلعة في العالم، ويعترف الأعداء أيضا بأنه إذا كانت هناك قوة دينية في العالم فهي هذه القوة وحدها. هل هذا فعل يدٍ بشرية؟ كلا، ثم كلا، بل اليد البشرية تحتاج إلى الأسباب والوسائل، ولكن كل الوسائل في هذه الحالة كانت في يد العدو، ولم يكن في يد المرزا المحترم أيّ شيء قط. ولكن على الرغم من محاولات الأعداء المضنية ظلّت أفكار المرزا المحترم تتغلغل في قلوب العالم كله. وعندما جاءته رسالة الرحيل من الله تعالى في عام ١٩٠٨م كان أربعمائة ألف من الخدام المخلصين والأوفياء والمضحين قد اجتمعوا تحت رايته. أما الآن وقد مضت على وفاته عليه السلام ١٧ عاما[١٠]، ترى أتباعه منتشرين في بقاع العالم كلها من أجل تبليغ دعوة الإسلام، ويحيِّرون العالم بتضحياتهم العديمة النظير في سبيل الله. هذه الأمور ليست قصصا وحكايات، بل أحداثا واقعية لا يقدر أن يحجبها العدو أيضا تحت حُجُب عداوته وعناده.

---

[١٠] وقد مضت عند طبعة الكتاب الثانية ٣٨ عاما، وعند الطبعة الثالثة ٤٧ عاما.

لقد نهض شخص عديم الحيلة والقوة من قرية مجهولة وأعلن أن الله تعالى بعثه لإقامة جلاله، فأنكرته الدنيا، ونزل إلى الميدان أتباع الديانات والملل كلها بجيوشهم وعتادهم، وزعموا نشوانين بخمرة قوتهم وقدرتهم أنهم سيمحونه كليا من وجه البسيطة في لمح البصر. حيثما نظرتم في ذلك الوقت وجدتم الأعداء العطاشى لدمه وقد تجمّعوا مقابله ناسين خلافاتهم الداخلية كلها، وكل واحد منهم كان يشتاق إلى أن يسبق الجميع ويهاجمه قبل غيره. ولكن الذي كان الناس يحسبونه بعوضة فقط لها طنين، أو فقاعة ماء فحسب، كان سيفا مسلولا في يد الله فأهلك من وقع عليه وهلك من وقع عليها. لقد بارز جريَّ الله هذا كبارُ البواسل والشجعان ولكن انمحت آثارهم سريعا. لماذا حدث ذلك؟ اقرؤوا تاريخ الجماعة الأوّلي ثم انظروا إلى المعارضة التي ظهرت للعيان، ثم ادرُسوا حالته الراهنة ثم قولوا عدلا وإنصافا هل يمكن نوال هذا النجاح الخارق بغير تأييد ونصرة من الغيب؟ لقد نهض باسم الله شخص واحد لا حول له ولا قوة ولا حيلة، وعلى الرغم من معارضة العالم المريرة سيطر على جميع أنحاء العالم في فترة وجيزة لا تتعدّى ثلاثين أو أربعين عاما وكأنه وحده يحكم العالَـــمَ الديني كله. إن مركز الأحمديين موجود في الهند وموجود في سريلانكا وموجود في سوريا وفي فلسطين وموجود في بريطانيا وفي ألمانيا وفي هولندا وفي سويسرا وفي إيطاليا وفي إسبانيا. مركزهم موجود في ترينيداد وفي شمال أميركا وفي جنوب أميركا، وفي أفريقيا الشرقية والغربية

وفي موريشيوس وفي ماليزيا، وموجود في جاوا وسومطرة، وبورنيو[١١].

وهذه المراكز ليست مغلوبة بهجمات العدو المتأوه والموشك على الانقراض بل كل واحد منها يشكّل قوة ملحوظة في حد ذاتها، والعالم كله مقرّ بقوتها.

فيا أيها الذي ينظر إلى الجماعة الأحمدية نظرًا شزرا وتذرف عيناه دمًا نتيجة الغضب على تقدمها المحير للعقول، ويغتاظ على تقدّم الإسلام بسبب جهله، اسمع جيدا وتذكّرْ قول شاعرٍ ما تعريبه:

"علامَ تبكي؟ فهذه بداية العشق فقط، بل عليك أن تترقب ما هو حادث في المستقبل".

باختصار، إنَّ الظروف المعادية التي يتقدم فيها المسيح الموعود عليه السلام مؤسس الجماعة الأحمدية وجماعته بسرعة هائلة وبصورة تحيّر العقول لدليل بيّن على أن قوة غيبية وغالبة وحاكمة على كافة قوى العالم تؤيده، وهي ما نسميه إلـــهًا.

ملخص الكلام أن الدنيا تشاهد منذ فجر التاريخ أنه كلما جاء صادق بأمر من الله وقام باسمه عز وجل كانت الغلبة والنجاح في نصيبه في نهاية المطاف مهما كانت الظروف، وقد لقي أعداؤه الذلة والخزي دائما على الرغم من حيازتهم أصناف القوة وألوان العُدّة والعتاد. وهذا لم يحدث مرة

[١١] عند الطبعة الثالثة للكتاب ازداد عدد مراكز الجماعة الإسلامية الأحمدية، ويخدم الدعاة الأحمديون الإسلام في معظم بلاد العالم. من المؤلف.

أو مرتين أو عشر أو عشرين مرة فقط، بل شوهد الأمر نفسه آلاف المرات، وليس في تاريخ العالم مثال واحد ينافي هذا المبدأ. فهذه الغلبة دليل قاطع ويقيني على أن قوة غيبية عظيمة تعمل في تأييد الذين يقومون باسم الله، ولا أهمية لأسباب دنيوية مقابلها ولا كأهمية دودة ميتة. وهي ما نسميه إلــهًا، ويجب أن تعنو أعناق بني آدم على عتباته دائما. ليت الناس يفهمون! نِعم ما قال المسيح الموعود عليه السلام في قصيدة له ما تعريبه:

"إن الله تعالى يُثبت وجوده بقدرته، وبذلك يُجلّي نفسَه ذلك الإلهُ الذي ليس وجوده ماديا.

وإذا قال عن شيء أنه فاعله حتما، لا يحول دونه شيء، هذا هو الدليل الأمثل على ألوهيته."

دليل شهادة الصالحين

الدليل العقلي الأخير الذي أريد تقديمه على وجود الله يتعلق بشهادة الصالحين، فهو مبني على مبدأ أن كثيرا من الناس المسلَّم بصدق مقالهم، وبسلامة قواهم العقلية أيضا، يشهدون بشهادتهم الشخصية أن لهم إلــها في الحقيقة، وقد رأوه وعرفوه كما رأوا وعرفوا أشياء مادية أخرى.

كل من يملك شيئا من العقل والخبرة يستطيع أن يفهم بسهولة أن الشهادة وسيلة كبيرة من بين وسائل تحصيل العلم، بل لو ألقينا نظرة

على مجال معلوماتنا الواسع لعلمنا أننا لم نحصل على أكبر جزء من معلوماتنا مباشرة بل حصلنا عليها بواسطة روايات أناس ثقات آخرين أو بدراسة الكتب الصحيحة أو الجرائد وما شابهها، و لم تتسنَّ لنا فرصة قط لنجربها أو نشاهدها بأنفسنا، ومع ذلك نحن موقنون بصدق هذه المعلومات كيقيننا بالمعلومات الحاصلة بمشاهدتنا وتجربتنا. وكيف لا؟، لأننا ما دمنا نوقن بمشاهدتنا وتجربتنا ونحسبهما جديرتين بالثقة فلماذا لا نقبل مشاهدة وتجربة شخص آخر يملك القلب والذهن مثلنا، وصدق مقاله أيضا يفوق الشك والشبهة؟ نقرأ في الجرائد أخبار العالم كله ونعُدّها صحيحة. البحوث الحديثة التي تجري حول خواص الأشياء التي تفتح بابا جديدا في عالم العلوم الدنيوية، يقبلها العالم كله مع أن الذين شعروا بتلك الخواص مباشرة من خلال تجاربهم الشخصية عددهم قليل جدا. ثم خذوا مثلا أحكام المحاكم الجنائية والمدنية في العالم كله ترون أن القرار فيها يؤخذ في معظم الحالات بناء على الشهادات الشفهية أو الخطية ولا يعترض عليها أحد. كذلك إن علم التاريخ معظمه مبني على شهادات الناس الشفهية أو الخطية ويقبلها الجميع. ثم خذوا علم الجغرافيا مثلا، فيوقن كل صغير وكبير في الهند أن "لندن" مدينة، وهي عاصمة دولة بريطانيا، مع أنه لم يزرها ولا واحد بالمئة من سكان الهند، ومع ذلك يقر الجميع بوجودها بناء على شهادة الناس الآخرين. إضافة

إلى ذلك هناك كثير من الأشياء نعترف بها في حياتنا اليومية، لأن الآخرين يشهدون بها مع أننا لا نملك عنها علما شخصيا.

باختصار، الشهادة وسيلة كبيرة للحصول على العلم ولا يسع عاقلا إنكارها، لأنها لو أُنكرت لبطلت كثير من العلوم وذهبت سُدى بالنسبة لأكبر عدد من الناس في العالم، لأن إنكار مبدأ الشهادة يعني أن يعترف الناس بالأمور التي جرّبوها أو شاهدوها بأنفسهم وينكروا الأخرى كلها. ولو تأملنا أكثر لتوصلنا إلى نتيجة مفادها أننا لو أنكرنا مبدأ الشهادة لما أمكن لنا أن نوقن بأي علم قط، لأنه إذا كانت تجربة زَيدٍ وبَكرٍ ومشاهدتهما غير جديرة بالثقة مع كونهما صادقَين ومع سلامة قواهما الدماغية والعقلية، ومع أنه ليس هناك ما يدفعهما إلى قول الزور، ففي هذه الحالة ليس هناك سبب يجعل مشاهدتنا وتجربتنا جديرة بالقبول حتى عند أنفسنا. فإذا كان ممكنا أن يخطئا في مشاهدتهما فنحن أيضا لسنا بُرَآء من إمكانية الخطأ. فثبت أن إنكار مبدأ الشهادة لا ينتج إلا عن فتح باب الأوهام.

قد يقول قائل بأن الشهادة أيضا تكون كاذبة تارة، وتارة أخرى لا تكون شهادة شاهد معين جديرة بالقبول لعيب في فهمه، وإن لم يكن كاذبا. هذا صحيح ونحن نقبل ذلك، ولكن لا يمكن سدّ باب تحصيل العلم بناء على هذا الاحتمال فقط. فمثلا لو لحق بمريض ضرر من دواء قديم وغير صالح فهل يمكن الاستنتاج من ذلك أن ذلك الدواء غير مفيد

بل مضر في حد ذاته؟ كذلك لا يمكن الاستنتاج من شهادة شاهد كاذب أو ناقص الفهم أن مبدأ الشهادة باطل أصلا. بل لا يُستنبَط من ذلك إلا أنه ينبغي اجتناب تناول دواء قديم وغير صالح، كذلك ينبغي أخذ الحيطة والحذر بعين الاعتبار في قبول شهادة كاذب أو ناقص الفهم، كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٧). فإذا ثبت صحتها بعد البحث والتحقيق فاقبلوها، وإلا فلا.

إذًا، الشهادة وسيلة مهمة جدا بين وسائل الحصول على العلم، ولا يمكن إهمالها فقط بسبب إمكانية أن تكون بعض الشهادات كاذبة؛ لأنه لو صح إبطال شيء بناء على إمكانياتٍ من هذا القبيل لما بقي في العالم شيء جدير بالقبول، لأن هذه الإمكانية موجودة بحق أي شيء في العالم، مهما كان يقينيا. الطعام يزيل جوع الإنسان ويقوي الجسم ويستعيد قوته، ولكن ألا يفسُد الطعامُ وينتن أحيانا فيضر الجسم بدلا من الإفادة؟ وهل لأحد أن يستنتج نظرا إلى هذه الإمكانية أن الطعام مضر للجسم؟ الحق أن كل شيء مهما كان مفيدا يصبح مضرا إذا ما وقع في أيدٍ غير أمينة وأُسيء استخدامه. فالمطلوب هو أخذ الحيطة والحذر بعين الاعتبار حتى لا يساء استخدام شيء. والمراد من سوء استخدام مبدأ الشهادة هو أن يؤسَّس قرار أو حكم على شهادة شاهد كاذب أو ناقص الفهم أو مختل العقل. إذا تجنّبنا سوء الاستخدام على

هذا النحو تصبح الشهادة مفيدة جدا ووسيلة موثوقا بها للحصول على العلم بحيث لا يسع عاقلا إنكارها.

فحين نلقي نظرة على عقيدة وجود الله من منطلق المبدأ المذكور آنفا، نجدها بالغة مبلغ الثبوت بأقوى شهادة ممكنة في العالم. جميع الأنبياء والرسل الذين جاؤوا إلى الدنيا، في أي بلد أو قوم أو زمن بُعثوا، يشهدون لنا أن للعالم إلـــها، حتما هو خالق هذا الكون ومالكه ومتصرف فيه. ولا يقولون ذلك بناء على ما سمعوه من هنا وهناك كإشاعات، بل يدّعون أنهم رأوا الله وعرفوه كما رأوا أشياء مادية أخرى في الدنيا وعرفوها، وأنهم على صلة شخصية مع الله تعالى. ويقولون بأن يقيننا بذلك كيقيننا بأن فلانا أبونا وفلانا أخونا وفلانا صديقنا، وتلك هي مدينتا وذاك بيتنا، وأن الله يكلمنا ويسمعنا ويجيبنا وينصرنا عند الضرورة، وهلمّ جرا.

باختصار، جميع الأنبياء والرسل يشهدون لنا بكلمات واضحة وصريحة لا تشوبها شائبة من الشك والريبة أن فوق هذه الدنيا إلها خالقا ومالكا.

وكما قلنا من قبل، إن شهادتهم ليست مبنية على أمور مسموعة، بل مؤسسة على تجاربهم ومشاهداتهم الشخصية، ولا تقتصر على بلد أو قوم أو زمن معين، بل ملحوظة في كل بلد وقوم وعصرٍ، إذ شهد بها آدم عليه السلام وشهد بالشهادة نفسها نوح وشهد بها يونس وأيوب وإبراهيم

ولوط، وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وهارون عليهم السلام. وشهد بها داود وسليمان، وزكريا ويحيى والمسيح الناصري وزرادشت وكونفوشيوس وكرشنا ورام شندر عليهم السلام جميعا. ثم شهد سيدنا محمد المصطفى ﷺ الشهادة نفسها، ثم جاء في هذا العصر سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وشهد بالشهادة نفسها. إذًا، كل مَن خلوا من مؤسسي الأديان إضافة إلى المذكورين آنفا يقدمون إلينا شهادتهم الشخصية بأن هذه الدنيا خاضعة لإله خالق ومالك وقدير ومتصرف لا يخرج شيء عن سيطرته. وهؤلاء كلهم أناس صدقُ مقالهم وأمانتهم وإخلاصهم مسلَّم به عند الأصدقاء والأعداء على حد سواء، بمعنى أن الأعداء أيضا يعترفون بأنهم كلهم صادقون وأتقياء في حد ذاتهم، سواء أقبلنا دينا جاؤوا به أم لم نقبل. وأضف إلى ذلك أن هؤلاء المذكورين ليسوا مجانين أو قليلي الفهم أو مختلي الحواس، بل يُعَدّون من الذين جاؤوا إلى الدنيا بأعلى القوى العقلية والذهنية. ففي ظل هذه الظروف تحمل شهادتهم عند أهل البصيرة أهمية لا تحظى بها شهادة أخرى قط.

فيا أعزائي، فكّروا جيدا فتجدوا أن هؤلاء الناس وُلدوا في بقاع مختلفة في العالم وفي أقوام مختلفة وفي أزمنة مختلفة، وإن صدق مقالهم وأمانتهم وإخلاصهم يفوق كل شك وشبهة، وقد أُجمع على أن حالتهم الذهنية سليمة بكل المعايير وبريئة من كل عيب ونقيصة، بل كانوا أسوة للآخرين في صدق مقالهم ومن حيث قواهم الدماغية العليا. بما لا نظير

له وعددهم ليس عشرة أو عشرين أو خمسين بل هم ألوف، وهم منتشرون في بلاد مختلفة وفي أزمنة مختلفة وكلهم يقدّمون أمام العالم شهادتهم الشخصية أن الدنيا وما فيها خاضع لوجود أعلى، وقالوا: لقد رأينا ذلك الوجود الأعلى وشعرنا به كما نرى ونشعر بالأشياء الأخرى غير المادية، وإننا على علاقة شخصية معه كعلاقاتنا مع أشياء دنيوية أخرى محسوسة ومشهودة، أفلا تجدر هذه الشهادات بالقبول؟ إن لم تكن هذه الشهادة جديرة بالقبول فليست في العالم شهادة تجدر بالقبول.

هناك أمران اثنان فقط يمكن أن يثيرا شبهة عن شهادة ما. الأول: أن يكون صدق مقال الشاهد مشتبَها فيه. والثاني: أن يكون في فهْم الشاهد عيب، لأن في هذه الحالة هناك إمكانية أن يخطئ في مشاهدته أو تجربته لكونه ناقص الفهم وإن لم يكذب عمدًا. ولكن كِلا هذين الأمرين مفقود فيما يتعلق بالشهود الذين نتحدث عنهم. وليس ذلك فحسب بل قد صُنِّف هؤلاء الشهود في الصف الأول في العالم من حيث صدق مقالهم وقواهم العقلية والذهنية العليا. وأضف إلى ذلك أن شهادتهم ليست مما سمعوه من غيرهم بل يقدّمون مشاهدتهم الشخصية المبنية على رؤيتهم. وأضفْ إلى ذلك أن هؤلاء الناس قد خلَوا في مختلف الأزمان والأقوام، بل معظمهم لم يطّلعوا حتى على وجود أمثالهم الآخرين في زمنهم، لذا لا إمكانية قط أن يكونوا قد تآمروا فيما بينهم.

ففي هذه الظروف تكسب شهادتهم أهمية خارقة بحيث لا يمكن إهمالها بأي حال.

تصوّروا أن تُرفع قضيةٌ إليكم وأنتم مطالبون بالحكم فيها. ففي ناحية هناك جماعة متكوّنة من آلاف الناس وكل واحد منهم موثوق به عند الأصدقاء والأعداء من حيث صدق المقال وسلامة القوى العقلية، وكل واحد منهم يقدّم شهادته الشخصية للعيان وأنه رأى فلانا في مكان كذا. وفي جانب آخر هناك فئة تضم الصالحين والطالحين ويقولون أنهم لم يروه. فقولوا بالله عليكم من تصدّقونه ولصالح مَن تحكمون؟ إن لم تجدوا في أنفسكم قدرة على الحكم فاسألوا خبيرا قانونيا وسيخبركم أنه إذا كانت شهادة الذين رأوه بأُمّ أعينهم تفوق الشك والشبهة فسيحَكم بحسبها، ولن يؤثر على الحكم قول الذين لم يروه مهما كان عددهم كبيرا، لأنه من الممكن أن يكون الشيء موجودا ولكن لم يره بعض الناس لسبب من الأسباب، ولكن لا يمكن قط ألا يكون الشيء موجودا ومع ذلك تراه جماعة من ذوي العقل الرصين والقوى العقلية والذهنية السليمة.

باختصار، إن شهادة الأنبياء والرسل التي يقدمونها على وجود الله تعالى دليل قوي على أن إلـــهنا موجود فعلا. وإذا أضفنا إلى الأنبياء والرسلِ الصلحاءَ والأولياء من أقوام مختلفة في العالم تكسب هذه الشهادة أهمية خارقة بحيث يكون إنكارها في حكم الجنون تقريبا. لقد

خلا في كل أمة مئات آلاف الصلحاء والأولياء الذين حكموا قلوب الناس بناء على رجاحة عقلهم ورصانة فكرهم، وكان صدق مقالهم وأمانتهم وإخلاصهم مضرب المثل عند الناس. لقد ظلّ هؤلاء الناس أيضا يشهدون على غرار الأنبياء أن للعالم إلـــها ويعمل نظام العالم كله بأمره وتحت تصرُّفه. هذه الشهادة أيضا ليست من قبيل الشائعات بل هي مبنية على مشاهدتهم الشخصية مثل الأنبياء تماما. فما لم يُثبَت أن هؤلاء الأنبياء والأولياء والصلحاء الذين يبلغ عددهم عشرات الملايين، وخلَوا في أزمنة مختلفة وأقوام مختلفة، كانوا كذابين أو مختّلي الحواس أو ناقصي العقل، والعياذ بالله؛ لكانت شهادتهم بأنهم رأوا الله وعرفوه وهم على علاقةٍ وصلةٍ شخصية معه بمنـــزلة صخرة ثقيلة لا يسع ملحدا إزالتها من مكانها. هل لملحد أن يتشجع على الخروج إلى الميدان كالأبطال ويُثبت أن إبراهيم كان كاذبا أو مجنونا، أو أن عيسى كان كذابا أو مجنونا، أو أن موسى كان كذابا أو مجنونا أو أن كرشنا كان كذابا أو مجنونا، أو أن زرادشت كان كذابا أو مجنونا، أو أن المسيح الموعود كان كذابا أو مجنونا عليهم السلام جميعا أو النبي ﷺ كان كذابا أو مجنونا؟ أو أن الأنبياء الآخرين كلهم كانوا كذابين أو مجانين؟ وأن الصلحاء والأولياء الذين خلوا في كل أمة بما يفوق العدّ والإحصاء كانوا كذابين ومجانين؟ وإن لم يقدر أحد من الملحدين على إثبات ذلك، أفليس من المؤسف أنكم تعترفون بوجود مدينة لندن بغير أن تزوروها،

لأن زائريها يقولون بأن هناك مدينة اسمها لندن، وتعترفون بوجود القطب الشمالي والجنوبي بغير أن تروهما، لأن الذين رأوهما يشهدون بوجودهما، وتقبلون وقوع أحداث أخرى تُنشر في الجرائد دون أن تروها عيانا، لأن وكالات أنباء مثل Reuters (رويترز) أو Havas (هاڤاس) تقول بوقوعها، وتعترفون باكتشافات علمية على الرغم من عدم تجربتكم لها بأنفسكم، لأن الخبراء يؤكدون بصحتها، ولكن لا تؤمنون بالله على الرغم من شهادة شخصية من قِبل مئات آلاف الناس الصادقين وذوي القوى العقلية السليمة؟! ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم: ٢٣).

وإنْ قلتم بأن طريق مشاهدة ما يقدمه الآخرون وتجريبه مفتوح أمامنا وإن لم نره بأنفسنا، قلتُ: يا أصدقاءنا الذين ضلّوا الطريق، فتح الله أعينكم، إن هذا الطريق مفتوح لكم للبحث عن الله أيضا، لأن الذين يدّعون الوصول إليه يقولون أيضا بأنه إذا اخترتم طريقا نعرضه عليكم للوصول إلى الله لاستطعتم أن تصِلوه مثلنا وتُنشئوا علاقتكم معه مثلنا. وهذا ليس مجرد ادعاء فارغ، بل قد اتّبعه أناس يفوقون العدّ والإحصاء، ونجحوا فعلا في الحصول على معرفة الله ولقائه، فجرِّبوا إن شئتم. ولكن من المؤسف حقا أن هؤلاء الناس يعترفون بأن هناك طريقا معينا لنيل كل هدف من أهداف الدنيا ويستحيل نيله بغير السلوك على ذلك الطريق، وأن الحصول عليه يستغرق بعض الوقت أيضا، ولكن يتوقعون

نيل الأهداف الروحانية فورا بمجرد نشوء الأمنية في قلوبهم، بينما هذا لا يمكن حدوثه قط. وإن كنتم تملكون شيئا من العقل فلكم أن تفكِّروا بأنفسكم في أنه ينبغي ألا يحدث ذلك أصلا. الحق -فاقبلوه إن شئتم- أن هناك طريقا معينا لنيل كل هدف سواء أكان ماديا أم روحانيا، ولا يمكن نيله ما لم يسلك المرء ذلك الطريق المحدد، بل كلما كان الهدف أسمى لا بد لنيله من بذل الوقت والتركيز وتحمّل المشقة وتقديم التضحية بالقدر نفسه، ويضطر المرء إلى العمل الدؤوب، عندها فقط ينال ذلك الهدف. ولكنكم تتوقعون أن تصِلوا إلى الله، إن كان موجودا، وأنتم جالسون عاطلين تماما دون أن تحركوا ساكنا، فوالله، لن تصِلوا إليه بهذه الطريقة أبدا. أما إذا سلكتم باضطراب صادق وأمنية قلبية وتركيزٍ كامل وجهد معقول طريقا يوصل إلى الله ومع ذلك لم تجدوه، عندئذ يحق لكم أن تقولوا بأنكم بحثتم عنه ولم تجدوه. ولكن من المستحيل تماما أن تسلكوا مسلكا صحيحا ولا تجدوه. كان هناك مئات الآلاف بل عشرات الملايين من الناس ذوي الأذهان والعقول مثلكم الذين بحثوا عن الله ووجدوه أخيرا. إن شهادتهم الشخصية، نعم شهادتهم الشخصية، وهي شهادة عيان ومسجلة في أوراق التاريخ بوضوح، لا يترك أدنى مجال للشك والريبة. ولا يسع أحدا منكم أن يتجاسر مثيرا أدنى شك وريبة على شهادتهم، فلا تستطيعون أن تنعتوهم بالمخادعين ولا أن تصفوهم بناقصي العقل أو تَعُدّوهم مختلي العقل. ولا تستطيعون أن

تقولوا بأنهم اختلقوا أمرا بالتواطؤ فيما بينهم. إذًا، فلا مبرر لرفضكم شهادتهم حاسبين إياها أفكارا افتراضية اختلقها عقلهم.

وإذا قال أحد بأننا لا نحسبهم مخادعين ولا ناقصي العقل بل نراهم مخدوعين، وكل إنسان تقريبا معرَّض للخديعة، فجوابه أنه لا شك أن هناك إمكانية أن ينخدع إنسان حكيم أيضا، ولكن الإمكانية لا تعني أن ذلك حدث أيضا على صعيد الواقع؛ أي مجرد القول بإمكانية الانخداع لا يُثبت أن أحدا انخدع حتما، فما لم يثبت أن كافة هؤلاء الناس كانوا مخدوعين فعلا في هذا الموضوع لا يتحقق ما يهدف إليه المعترض. هل من شيء لا توجد إمكانية الخديعة فيه؟ فهل يجوز عَدّ كل شيء في العالم مشكوكا فيه؟ لو كان الحال على هذا المنوال لفُتح باب الأوهام على مصراعيه ولن يبقى شيء يسمو إلى مرتبة اليقين. فالذي يدّعي أن هؤلاء الشهود كلهم، دون أيّ استثناء، مخدوعون في هذا الموضوع، يتحتم عليه أن يُثبت ادعاءه بالأدلة، وإلا فإن رفض شهادة مئات آلاف الصلحاء ذوي العقول الرصينة لمجرد كلام فارغ، هو فعلٌ طفولي فقط لن يهتمّ به عاقل. لقد شهد الشاهدون بكلمات واضحة لا تقبل الشك والريبة، ولم يشهدوا بناء على ما سمعوه من هنا وهناك بل قدموا مشاهدتهم الشخصية، وكل واحد من هؤلاء الصلحاء كان صادقا وذا قوى عقلية وذهنية سليمة ويبلغ عددهم مئات الآلاف على الأقل، وهم منتشرون في كل قوم وبلد وزمان. فالاستدلال في هذه الظروف بناء

على مجرد وجود إمكانية الانخداع بأن الشهادة صارت مشكوكا فيها، ليس إلا جنونا لا يطمئن له إنسان يملك عقلا وقلبا.

الجواب الثاني الذي أريد تقديمه على هذا الاعتراض هو أن هناك مناسباتٍ وظروفا للانخداع، ولا يمكن القول في كل الأحوال أن المرء مخدوع، بل إن إمكانية انخداعِ إنسانٍ ذي عقل رصين وذهن متّقد لا تتعدى أمرين؛ أي حين يكون هناك دخلٌ للرأي أو الخيال وكان الحكم سيصدر بناء على الأدلة. فمثلا هناك إمكانية في مسألة علمية أن يتبنّى شخصان موقفين مختلفَين مع امتلاكهما قوى ذهنية سليمة، لأنه حيثما كان الأمر متعلقا بالاستدلال كانت إمكانية الخطأ واردة نتيجة سوء الفهم، ولكن فيما يتعلق بالمشاهدة فلا إمكانية للخطأ لمن كان يملك قوى عقلية وذهنية سليمة، وخاصة إذا كانت المشاهدة تتعلق بشيء يدّعي المشاهد أنه محل اهتمامه الخاص، ويبقى أمامه ليل نهار. فلو قُبلت إمكانية الانخداع لشخص سليم العقل في هذه الحالة أيضا، فسيُفتح باب الأوهام على مصراعيه ويرتفع الأمن من الدنيا، ولا يبلغ أيّ نوع من المشاهدة مبلغ اليقين. هل يمكن أن ينخدع سليم العقل ليظن أن شخصا غريبا لا يعرفه هو صديقه الفلاني وهو على علاقة صداقة معه منذ عدة سنين؟ أو هل له أن يحسب شخصا لا يعرفه أبا أو أخا له؟ من الواضح أنه لا يمكن أن يتعرض لهذا النوع من الانخداع إلا مجنون أو مختل الحواس والعقل.

وحين نفحص شهادة الأنبياء والصلحاء من هذا المنظور نضطر إلى التسليم بأن شهادتهم تفوق إمكانية الانخداع، لأنهم لا يقولون بأنهم اطلعوا على وجود الله من خلال الأدلة العقلية فقط، بل يدّعون أنهم وجدوه فعلا، وهم على علاقة شخصية معه وهو يكلّمهم ويسمعهم ويجيبهم وينصرهم عند الضرورة بقواه العظيمة، ولا ينسبون مشاهدتهم إلى فترة معينة من عمرهم بل يدّعون أن حياتهم كلها، منذ أن وجدوا الله، قد مضت في هذه المشاهدة، أي أن مشاهدتهم المتواصلة ممتدة على سنوات عديدة، ولم تنقطع إلى أن أصابتهم المنية، وإن نتائجها العملية أيضا موجودة أمام العالم. ففي هذه الحالة لا يمكن لعاقل أن يتصور بأنهم قد يكونون مخدوعين، لأنه إذا قُبلت إمكانية الانخداع في هذه الحالة أيضا فلن تسلم منها أيٌّ من مشاهداتنا، وتصبح جميع علوم العالم سفسطة وأوهاما بحتة. لا شك في أنه يمكن القول في هذه الحالة أن هناك عيبا في عقل الشهود، ولكن لا يمكن عدُّهم مخدوعين بعد التسليم بامتلاكهم عقلا رصينا.

الردّ الثالث على هذا الاعتراض هو أنه لم يُدلِ بهذه الشهادة شخص واحد ولم يُدلِ بها أناس من قوم واحد أو سكان بلد واحد وفي زمن واحد بل أدلى بها مئات آلاف الناس المنتشرين في كل قوم وملة وفي كل زمان، فكم منهم سوف تزعمونهم مخدوعين؟ يمكن أن ينخدع شخص أو شخصان وفي زمن معين، ويمكن أن ينخدع شخص من قوم معين

ولكن ما أغرب هذه الخديعة التي يتعرض لها مئات آلاف الناس من ذوي العقل السليم خلَوا في أقوام مختلفة وفي أزمنة مختلفة وبلاد مختلفة غير مطّلعين على بعضهم بوجه عام! فإن بروز جماعة كبيرة بهذا الشكل لتقديم هذه الشهادة من كل قوم وملة وفي كل زمن وبلد، وإدلاء كل واحد منهم بشهادته مستقلا عن غيره، لدليلٌ لا يمكن لعاقل أن يقبل إمكانية الانخداع فيها.

ملخص الكلام أن الأنبياء والأولياء والصلحاء يقولون علنا أنهم رأوا اللهَ تعالى وعرفوه، ويعترف العالم كله أنهم ليسوا كاذبين أو مخادعين ولا مجانين أو مختلّي الحواس، ومسلَّم به أيضا أن القائل بذلك ليس واحدا أو اثنين أو عشرة أو عشرين وليس عددهم بالمئات أو الآلاف أو مئات الآلاف بل لعله يقع في عشرات الملايين، وهم منتشرون في كل بلد وكل قوم وملة وفي كل زمان، وكل واحد منهم يشهد شهادته الشخصية مستقلا عن غيره تماما، والشهادة ليست من قبيل الشائعات، بل مبنية على مشاهدةٍ شخصية ورؤيةٍ بالعين، وتلك المشاهدة ممتدة على سنوات حياتهم كلها. فكما نبني علمنا وحُكمنا على الشهادة في أمور دنيوية أخرى، كذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقبل شهادتهم ونعترف بأن هذا العالم خاضع لحكم إلـــه وخالق ومالك وعليم وحكيم وقدير ومتصرف لا يخرج عن سيطرته شيء في الدنيا.

لقد قدّم القرآن الكريم مبدأ هذه الشهادة، بل بحسب هذا المبدأ سُمِّي النبي في القرآن الكريم "شاهدا"، فقد جاء فيه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾ (المزمل: ١٦).

باختصار، إن شهادة الرسل والصالحين دليل قوي على وجود الله تعالى بحيث لا يسع عاقلا إنكاره.

لقد أنهيت إلى هنا بفضل الله تعالى بحث الأدلة العقلية التي أردت بيانها عن وجود الله تعالى، وقد رددتُ أيضا بإيجاز على الاعتراضات العقلية المحتملة حول تلك الأدلة. ولكن كما قلت في بداية المقال أنني تحاشيت قدر الإمكان البحوثَ المعقدة والدقيقة وبيّنتُ أمورا واضحة وبارزة بصورة مسلسلة ومفهومة بسهولة، وآمل أن كل متفّهم سليم الفطرة وغير متعود على إثارة الشبهات دون مبرر، سوف يطمئن حتما من بياني الموجز هذا بقدر ما هو ممكن للأدلة العقلية. وكما قلت في مكان آخر في هذا المقال بأن الطمأنينة الحقيقية وعين اليقين لا تتأتى إلا بالتجربة والمشاهدة الشخصية، ولا بد للمشاهدة من مطالعة سوانح حياة الأنبياء والأولياء وسلوك مسلكهم الذي سيأتي ذكره الوجيز لاحقا في محله بإذن الله.

الفوائد العظيمة من الإيمان بالله

والآن أريد أن أقدم على وجود الله بعض الأدلة المبنية على مبدأ أن في الإيمان بالله بعض الفوائد التي لا يمكن الحصول عليها كاملة دون الإيمان به ﷻ. والمعلوم أنه عندما يختار الإنسان شيئا إنما يختاره نظرا إلى مدى فائدته ومنفعته، ومدى تأثيره المفيد للبشر. فإذا ثبت أن الإيمان بالله أمر مبارك ومفيد جدا لبني البشر سيعترف كل عاقل أنه لا يُعقل إهمال عقيدة الإيمان بالله نظرا إلى فائدتها على الأقل إن لم يكن هناك سبب آخر. لا شك أنه لا يمكن الاستدلال من هذه الأدلة على أن هناك إلها في هذه الدنيا أو يجب أن يكون، ولكن يتبين منها لا محالة أن الاعتقاد بوجود الله مفيد جدا لارتقاء النسل البشري وبحبوحته. ولأن اختيار الشيء المفيد واجب، لذا يمكن أن تقدَّم هذه الأدلة بصورة غير مباشرة في تأييد وجود الله. فكما سردتُ في مستهل الأدلة العقلية دليلا وقائيا مبنيا على مبدأ أنه ما دام ليس هناك ضرر من الإيمان بالله وفي إنكاره إمكانيات الخسارة والضرر، لذا فالإيمان بالله هو الأسلم والأقرب إلى الأمن، كذلك في نهاية بحث الأدلة العقلية أريد أن أسرد أدلة وقائية من نوع آخر وهي مبنية على مبدأ أنه ما دام الاعتقاد بوجود الله مفيدا ونافعا، لذا فإن الإيمان هو الأفضل ومرجَّح على أية حال. ولكن لا بد من التذكر أننا لا نبحث هنا عن فوائد الإيمان بالله العظيمة التي يحظى بها الإنسان من حيث الدين

والروحانية؛ مثل إقامة العلاقة الشخصية مع الله تعالى، والحصول على تأييده ونصرته، والتقدم في العلم والمعرفة، والنجاة في الآخرة، وهلمّ جرا، بل سنقتصر هنا على ذكر الفوائد المبدئية التي تتسنى أو يمكن أن تتسنى لبني البشر من حيث العقل بوجه عام نتيجة الإيمان بالله.

الإيمان بالله يخلق عاطفة الوحدة والأخوّة

إن فائدة الإيمان بالله التي أريد بيانها قبل غيرها هي أكبر وسيلة لخلق عواطف الأخوة والوحدة، وهذه العواطف ضرورية ومفيدة جدا لارتقاء النسل البشري وبحبوحته. من الضروري جدا بل لا بد لأمن العالم ولارتقاءِ أقوام العالم وبحبوحتهم من أن يعيشوا بالحب والأُخوّة والتعاون المتبادل، وألا يدَعوا العناد ليتأصّل في قلوبهم ضد بعضهم، بل يجب أن يختاروا طريق المواساة والتضحية والإيثار المتبادل. كذلك يتحتم على الأفراد أيضا أن يخلقوا في أنفسهم روح الحب والأخوة والمواساة والتعاون المتبادل، لأن قيام الأمن في العالم وتقدّم البشرية وبحبوحتها محال دون هذه الروح التي هي ضرورية للأفراد والأقوام على حد سواء. فمن واجب كل مَن يحب الخير لبني آدم أن يتحرى دائما كافة السبل التي من شأنها أن تخلق روح الوحدة والأخوة وتنمّيها، ولا تجد عواطف الحقد والعناد دون وجه حق طريقا إلى القلوب. وكما قلت من قبل، إن عقيدة الإيمان بالله أكبر وأهم وسيلة لهذا الغرض وأكثرها تأثيرا.

الحق أن الاعتقاد بأننا جميعا -على الرغم من خلافات كثيرة وعديدة بيننا- خَلْقٌ ومِلكٌ لله الواحد والقادر والمتصرف والمدبر بالإرادة، وهو ملجؤنا ومأوانا جميعا ولا يخرج شيء في الدنيا عن سيطرته، يخلق في قلوبنا حبا متبادلا ووحدة وأُخوّة لا نظير لها من حيث قوتها ورسوخها ووضوحها. لا شك أن كون المرء مواطنا في بلد معين وعلاقته بقوم معين وعيشه تحت حُكم دولة معينة وما إلى ذلك كلها أمور تُنتج الوحدة والأخوة إلى حد ما، ولكن أعظمها وأهمها هو الإيمان بأن خالقا واحدا خلقَنا وكلنا بمنـــزلة قنوات تتدفق من منبع فيض واحد. وزدْ إلى ذلك أن خالقنا ومالكنا هذا ليس كأبٍ ميت يشرع أولاده الأشقياء أحيانا في الشجار والخصام فيما بينهم، بل إن إلهنا كان وما زال وسيبقى حيّا وموجودا ويراقبنا. هذا الإيمان يجعل مباشرة بني البشر كلهم إخوة، ويقيمهم في صف واحد. ففور نشوء هذا اليقين تتلاشى كافة أنواع الحسد والبُغض والحقد والعداوة، وتحل محلها عواطف الحب والأخوة والمواساة المتبادلة. إن مَثل إيمان الناس بالله كمَثل اعتبارهم أنفسهم أولادا لأبوين. بل الحق أن المرء يضطر بعد الإيمان بالله إلى التسليم بعلاقة العبد به سبحانه وتعالى العميقة والواسعة إلى درجة يستحيل نظيرها في علاقات القرابات الدنيوية.

باختصار، إن الإيمان بالله تعالى أكبر وسيلة لخلق عواطف الحب والأخوة المتبادلة بحيث تهون مقابلها الوسائل كلها. لا شك أن الأفكار

عن البلد أو القوم وما شابهها أيضا تخلُق هذه العاطفة كما قلتُ من قبل، ولكن تأثيرها لا يكون قويا وعميقا مثل العواطف التي يخلقها الإيمان بالله، وثانيا: تؤثر في مجال ضيّق فقط، ومن المحال أن تُخلق مثل هذه الأفكار في النسل البشري كله على حد سواء. وفي بعض الأحيان يظهر تأثيرها للعيان بصورة تكوين الفِرق وحب القوم والحقد والعناد غير المشروع، وهذا مضرّ أكثر من فائدته. إذًا، فالإيمان بالله هو الوسيلة الوحيدة التي تخلُق في بني البشر عواطف الوحدة والأخوة العالمية. وإذا نزعنا فكرة الإله من قلوب الناس تبدأ أفكار تلك الوحدة والأخوة تتلاشى فورا، وتبقى في الناس علاقات سطحية تماما لا يمكن أن تخلق في القلوب علاقة عاطفية أبدا. فكِّروا جيدا فتعلموا أنه إن لم يكن هناك إله بل جاء كل إنسان إلى الوجود من تلقائه، وله كيان حرّ ومستقل، فلا يمكن أن تكون هناك أُخوّة ولا وحدة، بل ستحل محلها الأنانية والحقد والحسد بغير وجه حق، وهذا أكبر سبب لاستئصال الأمن من العالم. الفكرة الوحيدة التي من شأنها أن تخلق في قلوب بني البشر عاطفة الأخوة إنما هي فكرة الإيمان بالله فقط دون سواها. ولا يمكن قطعا أن تُنـــزع هذه الفكرة من الناس، ومع ذلك تبقى العواطف المذكورة كحقيقة حية على المستوى العالمي.

لا أقول بأن كل مَن يدّعي الإيمان بالله يتحلى بعواطف الوحدة والأخوة المتبادلة، لأن هناك مئات أو ألوفا بل مئات آلاف الأشياء التي تؤثر في حالة الإنسان، لذا من الممكن جدا أن يكون قلب مؤمن بالله

خاليا من تلك العواطف الطاهرة نتيجة أسباب أخرى، أو من الممكن أيضا أن تكون فكرة الإله ضعيفة عند شخصٍ ما بحيث لا تقدر على التأثير في قلبه وذهنه بقدر ما هو ضروري لخلق عواطف الوحدة والأخوة. ولكن مما لا شك فيه أيضا أن الاعتقاد بوجود الله هو أهم الوسائل التي تخلق تلك العواطف. وإن لم تَحُلْ موانع أخرى، فالمؤمن بالله يكون حتما أكثر مواساة لبني البشر وأكثر نصحا وحبا لهم، مقارنة مع الكافر به ﷻ. وكل من يؤمن بالله من أعماق قلبه يشهد بأن الإيمان بالله يخلق في قلبه عواطف الأخوة والوحدة بقوة واستمرار، ولا يقتصر الأمر على خلقها فقط بل يبدو تأثيرها على أعماله أيضا. وإذا كان الإنسان معتادا على محاسبة نفسه يشعر قلبه بكل يقين بأنه إذا نُزعت عنه فكرة وجود الله، لا سمح الله، لن تبقى حاله على هذا المنوال مطلقا. الحق أن هذا الاعتقاد يتسبب في خلق الحب والأنس نوعا ما تجاه أدنى أنواع الحيوانات والنباتات والجمادات أيضا، ودونك الإنسان.

هناك مَثل في الإنجليزية يقول: (Love me love my dog) أي إذا كنت تحبني فلا بد أن تحب كلبي أيضا؛ أي ينبغي أن تحب كل ما له علاقة بي. هذا المثل مبني على مطالعة الفطرة الصحيحة تماما. فلو كنا فعلا نؤمن بالله وعلى صلة معه لاستحال تماما أن يخلو قلبنا من حب المخلوقات ولا سيما من حب الإنسان. يمكنني أن أقبل أن الذي يدّعي الإيمان بالله قد يكون كاذبا في ادعائه أو مخدوعا، ولكن لا يسعني القبول ولا للحظة

واحدة —إذ يتنافى مع فطرة البشر– أن يكون قلب الذي يؤمن بالله إيمانا حقيقيا خِلوًا من حب الخلق ومواساتهم. وهذا ما يتبين من مطالعة تاريخ العالم أيضا؛ فالذين كانوا أكثر الناس ثبوتا ويقينا بالإيمان بالله هم الذين يمكن عدُّهم ثابتين على أعلى مرتبة مواساة الخلق والحب لبني البشر، وعندما يضعُف الناس في هذا المجال تضعف فيهم عواطف الحب والأخوة بالقدر نفسه. باختصار، مما لا شك فيه قطعا أن الاعتقاد بوجود الله هو أقوى وأعظم وسيلة لخلق عواطف الوحدة والأخوة في بني البشر وأكثرها يقينا وأسرعها تأثيرا. وما دامت أفكار الوحدة والأخوة ضرورية لإقامة الأمن وتقدم أقوام العالم على خير ما يُرام، لذا يجب على كل عاقل من هذا المنطلق أيضا ألا يترك هذا الاعتقاد المفيد والمبارك يفلت من يده. وهو المراد.

قد تتولد هنا في قلب أحد شبهة أن منكري الله أيضا يواسون بعضهم ويتعاملون بالحب في كثير من الأحيان ويقومون بأعمال الرفاهية والمصلحة العامة، وهذا يوحي بأن الإيمان بالله ليس ضروريا لخلق تلك الأفكار. وجوابها أننا لم ندّعِ قط أن هذه الأفكار لا تتولد بأية وسيلة سوى الإيمان بالله، بل نقول بأن هناك عدة أشياء تكون سببا لها إلى حدّ ما، ولكن نقول حتما بأن هذه العواطف لا تتولد في بني البشر جميعا بصورة كاملة إلا نتيجة الإيمان بالله، والوسائل الأخرى لا تساويه كمًّا وكيفا. إذًا، لا يمكن إبطال ادعائنا هذا إلا إذا أُثبت أن الاعتقاد بوجود

الله إما لا يمكن أن يخلُق عواطف الأخوة والوحدة قط من حيث العقل، أو يُثبت بواسطة التجربة والمشاهدة أن منكري الله أكثر الناس مواساة للبشرية وأكثرهم نُصحا وحبا لهم مقارنة مع المؤمنين به. وما لم يثبت أحد هذين الأمرين لا يحق لأحد أن يستدل استدلالا غير حقيقي -نظرا إلى أن ملحدا أيضا يتحلى بهذه العواطف إلى حد ما- أن الاعتقاد بوجود الله ليس سببا لخلق هذه العواطف، أو أن الإلحاد هو سببها.

لا أستطيع أن أفهم أن الذي يملك قوى عقلية وذهنية سليمة سيقبل للحظة واحدة أن يكون الإلحاد سببا لتلك العواطف، أو لا يمكن أن يخلقها الاعتقاد بوجود الله. هذان الأمران غير طبيعيين وينافيان الفطرة بكل وضوح إلى درجة لا يقبلها عاقل. إن وجود الله -إذا تم الإيمان به بصورة صحيحة- هو النقطة المركزية التي تُجمِع عليها المخلوقات كلها في نهاية المطاف، وفكرة الوحدة تلازم هذه النقطة بحيث يعني غض البصر عنها التسليمَ بوجود هذا الكون بغير مركز أو مصدر. وبمجرد أن تخطر هذه الفكرة بالبال تتلاشى أفكار الوحدة والاتحاد فورا. هل لأحد أن يقول إن كون أولاد أبٍ واحد ليس سببا للوحدة والأخوة بل كون الأولاد لآباء مختلفين هو سببها؟ كلا، ثم كلا. فإذا كان أولاد آباء مختلفين يتحلون بصلح وحب متبادل فلا يسعنا أن نستنتج من ذلك استنتاجا غير طبيعي أن كون الأولاد لأبٍ واحد ليس سبب الأخوة والحب المتبادل، بل سنقول في هذه الحالة أن دوافع أخرى أثّرت وجمعت

أولاد آباء مختلفين على نقطة واحدة، وليس ذلك بتأثير كونهم أولاد آباءٍ مختلفين. كذلك كل عاقل يستطيع أن يقبل بأن أولاد الآباء المختلفين هؤلاء الذين خرطتهم أسباب أخرى في سلك الوحدة والاتحاد على الرغم من هذا الاختلاف، لو كانوا أولاد الأبوين نفسهما لظهر حبهم وأخوتهم المتبادلة بصورة أكمل وأتم. فإذا كان منكرو وجود الله أيضا يحبون بني البشر ويواسونهم في بعض الحالات فلا يمكننا القول أننا لم نعُد بحاجة إلى الاعتقاد بوجود الله، لأن هذه العواطف تظهر بصورة أكمل وأتم من حيث كميتها وكيفيتها إذا كان الناس ثابتين على الاعتقاد بوجود الله إضافة إلى أسباب الوحدة الأخرى، واعترفوا بأنهم مخلوقون من مصدر واحد للخلق، وأيقنوا بأنهم قنوات نبعت كلها من ينبوع واحد للحياة.

يا أعزائي، كيف أؤكد لكم أن الإيمان بالله -بشرط أن يكون إيمانا حقيقيا وحيًّا- يخلق في قلب الإنسان حب بني آدم ومواساتهم وبحرا زاخرا من عواطف الأخوة يستحيل نظيرها في أيّ مكان، ولا حقيقة مقابلها للدوافع الأخرى كلها كمًّا وكيفا.

أما السؤال: لماذا يتحلى الملحد بهذه العواطف؟ فجوابه أن هناك سببين اثنين لذلك بوجه عام. الأول: الملحد يتأثر بتعاليم الأديان الأخرى حوله سواء أشعر بها أم لم يشعر، ويثبت على نتيجة أن مواساة بني البشر وحبهم أمر مستحسن، ولو لم يعمل به لسقط في أعين الناس. وإذا حدث ذلك سوف تتشوه سمعته ويجد الناس فرصة الطعن في معتقداته

وسيقولون بأنه ليست في قلبه عواطف المواساة والأخوة تجاه بني البشر لأنه ملحد، فيحاول قصدا أو بغير قصد منه ألا يتأخر عن المؤمنين بالله في أعمال تُعَد حسنة بالإجماع. أي أن فكرة الاستباق وخوف تشوُّه السمعة يدفعانه إلى كسب هذه الأعمال. ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن تتولد فيه هذه العواطف بصورة أكمل وأعلى، ولا يمكن أن تنشأ فيه عاطفة عفيفة بصورة طبيعية كما تلاحَظ في المؤمن بالله، بل إن مَثل حُبّه كمثل زوجة الأب التي تحب أولاد ضرتها المتوفّاة لكسب رضا زوجها أو تجنبا لسوء السمعة بين أهل الحارة. ولكن الناظرين إليها يفهمون جيدا الفرقَ بين حب الأمّ الطبيعي الذي يتدفق من صدرها مثل ينبوع طبيعي وبين معاملة زوجة الأب الظاهرية؛ والشاذ كالمعدوم. والسبب الثاني هو أن الملحد أيضا يفهم ويشعر مثل بقية الناس بأنه من الضروري لارتقاء النسل البشري وبحبوحتهم والنهوض بالمجتمع أن يعيش الناس بحب وتعاون متبادل ويشتركوا في أمور تؤدي إلى تقدمهم المادي والأخلاقي والعلمي والمالي. فالملحد يحاول أن يخلق في نفسه عواطف من هذا القبيل من حيث كونه مواطنا عاديا في العالم ويميل إلى مثل هذه الأعمال. ولكن من الواضح أن هذا الوضع أيضا ليس إلا تقليدًا وعادة فقط، ولا يستطيع أن يخلق علاقة طبيعية وعاطفية كالتي يخلقها الاعتقاد بوجود الله. والذي يُنشئ في نفسه عواطف مواساة خلق الله والحب تجاههم للأسباب المذكورة آنفا لا يمكن أن يبلغ مبلغ شخص يحب

البشرية ويحافظ على علاقات الأخوة معهم، لأنها جزء من طبيعته لا يتجزأ لكونه خَلق الله. بمعنى أن فكرة الإيمان بالله تخلق في قلب الإنسان هذه العواطف بصورة طبيعية، ولكن في جانب آخر تتولد الأفكار نفسها نتيجة التفكير والتأمل، وتوجه صاحبها إلى هذا الأمر تقليدا وعادة فقط، فشتان بين الثرى والثريا!

ملخص الكلام أن الأسباب التي تخلق عواطف مواساة البشرية في قلب الملحد لا يمكن أن تبلغ به مقاما أعلى وأشرف يمكن أن يناله المرء نتيجة الإيمان بالله. إضافة إلى ذلك يجب التذكر أيضا أن بقية الدوافع التي تتسبب في خلق أفكار المواساة والحب تخص المؤمنين فقط ولا يمكن أن يتحلى بها ملحد بأي حال. والمعلوم أنه حيثما تؤثر أسباب كثيرة تأثيرا جماعيا لخلْقِ نتيجة ما، فسوف تظهر النتيجة بصورة أتم وأكمل حتما. إذًا، الاعتقاد بوجود الله مفيد ونافع من هذا المنطلق أيضا.

إضافة إلى ذلك يجب التذكر أيضا أن دواعي الوحدة، وإن خلقت روح التعاون والمواساة والتضحية إلى حد ما، إلا أنها لا تستطيع أن تخلق عاطفة الأخوة الإنسانية بأي حال، لأن عاطفة الأخوة لا يمكن أن تنشأ إلا إذا قُبل أن فوق الإنسان وجودا خالقا ومالكا وسيدا، لأن الأخوة تعني أننا كلنا مخلوقون من مصدر واحد، لذا مهما نجحت الأسباب الأخرى في خلق عواطف التعاون المتبادل والحب في الأفراد وفي الأقوام فإنها لا تقدر على إنشاء عاطفة الأخوة أبدا. فمن هذا المنطلق أيضا

تثبت ضرورة الإيمان بالله وفائدته. من المعلوم أنه ما لم تتولد في بني البشر عاطفة الأخوة والوحدة فطريا، فلا تكون وحدتهم وتعاونهم الظاهري جديرا بالثقة، بل في هذه الحالة يكون هناك خطر أنه كلما حدث شيء ينافي رغبة أحد ستتغلب عليه أفكار الأنانية وتتحول إلى البُغض والعداوة. لا شك أن أمن العالم سيكون في خطر شديد ما لم يخلق الناس في قلوبهم كحقيقة حيّة إيمانا أن هناك إلها فوقهم وهو خالقهم ومالكهم، لذا عليهم أن يعيشوا بالأخوة المتبادلة، وإذا حدث فيهم خلاف يجب ألا يتركوا العدل والإنصاف من أيديهم بل يجب أن يضحّوا من أجل الآخرين. ولو أُمعن النظر في الموضوع لتبين أن العلاقات التقليدية تكون مبنية على الطمع والجشع فقط، لأن الإنسان يشعر بأنه إن لم يحافظ على علاقات جيدة مع الآخرين لن يعاملوه أيضا بالحسنى، وبذلك سوف تتضرر مصالحه، لذا يختار المرء طريق المعاملة الحسنة تجاه الآخرين كإجراء وقائي، ويعاملهم بالمواساة والتعاون ليعاملوه أيضا بالمثل. ولا شك أن هذا الوضع يسفر عن نتيجة مفيدة ونافعة إلى حد ما، ولكن من الواضح أنه لا مجال للمقارنة بين الجشع والطمع وبين المقام الأعلى والأشرف الذي بسببه تتولد في الناس علاقات الأخوة والوحدة كعاطفة طبيعية وفطرية. والعاطفة الفطرية التي تتولد بصورة الأُخوة لا تتأتى بغير الإيمان بالله مطلقا.

هل الدين مسؤول عن الحرب والقتال في العالم؟

قبل أن أبيّن الفائدة الثانية للإيمان بالله تعالى أرى ضروريا إزالة شبهة يثيرها بعض الناس، وهي أن الدين هو المسؤول عن الحروب والنــزاعات والفتن والفساد وتكوين الفِرق بين الناس، لأنه يضيّق آفاق الناس ويقلّل من رحابة صدورهم، وهذا الأمر سمٌّ زعاف في سبيل إقامة الأمن وارتقاء بني البشر وبحبوحتهم، لذا يجب أن يسعى الناس للتحرر من قيود الدين لتتولد فيهم رحابة الصدر ويوسعوا الآفاق فيعيشوا بالحب والأمن فيما بينهم. ولأن الدين ينشأ نتيجة فكرة وجود الله، لذا علينا أن نتخلى عن إله تعيث فكرة وجوده فسادًا وفتنةً في العالم. هذا هو الاعتراض الذي تثيره الفئة المثقفة في هذه الأيام ويركّز عليه كثيرا المفكرون الأوروبيون أيضا، ولكن إذا تأملنا في الموضوع أكثر لن يخفى علينا أن هذا الاعتراض نتج عن قلة التدبر. وقبل الرد عليه ردا حقيقيا أريد أن أبيّن أننا لو اعترفنا بصحة هذا الاعتراض أيضا وقبلنا أن نتيجة الدين هي كما يقال، فمع ذلك لا يمكن الاستدلال منه ضد وجود الله تعالى. أي لا يثبت من ذلك أنه ليس للعالم خالق، بل أكثر ما يمكن أن يثبت من ذلك هو أن فكرة وجود الله تتسبب في ضيق الآفاق والإخلال بالأمن. ولكن إذا كان الله موجودا فعلا فلا يحق لنا أن ننكر وجوده أيا كانت نتيجة الإيمان به. فإذا ثبت وجود الله لا يسعنا إنكاره، وإن كان الدين سببا للفتنة والفساد.

ولكن الحق أن القول بأن الدين يسبب الفتنة والفساد خاطئ وباطل بالبداهة، والذين استنتجوا ذلك فقد أخطؤوا خطأ فادحا.

لقد أثبتّ قبل قليل أن فكرة وجود الله تعالى تخلق في قلوب الناس طبع وفطرة عواطف الحب والأخوة المتبادلة، وتمحو جميع أنواع التعصب القومي والوطني والعرقي، وتقيم الأخوة العالمية، بل الحق أن قيام الأخوة العالمية دون الإيمان بالله مستحيل تماما. فكيف يمكن إذًا أن يكون الاعتقاد بوجود الله سببا لأيّ نوع من الفتنة والفساد، إذ لا علاقة طبيعية للفتنة والفساد وضيق الآفاق بفكرة وجود الله. ولا يقبل العقل البشري ولا للحظة أن فكرة الإله- الذي لا يحسبه الإنسان إله قوم معين أو بلد معين أو عرق معين، بل يؤمن به إلها مشتركا بين بني آدم كلهم وخالقهم ومالكهم- تسفر عن ضيق الآفاق والتعصبات القومية والحرب والقتال والفُرقة. لا يسع عاقلا أن يجد علاقة السبب والمسبب الطبيعية بين هذين الأمرين. فإذا كان الدين سبب الفتنة والفساد وضيق الآفاق والتعصبات الملّية، فيجب علينا أن نبحث عن سببه في مكان آخر ونتأمل لماذا يحدث ذلك، وألا ننسبه إلى الاعتقاد بوجود الله ظلما وجَورا وبصورة غير طبيعية.

الحق أن الدين قُدِّم لسوء الحظ أمام المعترضين بصورة ليس فيها منه إلا الاسم فقط. هذا الاعتراض خاص بالزمن الراهن، ومن سوء الحظ أن كافة أتباع الديانات قد ابتعدوا في العصر الراهن عن حقيقة أديانهم، ولا

نجد حتى دينا واحدا أتباعه قائمون على حقيقة دينهم، بل الحق أن صورة الدين قد مُسخت بشدة بتحريف الناس، والنتيجة هي أن ذوي الطبائع المتحررة وجدوا فرصة الاعتراض على الدين، بينما الحقيقة أن الدين هو أكبر وأمثل الوسائل لإقامة الأمن في العالم ولتنوير أذهان البشر، وكلما ثبت الناس على حقيقة الدين بدأت أفكار الفتنة والفساد والحرب والقتال غير المبررة تتلاشى من صدورهم، ونشأت فيهم سعة الآفاق ورحابة الصدر. اقرؤوا تاريخ أيّ دين وخذوا مثلا الزمن الذي كان أتباعه قائمين على حقيقته سترون كم كانوا متحلين بسعة الآفاق ورحابة الصدر! وكيف كانوا يواسون بني البشر ويبحثون عن الأمن والصلح! ثم خذوا مقابل ذلك من تاريخ الدين نفسه زمنا ابتعد فيه أتباعه عن حقيقته وكانوا ينتسبون إليه اسما وتقليدا فقط، وسترون فيهم ضيق الآفاق وقلة رحابة الصدر والتعصب القومي دون مبرر والاقتتال على خلافات بسيطة والميل إلى الإخلال بالأمن. أدّعي ذلك بحق كل دين وملة دون خوف التفنيد وأنا واثق من أن الذي يبحث في هذه المسألة من حيث التاريخ بأمانة سوف يصل إلى نتيجة ذكرتُها آنفا.

أنا مسلم بفضل الله تعالى وأرى عَدَّ نفسي من أدنى خدام النبي ﷺ –فدته نفسي– أكبر فخر لي، ولكن لا يسعني إلا الاعتراف متأسفا بأن الذين يسمون أنفسهم مسلمين أيضا مصابون في هذه الأيام مثل بقية الأقوام بمرض خطير وفتاك يسمّى ضيق الآفاق، وقد غلب التعصبُ

القومي على أعلى وأشرف عواطفهم الإنسانية، وقد اعتادوا على النـــزاع والاقتتال على أتفه الأسباب والميل إلى الإخلال بالأمن بإنشاء خلافات سخيفة، ولكن هل الإسلام مخطئ في ذلك؟ كلا، بل حين كان المسلمون قائمين على الإسلام وكانت روح الإسلام حية فيهم لم تُلاحَظ فيهم هذه التصرفات، بل كانوا متنورين وذوي آفاق واسعة ومواسين لبني آدم ويحبون الأمن والصلح ويضحون من أجل الآخرين ويؤثرونهم على أنفسهم، ونوّروا العالم كله بأشعتهم النورانية، ولكن لم تبق الآن معنا إلا أنقاض تلك البناية الشاهقة.

والمبدأ نفسه ينطبق على الأقوام الأخرى. عندما استتبت المسيحية في بداية أمرها ضرب أتباعها أمثلة عليا للتضحية ومواساة بني البشر وسلكوا مسلك الأمن والصلح، ولكن عندما ابتعد المسيحيون عن تعليمها وروحها الحقيقية عاثوا في الدنيا فسادًا وظلمًا وتعصُّبًا دينيًّا دون مبرر، ونفّذوا المجازر إلى حد ترتجف لهولها الأوصال. فإن تاريخ زمن حركة الإصلاح الديني يكفي دليلا على ادّعائي هذا. ولعله لا يوجد في سوانح أيّ قوم ضيق الآفاق والتعصبات غير المبررة وتقويض الأمن والمذابح بقدر ما قام به أتباع المسيح الناصري عليه السلام المزعومون في زمن حركة الإصلاح الديني.

إن تاريخ الهندوس والسيخ وأتباع الأديان الأخرى أيضا يقدم لنا المشاهد نفسها تقريبا بل في بعض الحالات يلاحظ في الهندوس والسيخ

هذا المشهد أكثر ترويعا. وكل هذه الأمثلة تثبت أن التهمة التي توجَّه إلى الدين لا تقع عليه في الحقيقة، بل هي نتيجة الابتعاد عن روحه. ولكن لما ابتعدت أقوام العالم كلها عن روح الدين لسوء الحظ وجد قصيرو النظر والعيابون فرصة مواتية للاعتراض بأن الدين يسبب ضيق الآفاق وتقويض الأمن.

لذا بعث الله القدوس، الذي لا يريد أن يرى العالم واقعا في هوة الضلال المظلمة، في العصر الراهن بكمال لطفه وفضله عبده الطاهر أي سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني مسيحا ومهديا موعودا لهداية الخلق لتُفنَّد جميع الاعتراضات التي وُجّهت إلى الدين بسبب سوء أعمال المنتمين إليه، وكانت سببا ليسيء خلق الله الظنّ به ﷻ، وكانت تفسح في الدين مجال العنف والجبر وضيق الآفاق. فقد أزيلت تلك الاعتراضات كلها ليعرف الناس إلـــههم ومالكهم السماوي ويصبحوا إخوةً مجددا. ولكن من المؤسف حقا أن الناس يعاملون خدامَ هذا المصلح الرباني وحملة المصباح السماوي أيضا معاملة الجهل والعناد كعادة الناس وشيمتهم منذ القِدم. فقد رُجم وقُتل في كابول ظلما عديد من الأحمديين الأبرياء لمحض كونهم أحمديين. وبذلك هيأ الذين يسمّون أنفسهم مسلمين للأغيار فرصة الاعتراض على الإسلام ليقولوا بأن الإسلام يعلّم العنف وضيق الآفاق والعناد والظلم والجَور. الأسف كل الأسف! يقول شاعر فارسي ما تعريبه: "لا أشكو من الأغيار، بل كل ما فعلوه بي فقد فعله صديقي".

ملخص الكلام أن الظن بأن الدين سبب لضيق الآفاق والحروب والاقتتال قد نشأ نظرا إلى حالة الزمن الراهنة، وإلا فلو دُرِس تاريخُ الأديان العالمية، لتبين بصورة أجلى من الشمس في رابعة النهار أنه كلما ثبت الناس على روح الدين الحقيقية نشأت فيهم سعة الآفاق والتنوير الذهني وحب الأمن وروح التضحية والتسامح أكثر من غيرهم. ولو أمعنّا النظر في الموضوع من حيث التعليم لما وجدنا دينا قط -بغض النظر عن التفاصيل- لا يعلّم حب الأمن والصلح وسعة الآفاق من حيث المبدأ. إذًا، إن نزعة ضيق الآفاق والفتنة والفساد تنتج عن إهمال ذلك التعليم وليس نتيجة الالتزام به قط.

الرد الثاني على هذه الشبهة هو أنه إذا تأملنا لوجدنا مستحيلا عقليا أيضا أن يدرك أحد حقيقة الدين والغاية المتوخاة منه ثم يكون ضيّق الآفاق ويرتكب الفتنة والفساد. إن مفهوم الدين ليس كمفهوم الوطن أو القوم حتى يكون محدودا في الحدود الجغرافية ومقيدا في القيود العِرقية، وألا يوسِّع المرء دائرته، بل الدين اسمٌ للمعتقدات والأفكار ودستور العمل، يعتنقه المرء في حقوق الله وحقوق العباد ويسعى إلى توسيع دائرتها حاسبا إياها حقا وصدقا. فالدين صرحٌ أبوابه مفتوحة ويمكن أن يدخلها كل إنسان أيا كان انتماؤه الديني والقومي والوطني، بل كل ملتزم بالدين يدعو الآخرين إلى الدخول فيه. فكل من يريد أن يحقق الهدف من الدين حقيقة لا يمكن أن يرتكب ما ينم عن ضيق الآفاق أو يسبب الفتنة

والفساد، بل على النقيض من ذلك سيبذل قصارى جهده في أن يستميل الآخرين إلى أفكاره بحُسن خُلقه وتبليغ دعوته السلمية والموعظة الحسنة، وألا يرتكب ما يمكن أن يحول دون قبول الناس دينَه. فمن المحال تماما أن يرتكب ما ينم عن ضيق الآفاق ويسبب الفتنة والفساد من كان قائما على حقيقة الدين ويفهم الهدف والغاية منه.

الرد الثالث على هذا السؤال هو أنه إذا كان الدين سببا للحرب والقتال أحيانا، أفلا تسببها أشياء أخرى؟ هناك عشرات الأمور في العالم تتسبب في الحرب والفساد بين الأقوام والأفراد، فهل ستُترك كلها بناء على ذلك. فهناك الخلافات الدولية والسياسية والقضايا القومية والتجارية والاقتصادية وغيرها من عشرات الأمور التي تسبب القتال والحروب بين أقوام العالم، كذلك هناك مئات الأسباب لخلق الفتنة والفساد بين الأفراد لا يسع عاقلا إنكارها، فهل ستُترك كل تلك الأشياء لأنها تسبب فقط تقويض الأمن أحيانا؟ لو فعلنا ذلك لكان معناه أن يترك المرء كافة مجالات الحياة ويختار الرهبانية حتى لا يتعامل مع الناس ولا يحدث الخلاف والشقاق.

اقرؤوا تاريخ العالم تروا أن السبب وراء معظم الحروب في العالم لم يكن الخلاف الديني قط، بل كان السبب هو الخلاف الوطني أو السياسي تارة، وتارة أخرى كان الحافز القومي، وأحيانا أخرى ظهر الأمر الاقتصادي أو التجاري للعيان أو سبب آخر من هذا القبيل. الحرب

السابقة التي اندلعت في أوروبا بل في العالم كله لم يكن السبب وراءها قضية دينية قط، بل نُفّذت هذه المجزرة العالمية التي لا نظير لها في تاريخ العالم من حيث سعتها ودمارها بسبب خلاف سياسي. فهل ستتركون السياسة أيضا لأنها تكون سبب الحرب أحيانا؟

فيا أحبائي، هذه الأفكار كلها ناتجة عن الجهل والغباء، وليست للدين علاقة خاصة بضيق الآفاق أو الحرب والقتال، بل كما تصبح أمور أخرى في العالم سببا لنقض الأمن بين الأقوام والأفراد، كذلك تصبح الخلافات الدينية أيضا -وإن كانت أقل من تلك الأمور بكثير- سببا لذلك، ومع ذلك ففي الدين مزية تكمن في أنه يكون سببا للإخلال بالأمن عندما يبتعد الناس عن حقيقته فقط. كما بادر اليهود والمشركون العرب في زمن نبينا ﷺ بالحرب ضد المسلمين الأبرياء بمحض الظلم والعدوان غير عارفين بحقيقة الدين وهدفه، فاضطر المسلمون إلى الرد على السيف بالسيف للدفاع عن أنفسهم ولإقامة الأمن، وهذا الوضع أدّى إلى نشوب الحرب في البلاد، وكان المسؤولون عنها تماما -وهم المشركون واليهود- غير عارفين بحقيقة الدين وغايته، أما المسلمون فكانت حربهم لإقامة الأمن فقط.

باختصار، إنها لَفكرةٌ تافهة وسخيفة تماما تلك القائلة أن الدين سبب الحرب والفتنة والفساد. بل الحق أن الدين هو القوة الوحيدة التي من شأنها أن توصد باب الفتنة والفساد كما هو حقه. والبُعد عن حقيقة

الدين يتسبب في نقض الأمن وخلق الفتنة والفساد. ولكني أقول: لو افترضنا جدلا أن الخلافات الدينية هي السبب وراء الحروب والقتال، فمع ذلك لا يحق للمعترضين أن يتقاعسوا عن الدين بناء على ذلك؛ لأنه كما سبق ذكره آنفا توجد هناك أشياء كثيرة في العالم تتسبب في نقض الأمن والحرب والقتال، وليس هناك عاقل يمكن أن يفكر في تركها بناء على ذلك. الحق أن كل خلاف يساء استخدامه سوف يسفر عن نتائج سيئة، وهذا لا يخص الدين فقط بل إن سوء التعامل مع الخلافات السياسية والوطنية سوف يسفر عن الحرب، وسوء التعامل مع الخلافات القومية سيُنتج الحرب، وسوء التعامل مع الخلافات الاقتصادية والتجارية يؤدي إلى الحرب، كذلك إن سوء التعامل مع الخلافات الدينية أيضا يتسبب في الحرب، والفرق الوحيد هو مع أن سوء استخدام الأشياء الأخرى يسبب الإخلال بالأمن، ولكن استخدامها الصحيح لا يؤدي إلى إقامة الأمن وخلق عواطف التعاون المتبادل والأخوة بوجه خاص. ولكن إذا بقي الدين بصورته الصحيحة واستخدمه الناس استخداما سليما سيخلق عواطف الأمن والتعاون والوحدة والأخوة والمساواة بوجه خاص. هذا هو الحق، فاقبلوه إن شئتم.

الجواب الرابع على هذه الشبهة هو أن المعترضين أخطؤوا في فهم معنى الدين أيضا، ولعلهم يظنون أن الدين اسم للاعتقاد بوجود الله فقط، وكلما ترك أحد هذا الاعتقاد فكأنه ترك الدين، أي أنهم يزعمون أن

الدين شيء يمكن للإنسان تركه أيضا، إن تارك الاعتقاد بوجود الله يسمّى ملحدا في العُرف، ولكن إذا تأملنا في معنى الدين لتبين أن الدين جزء من حياة الإنسان لا يتجزأ، ويستحيل على الإنسان تماما أن يتحرر من قيد الدين كليا، لأن الدين في الحقيقة اسم للأفكار والمعتقدات ودستور العمل الذي يتبناه الإنسان في حياته عن الموت والحياة. فمن الواضح أن تخلي أحد عن الدين من منطلق هذا المعنى من المحالات العقلية، حيث أن كل شخص يعتصم بأسلوب معين في حياته. فما يمكن قوله هو أننا لا نحب دينا كذا وكذا ولكن من المستحيل قطعا أن يتحرر الإنسان من قيد الدين كليا. فما دام الإنسان حيا فلا بد له من أن يتبنى أفكارا ومعتقدات عن فلسفة الحياة والممات، ولا بد من أن يتبنى دستورًا للعمل في أعماله وأفعاله، وهذه الأفكار والمعتقدات ودستور العمل يُسمّى دينه. أكثر ما يمكن لأحد فعله هو أن ينحرف عن الأديان المعروفة والموحى بها ويختلق لنفسه طريقا جديدا من عنده، ولكن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى بغير دين في الحقيقة بحسب تعريف الدين الذي ذكرته آنفا، بل أيّ طريق يختاره لنفسه يكون دينه. إذا كان أحد يؤمن بالله فهذا دينه، ومن أنكره فإنكاره أيضا جزء من دينه.

باختصار، الدين اسم لدستور العمل في الحياة والمعتقدات والأفكار التي يختارها الإنسان. ومن الواضح أنه لا يمكن لأحد أن يتحرر من مفهوم الدين من منطلق هذا المعنى. يمكنكم أن تتحرروا من الإسلام أو من

المسيحية أو الهندوسية والبوذية ومن كل دين معروف وموحى به، ولكن لا يمكن أن تتحرروا من الدين كليا، بل لا بد من أن تختاروا دينا على أية حال، وإن كان من اختلاق ذهنكم. فلا بد إما أن تؤمنوا بالله أو تنكروه، وإن آمنتم به فلا بد أن تعترفوا فيه ببعض الصفات أيضا، وإن كفرتم به فلا بد من أن تتبنّوا اعتقادا ما عن بداية هذا العالم وبداية الحياة. كذلك لا بد لكم من أن تختاروا أسلوبا معينا في التعامل مع مختلف الناس مثل الأصدقاء والأعداء والأقرباء وغيرهم، ومع الزوج والخادم والسيد، والملك والرعية وهلمّ جرا. وهذه الأفكار ودستور العمل يسمّى دينكم.

فزبدة الكلام أن الدين يلازم الحياة في كل الأحوال، ولا يمكن لأحد أن يتحرر كليا من قيده. وما يقال أحيانا أنه ليس لفلان دينٌ فهذا لا يعني إلا أنه لا يتّبع دينا معروفا وموحى به، بل قد اختلق دينا لنفسه بنفسه، وإلا فليس هناك شخص بغير دين.

والآن، لما تبين أن الاستقلال عن قيد الدين من المستحيلات، يصبح اعتراض الملحدين أنه ما دام الدين يؤدي إلى الحرب والقتال وضيق الآفاق، لذا يجب على الإنسان نبذُه كاعتراضٍ سخيف ومضحك لا يجوز أن يتفوه به عاقل.

وإن قيل بأن المراد من هذا الاعتراض هو أنه يجب على الإنسان أن يتحرر من الأديان المعروفة والموحى بها، فهذا أيضا جهلٌ، لأن البحث لا يدور هنا حول دين معين يُحدث الفتنة والفساد، بل القضية هي أن الدين

مدعاة للفتنة والفساد بوجه عام، وإلا فلو كان دينٌ معين مدعاة للفتنة ونقض للأمن فعلا فلا نقول بأن تختاروه، بل ما نقوله هو أنه ليس صحيحا القول بأن الدين بوجه عام هو سبب الفتنة والفساد والحروب. وإذا كان ذلك صحيحا أيضا فمع ذلك إن إثارة قضية التحرر عن الدين أمر سخيف ولغو تماما، لأنه لا يسعنا التحرر منه بأي حال.

إضافة إلى ذلك لو تحرر الناس من اتّباع الأديان على سبيل الافتراض، فسوف تبقى الأفكار الدينية فيهم، لأنه ليس ممكنا قط أن يتبنى الناس جميعا لأنفسهم، بعد تحررهم من الدين، طريقا واحدا مبنيا على الأفكار والمعتقدات المتماثلة تماما. وفي هذه الحالة سوف يزداد في العالم حتما عدد الأديان كثيرا عن عددها الحالي، أي أنه إذا كان اليوم في العالم خمسة أو عشرة أو عشرون دينا فقط، فلعل عددها يبلغ عندئذ إلى الألوف بل مئات الألوف، ولا غرابة لو وصل إلى عشرات الملايين، لأن كل شخص سيختلق لنفسه دينا على هواه. ومن الواضح أن الخلافات أيضا تكثر بوجه غير عادي مع كثرة الأديان، وستكون النتيجة أن الدماء ستُسفك باسم الدين في هذه الحالة كل يوم، بينما يحدث ذلك حاليا على فترات متباعدة.

وإذا قيل بأن السبب وراء الفتنة والفساد وضيق الآفاق هي الأديان الموحى بها فقط، التي نقطتها المركزية هي الاعتقاد بوجود الله والقيامة والجزاء، لأن كل فرقة تحسب نفسها ناجية وتحسب غيرها غير ناجية ومن

أهل جهنم، وبالنتيجة تنشأ عواطف الكراهية والاستخفاف ببعضها، ولكن الأديان غير الموحى بها التي يخلقها الإنسان بالتأمل والتدبّر لا تؤدي إلى الاستخفاف والكراهية المتبادلة، وخاصة إن لم تكن فيها فكرة وجود الله وفكرة الجزاء. فجوابه أن هذه الشبهة تنافي فطرة الإنسان أيما منافاة. عندما يرى المرء أحدا في خطر تكون النتيجة الطبيعية والفطرية أن تنشأ في قلبه عواطف المواساة تجاهه، ويحاول إنقاذه، ومن غير الطبيعي تماما أن تنشأ في هذه الحالة عواطف الكراهية والاستخفاف. فإذا كانت الفِرق المختلفة تحسب نفسَها ناجية والأخرى غير ناجية فيجب أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك أن يتألموا لغيرهم ويبذلوا أقصى الجهود لإنقاذهم من الهلاك، وإن نشوء الكراهية والاستخفاف في هذه الحالة مستحيل. فمثلا إذا وجد أحد شخصا يغرق أمام عينيه، فهل يمكن أن يخطر بباله أن هذا الشخص جدير بالكراهية والاستخفاف ويجب أن أعاديه، أم سيقفز في الماء فورا ويحاول إنقاذه؟ فإذا بقي هذا الناظر على الشاطئ دون أن يسعى لإنقاذ الغريق على الرغم من قدرته على ذلك بل فرح على غرقه وحسبه جديرا بالكراهية والاستخفاف وحاول إضراره أكثر بدلا من إنقاذه فسيُعَدُّ منحطًّا عن مستوى الإنسانية وممسوخ الفطرة.

كذلك الذي يعُدّ دينه طريق النجاة ومع ذلك يستخف بالآخرين ويكرههم ويستعد لإلحاق الضرر بهم، فهو يرتكب عملا غير طبيعي. ولا يمكن القول عن شخص مثله أنه قائم على حقيقة الدين. لذا نرى أن

الذين لا تلاحظ فيهم حقيقة الدين ولا توجد فيهم روحه هم الذين يرتكبون أفعالا غير طبيعية على هذا النحو. أما الذين يدركون حقيقة الدين فيواسون السالكين على المسلك الخاطئ ويعملون دائما على إنقاذهم من الهلاك والضلال، ولا تخطر ببالهم فكرة الكراهية والعداوة أبدا.

إضافة إلى ذلك لم يفكّر المعترضون أن الإنعامات والأفضال الدينية ليست كالمال المادي حتى يخاف صاحبها من أنه سيُحرم منها إذا وجدها غيره، بل هي تزداد وتنمو نتيجة تعليمها الآخرين، لذلك يسعى الملتزم بالدين دائما أن يقبل الآخرون أيضا دينه ويرثوا الإنعامات. إذًا، لا مجال لكراهية أحد من دين آخر ظنًّا أنه قد يقلل من إنعاماته.

ملخص الكلام أنه لا يمكن أن يكون الدين أو الاعتقاد بوجود الله سببا لضيق الآفاق والفتنة والفساد بأي حال. وإذا كان أحد على الرغم من ادعائه الالتزام بالدين والإيمان بالله يتسبب في ضيق الآفاق والفتنة والفساد باسم الدين ولا يكنّ في قلبه عواطف حبّ خلق الله ومواساتهم بل يضمر لهم الحقد والعداوة، أو هو ضَيِّق الآفاق ولا يتحلى برحابة الصدر، فلا يمكن مطلقا أن يُعَدّ ملتزما بالدين حقيقة، وكيانه خِلو من روح الدين المقدسة حتما كخلوّ البيت الخرب من أهله. وإن ادعاءه الإيمان بالله ليس إلا ادعاءً فارغا تعوزه الحقيقة. ولكن لسوء الحظ يوجد مثل هؤلاء المفتقرين إلى روح الدين بكثرة في كل ملّة في العصر الراهن،

والإسلامُ ليس استثناء من هذه الظاهرة، ولهذا السبب وجد المعترضون فرصة الاعتراض على الإسلام. ولكن الذي يدرك حقيقة الدين بوجه حق لا يمكن أن يكون ضيق الآفاق وسبب الفتنة والفساد أبدا.

صحيح أنه يمكن أيضا أن يتأذى البعض على يد المؤمن الحقيقي بالله أحيانا، ولكن مَثل ذلك الإيذاء كمَثل طبيب مشفق يُجبر مريضه على تناول دواء مُرّ أو على الحِمية المؤلمة ظاهريا. لا شك أن شخصا روحانيا أيضا يشترك في الحرب ضد الآخرين أحيانا، ولكن مَثله كمثل جراح لطيف يبتر عضو مريض يعرف أن عدم بتره يهدد حياته. فهو يضحي بقلبٍ مواس ولطيف بشيء أدنى لإنقاذ شيء أعلى وأهم، وجميع العقلاء يستحسنون فعله هذا.

فيا أعزائي، كيف أؤكد لكم أنه عندما يرفع رسل الله وعباده الأطهار يدهم ضد شخص أو حزب فلا يكون في قلوبهم النقية شيء سوى هذه النية المقدسة، وتكون قلوبهم مليئة دائما بحب بني آدم ومواساتهم مثل ينبوع زاخر؟! هذه حقيقة حية وأبدية تثبت مصداقيتها في عباد الله الأطهار في كل زمان. ليتكم تفهمون!

بيان اعتراضي

قبل الإسهاب في هذا الموضوع أريد القول ضمنيا أني بدأت في تأليف هذا المقال في حزيران عام ١٩٢٥م، وكتبت الجزء الأول منه في صيف

العام نفسه في "منصوري" وقد اضطررت إلى السفر إليها بناء على نصيحة الأطباء. وعندما عدتُ إلى قاديان كتبت الجزء المتبقي ببطء في أواخر عام ١٩٢٥م وجزءا منه في عام ١٩٢٦م. ثم ظهرت للعيان ظروف معينة فبقي المقال على حاله منذ ذلك الوقت وما زال غير مكتمل إلى اليوم، أي في بداية تشرين الأول عام ١٩٢٧م، لأن واجباتي الجديدة لم تسمح لي بالتوجه إليه. ولكن خطر ببالي الآن، وكذلك قال لي بعض الأصدقاء أنه يجب أن يُنشر المقال بقدر ما تم تأليفه إلى الآن دون انتظار اكتماله بصورته النهائية. فسأوجز البحث الجاري حاليا الذي يتعلق بالأدلة العقلية على وجود الله تعالى في بضع صفحات، وسأسلّم المقال إلى الناشر داعيا الله ﷻ أن يجعله سببا لهداية الناس وإصلاحهم، ويوفقني لإكمال الجزء المتبقي منه، آمين.

الحق أنني كنت أنوي أن أناقش في هذا المقال بإيجاز جميع الأسئلة التي تثار حول ذات الله القدوس وصفاته، أي أسجل فيه كِلا النوعين من الأدلة على وجود الله تعالى، أي التي لها علاقة مع الاستدلال العقلي والمشاهدة، وأناقش صفاته ﷻ ومنافع إنشاء العلاقة معه وطرق إنشائها، وأن أذكر أيضا علامات تلك العلاقة. ولكن كما يعرف القراء بأنني لم أكمل إلى الآن حتى الجزء الأول من السؤال الأول المتعلق بالأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أي لم يكتمل نصف السؤال أيضا من الأسئلة الخمسة. وما يؤسفني أكثر هو أن الجزء الأهم من المقال هو ذلك الذي

يتعلق ببحوث متبقية، ولكني أهدي إلى القراء ما هو جاهز حاليا، وأدعو الله أن يوفقني لإكمال البقية، وهو قادر على أن يجعل ما تيسر منه إلى الآن مدعاة لهداية الناس.

الاعتقاد بوجود الله يمنع ارتكاب السيئات

الفائدة الأخرى الكبيرة من الإيمان بالله التي يمكن أن يستفيد منها العالم بوجه عام هي أنه يمنع الإنسان من ارتكاب السيئة. من الواضح أن فكرة الامتناع عن ارتكاب الذنب يمكن أن تتولد في الإنسان لثلاثة أسباب. الأول: أن يفكر أنه إذا امتنع عن السيئة سينال مقابله نفعا أو إنعاما. الثاني: أنه إذا ارتكب ذنبا سيصيبه ضرر أو يواجه عقوبة. والثالث: أن يرتقي علم أحد ومعرفته إلى حد أنْ يجتنب السيئةَ نظرا إلى شناعتها. ليس هناك مانع آخر سواها لمنع المرء من ارتكاب الذنب والجريمة. علمًا أن المانع الثالث من الموانع المذكورة آنفا يتعلق بالخواص من الناس، أما عامة الناس فلا يتأثرون بأفكارٍ من هذا القبيل. مع أن المؤمن بالله يتفوق على غير المؤمن به حتما من حيث الاستفادة من المانع الثالث أيضا، أما المانعان الآخران فهما من النوع الذي فيه دخلٌ كبير حتما للاعتقاد بوجود الله، لأن الذي يؤمن بالله يوقن أيضا إلى جانب ذلك أنه إذا ارتكب سيئة سيسخط الله عليه، وبالتالي سوف يصيبه إيذاءٌ أو يواجه عقوبةً، أما إذا اجتنب السيئة فسيرضى الله عنه، ورضاه سيكون مدعاة لفائدته ويُكرمه الله بالإنعام والإكرام. فكل من يؤمن

بالله بناء على هذه الفكرة ولا يكون إيمانه رياءً فقط سيجتنب الذنب أكثر من غيره حتما. ومن المستحيل تماما أن يتجاسر على ارتكاب السيئة مع اعتناقه الاعتقاد بوجود الله تعالى. بل كلما قَوِيَ إيمان المرء وصار كاملا اجتنب الذنب والجريمة وكرهها بالقدر نفسه.

إضافة إلى ذلك، يمنع الاعتقاد بوجود الله الإنسان من ارتكاب السيئة من منطلق آخر أيضا وهو أن كل من يؤمن بالله وبأنه موجود في كل مكان ويراقب الناس ويعلم الغيب، وإذا كان إيمانه مبنيا على شيء من الحقيقة، وليس موروثا أو رياءً فقط، فلا بد أن تمنعه من ارتكاب السيئة فكرة أن إلـــهه يراه. من الواضح أنه من المستحيل أن يرافق رجل من رجال الشرطة كل شخص وفي كل حين، لذلك لا تنجح سياسة البلاد نجاحاً كاملا، مهما كانت أعلى وأكمل، في وضع حد للجرائم. بل الإيمان بالله وحده يعمل في قلب كل إنسان كرقيب نشيط دائما، لأنه لا يمكن لأحد أن يتجاسر على ارتكاب السيئة مع إيمانه بالله تعالى بشرط أن يكون في إيمانه شيء من الحقيقة. ولو ارتكب شخص مثله الذنب في حالة الغفلة لدفعه إيمانه إلى الندم فورا وحذّره من ارتكابه في المستقبل.

باختصار، الاعتقاد بوجود الله وسيلة قطعية ويقينية للمنع من الذنب والجرائم، وهذا ما لا ينكره عاقل. هذه فائدة عظيمة يمكن أن تصيب العالم بسبب هذا الاعتقاد بل ظلت تصيبه على مرّ العصور.

إذا اعترض أحد بأن المؤمنين بالله أيضا يرتكبون السيئات، فجوابه أنه مما لا شك فيه أن هناك أناسا من المؤمنين بالله أيضا يرتكبون السيئات أحيانا، ولكن إذا تأملنا في الموضوع لتبين أنه لا يفعل ذلك إلا من كان إيمانه ضعيفا ومشوبا بالكسل، أو كان بالاسم فقط، حيث ورثه من الآباء وليس فيه روح الحياة. أما المؤمنون في الحقيقة فيجتنبون الذنوب إلى حد كبير. وإذا صدرت منهم زلَّةٌ أحيانا فتكون مؤقتة ويتداركون أنفسهم بعدها فورا ويحذرون. وهذا دليل آخر على أن الاعتقاد بوجود الله يمنع من الذنب، وإلا فلا يوجد سبب لاجتناب أقوياء الإيمان السيئاتِ أكثر من ضعفاء الإيمان. وكذلك إذا كانت ظروف الناس الأخرى كلها متماثلة، فكلما كان أحد متقدما في الإيمان والمعرفة كان بريئا من الذنب بالقدر نفسه.

باختصار، من الحقائق البيّنة التي لا يمكن إنكارها، وقد ثبت صدقها على مرّ العصور، أن الإيمان بالله، بشرط أن يكون فيه شيء من الحقيقة، أفضل وسيلة لدرء السيئة من العالم، وهو المراد. ويمكن بيان هذا البحث بتفاصيل أكثر، ولكنني أنوي إنهاء المقال في صفحات معدودة، لذا أكتفي بهذا البيان الموجز.

الاعتقاد بوجود الله يرغّب في الحسنة

الفائدة الكبرى الثالثة التي يمكن أن تصيب العالم نتيجة الإيمان بالله هي أنه يرغِّب في الحسنة، وهذا الأمر يمكن إثباته من الأدلة المذكورة بإيجاز في

البيان السابق. ولا أخال أن ينكره عاقل، ولكنني أنهي هذا البحث هنا بهذه الإشارة الوجيزة.

الاعتقاد بالله يفيد في البحث عن حقائق الأشياء

الفائدة الكبرى الرابعة التي تصيب العالم نتيجة الإيمان بالله هي أن هذا الاعتقاد مفيد جدا في البحث في حقائق الأشياء. من الواضح أن الذي يعتقد بوجود هذا العالم بغير خالق ومالك ويظنّه وليد صدفة فقط أو يحسبه قد بلغ وضعه الحالي رويدا رويدا نتيجة قانون الارتقاء الأعمى من حالة بسيطة ودنيا بحيث لا يمكن العثور على بدايته، لا يمكنه أن ينهمك في اكتشاف حقائق الأشياء وقانون الطبيعة بشوق ورغبة وأملٍ مثل المؤمن بالله. المؤمن بالله يكون موقنا بأن ربّه خلق كل شيء في العالم لغاية معينة ولهدف معين، لذا ليس في العالم ما هو عبث وباطل، بل كل شيء يُنجز ما وُكّل إليه بحسب الهدف والغاية من خلقه. والمعلوم أن هذا اليقين يخلق في الإنسان رغبة وشوقا وأملا في البحث عن حقائق الأشياء، وهذا لا يمكن نشوؤه دون هذا اليقين. وهذه الكيفية تصبح سندا كبيرا لتقدم العالم العلمي. أما إذا كان أحد ينكر الله مقابل ذلك ويحسب العالم وليد الصدفة فقط فلا يمكنه أن ينهمك في اكتشاف حقائق الأشياء بالشوق واللهفة نفسها أبدا، لأنه يقبل بحسب اعتقاده إمكانية مجيء شيء إلى الوجود نتيجة تغيُّر مفاجئ أو نتيجة قانون أعمى. وإذا توجّه شخص مثله

إلى اكتشاف حقائق الأشياء من أجل الارتقاء العلمي لا يسعه أن يكمل ذلك بالعزيمة والمثابرة اللتين يحظى بهما المؤمن بالله، بل سيميل قلبه عند كل فشل إلى أنه لا حاجة إلى مزيد من السعي والتركيز، ظانّاً أنه قد لا يكون في ذلك الشيء أمرٌ خاص جدير بالاكتشاف. ولكن الذي يؤمن بالله لن يتزعزع يقينه، مهما واجه من فشل، بل سيوقن بأن فيه حكمة وغاية معينة حتما، لأن إلـــهه لم يخلقه عبثا. وبناء على هذا اليقين سينسب كل فشل وخيبة أمل إلى النقص أو الخطأ في سعيه في طريق البحث ولن تعوزه العزيمة والمثابرة.

باختصار، إنها حقيقة بيّنة أن الاعتقاد بوجود الله يكون سندا قويا جدا للبحث في حقائق الأشياء. وإذا اعترض أحد قائلا بأننا نرى على صعيد الواقع أن لدى المؤمنين بالله وغيرهم رغبة مماثلة في اكتشاف حقائق الأشياء أو البحوث في مجالات العلوم المختلفة، وأن الاعتقاد بوجود الله لا ينفرد في هذا المجال بأي وجه، بل على النقيض من ذلك، إن معظم الباحثين من هذا النوع موجودون في أميركا وأوروبا، حيث تنتشر أفكار الإلحاد أكثر من البلاد الشرقية، فجوابه أن هذه الفكرة مبنية على خديعة صريحة، لأن سكان أوروبا وأميركا ليسوا ملحدين دينا بل يؤمنون بالله تعالى مهما كان إيمانهم ناقصا وضعيفا، ولا يمكن اعتبارهم ممن ينكرون الله، ومن المعتقدات المسلَّم بها عندهم أن الله تعالى هو الذي خلق كل

شيء. إذًا، إن تقدّمهم في علم حقائق الأشياء في العصر الراهن لا يمكن أن يكون سببا للاعتراض بأي حال.

أما القول بأن عدد الملحدين في تلك البلاد كبير نسبيا، فهذا أيضا خيال ووهْم فقط، لأنه ما لم تكن الإحصائيات بين أيدينا لا يمكننا القول في هذا الأمر شيئا، إذ من الممكن جدا أن يكون الناس ذوو الأفكار الإلحادية في بلاد الشرق أكثر من الغرب. على أية حال، لا يمكن أن يؤسَّس على ذلك أيّ ادعاء.

إضافة إلى ذلك يجب التذكّر أنه لما كان أهل الغرب متقدمين في العلوم الظاهرية، تظهر كافة أفكارهم للعيان سواء أكانت فردية أو قومية. ومقابل ذلك لا يتم العثور على أفكار الناس الفردية في البلاد الشرقية إلا قليلا بسبب قلة التعليم والثقافة فيها. ومن الممكن أيضا بحسب مسألة علم النفس أن الناس في بلاد الشرق غير مدركين حتى لأفكارهم في بعض الحالات، لأن عادة المحاسبة الذهنية نادرة فيهم بسبب قلة ثقافتهم. فمن الممكن جدا ألا يشعروا بحالتهم عمليا على الرغم من كونهم متأثرين بأفكار إلحادية. ولكن الأمر ليس كذلك في أوروبا وأميركا، لأن كل شخص هناك يحاسب نفسه محاسبة ذهنية بسبب كثرة التعليم، وبالنتيجة يكون كل نوع من تغيُّره الذهني أمامه دائما. فليس مستحيلا قط في ظل هذه الظروف أن يبدو عدد الملحدين في أوروبا أكثر مع قلتهم، وأن يحدث العكس في بلاد الشرق. فما لم يُثبت أن عدد الملحدين في أوروبا

وأميركا أكثر من بلاد الشرق فعلا فلا حقيقة لهذا الاعتراض السطحي. ولكن إذا افترضنا جدلا أن عددهم في الغرب أكبر نسبيا فمع ذلك لا مجال للاعتراض، لأن الذي لديه أدنى إلمام بتاريخ أوروبا وأميركا يعلم جيدا أن أفكار الإلحاد نشأت في تلك البلاد بعد بداية تقدمها العلمي. فإذا كان تأثير الإلحاد في بلاد الغرب أكثر من الشرق فعلا، فأكثر ما يمكن الاستنتاج من ذلك هو أن التقدم العلمي أدى إلى الإلحاد، وليس أن تأثير الإلحاد خلق الميل إلى التقدم العلمي أو أن إنكار وجود الله يرغِّب في التقدم العلمي أكثر من الإيمان به ﷻ. فبطُل الاعتراض في كل الأحوال.

وإذا خالجت ذهن أحد في هذا المقام شبهة أنه لماذا إذًا تسبَّب التقدم العلمي في الإلحاد؟ فجوابه أننا لا نعترف بأن التقدم العلمي كان أو يمكن أن يكون سببا للإلحاد في الحقيقة. بل الحق أن الناس أخطؤوا في فهم الموضوع خطأ كبيرا فاستنتجوا استنتاجا خاطئا تماما. حقيقة الأمر هي أن التقدم العلمي يؤدي إلى صحوة حتما، ويبدأ السكوت المطبق الناتج عن الجهل بالتحول إلى حركة الحياة، فتصبح الحركة نفسها والحياة نفسها حجر عثرة للذين لا يكونون حائزين على نموّ أو تقدُّم ذهني بصورة صحيحة، أو الذين يسلكون مسلكا خاطئا متأثرين بالظروف المحيطة بهم، أو نتيجة سوء فهمٍ من نوع آخر. ما دام الناس المحاطون بغياهب الجهل يبقون واقفين في مقام واحد، فلا تكون أمامهم فرصة السلوك على طريق خاطئ، يقول شاعر في بيت شعرٍ ما تعريبه:

"الأبطال والفرسان البارعون هم الذين يسقطون في ميدان الوغى، ولا يسقط طفل صغير يجثو على ركبتيه."

وهذا لا يعني أن براعة الفارس في الفروسية تُسقطه، بل المراد من ذلك أنه ما دام الفرسان هم الذين يواجهون مواقف السقوط، لذا فهم يسقطون أحيانا. فإذا كانت بلاد أوروبا وأميركا أكثر تأثُّرا بالإلحاد من غيرها فلا سبب وراء ذلك إلا أن التقدم العلمي قد حوّل سكونها المطبّق إلى حركة الحياة، أي أنهم كانوا من قبل راقدين في نوم الغفلة وكانوا واقفين في مقام واحد، ولكنهم نهضوا الآن وتنشطوا وبدؤوا يتحركون ويمشون. فإذا كانوا يتقدمون كنتيجة حتمية لذلك فإن بعضهم ما زالوا تائهين أيضا ويتعثرون. ولكن من المعلوم أن هذا ليس خطأ العلم، وليس العلم سبب ذلك، بل هذه نتيجة طبيعية لاستخدام العلم الخاطئ، الأمر الذي يرتكبه بعض الناس. أما القوم الذين لا يستخدمون العلم مطلقا فهم كما يبقون محرومين من بركات استعماله الصحيح كذلك يُعصمون من نتائج سيئة لسوء استخدامه أيضا. وهذا ما آلت إليه حالة البلاد الشرقية مقابل أوروبا وأميركا. على أية حال، إن تقديم حالة أوروبا وأميركا لتفنيد ادعائنا لا يصح بأي حال.

أما السؤال: لماذا يوجد في الملحدين أيضا من يرغبون في البحث عن حقائق الأشياء؟ فجوابه بأننا لم ندّعِ قط أن الرغبة في هذا البحث العلمي إنما هي نتيجة الاعتقاد بوجود الله فقط، ولا يؤدي إلى ذلك شيءٌ آخر في

الدنيا، بل نسلّم بأن أشياء كثيرة في الدنيا تخلق هذا الشوق والولع. فلو عكف ملحد على هذا المجال متأثرا بدوافع أخرى أيضا فهذا ليس محل اعتراض. نحن لا ندّعي إلا أن الاعتقاد بوجود الله يفيد ويعين في البحث في حقائق الأشياء بوجه خاص. وإذا كانت الظروف الأخرى كلها مماثلة سيثبت حتما أن المؤمن بالله أكثر حماسا طبيعيا في اكتشاف حقائق الأشياء، وأكثر شوقا ولهفة وأكثر أملا ومثابرة وأقوى عزيمة من الكافر بالله، لأنه يوقن أن كل شيء في العالم قد خُلق لهدف معين وغاية معينة، وهذا اليقين لا يتسنى للملحد. هذه حقيقة لا يمكن لأحد إنكارها.

الاعتقاد بالله ينشئ الطمأنينة القلبية

الفائدة العظيمة الخامسة التي يحظى بها العالم نتيجة الاعتقاد بوجود الله هي أن الإيمان بالله يخلق في قلب الإنسان الطمأنينة. وهذه الطمأنينة القلبية تفيد الإنسان في كل شعبة من شُعب الحياة. بل الحق أنه ليس في هذا العالم عمل يمكن أن يتمّ على خير ما يرام دون طمأنينة القلب. إن قلب الملحد يكون دائما عرضة للاضطراب وعدم الطمأنينة والأفكار التي تنم عن عدم اليقين، ولا يطمئن على حالته أبدا إلا أن يكون لديه شعور مذاق ديني، بل يخالجه دائما شك وريبة على أن بحثه قد يكون خاطئا، وقد يكون له خالق ومالك في الحقيقة. الحق أنه لما كان الإلحاد علما سلبيا وليس أساسه على أدلة إثباتية، بمعنى أن الملحد لا يقول بوجه عام

ولا يستطيع أن يقول بأنه علِم يقينا أنه ليس هناك إله، بل لا يتعدى القولَ أنه ليس لديه دليل على وجود الله، وأن فطرته أيضا لا تقبل الإلحاد في أعماقها، فلا يكون الملحد موقنا ومطمئنا باعتقاده أبدا، بل إن فطرته ونور العقل والظروف المحيطة به تجعل قلبه مضطربا دائما. وهذا الاضطراب يجعل حياته مضطربة ويشتت أفكاره، وبالنتيجة لا يجد تركيزا وطمأنينة في أي عمل في الدنيا.

ومقابل ذلك ما دام الاعتقاد بوجود الله قائما على أساسٍ مُثبت قوي وتطمئن له فطرة البشر أيضا، لذا يحظى المؤمن بالله بتركيز نسبيا، فلا يكون عرضة تشتت الأفكار؛ فيستفيد من الطمأنينة في أعماله كلها. إضافة إلى ذلك يكون الملحد دائم التفكير في أنه قد يكون هناك إله، وقد يتضرر نتيجة إنكاره ذلك الإله. وهذه الشبهة تجعله مضطرب القلب دائما. أما إذا خطر ببال المؤمن بالله شك –على سبيل الافتراض– أنه ليس هناك إله، فمع ذلك لا يخالج قلبَه اضطراب، لأنه يعلم أنه إن لم يكن هناك إله فلا خطر عليه أصلا. باختصار، الاعتقاد بوجود الله يكون سبب طمأنينة القلب، وإنكاره يؤدي إلى الاضطراب والقلق وعدم اليقين، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٩)، ولما كان الإنسان بحاجة إلى طمأنينة القلب في كل شيء، وليس في الدنيا عمل يتم بغير هذه الطمأنينة، فثبت من هذا المنطلق أيضا أن للاعتقاد بوجود الله دخلا كبيرا في تقدم العالم وبحبوحته.

الاعتقاد بوجود الله يرفع معيار الأخلاق

الفائدة السادسة الكبيرة التي يمكن أن يحظى بها العالم نتيجة الإيمان بالله هي أن هذا الاعتقاد يقيم في العالم معايير الأخلاق التي لا تقوم بغيره أبدا. إن علماء علم الأخلاق يعرفون جيدا مدى صعوبة إقامة معايير الأخلاق. بل الحق أن تعريف "الحسنة" الذي قام به البارعون في هذا المجال، ومعيار الأخلاق الذي أقاموه بعد بحوث مضنية وتفكير طويل، يوجد فيه اختلاف كبير إلى درجة تحيِّر العقل كليا، إذ يقول أحد شيئا ويقول غيره شيئا آخر تماما، وكل واحد منهم يعترض على الآخر ولا يسفر هذا النـــزاع عن أية نتيجة. ومقابل ذلك إذا فكّرنا بدخولنا في دائرة الإيمان بالله يتضح الموضوع تماما، وأن الإنسان لم يأت إلى الوجود من تلقائه حتى نضطر إلى التفكير بأنفسنا من أجل معيار أخلاقه، وإلى أن نبحث بأنفسنا أيّ فعلٍ وأي طريق يجب أن يُعَدّ صحيحا له، بل نؤمن بأن وجودا أعلى خلقه. ومن الواضح في هذه الحالة أنه لا يمكن أن تكون أيّ أسوة جديرة بالتقليد للإنسان سوى أسوة الوجود الأعلى. وليس لأخلاقه معيار سوى أن يتصبّغ بصبغة صفات خالقنا ومالكنا. فيقول النبي ﷺ: "تخلَّقوا بأخلاق الله".

لذا يعلّم الإسلام أن الله تعالى خلق الإنسان ظلا لصفاته، وقد أودع فطرتَه كافة صفاته (إلا الصفات الخاصة بالألوهية) كبذرة على نطاق محدود وضيق، ولريِّ تلك البذور الفطرية وتنميتها بصورة صحيحة أنزل

بين حين وآخر بواسطة عباده الأطهار دستور العمل الذي يسمّى "الشريعة"، وهذا هو معيار الأخلاق الذي يمكن أن يكون سببا لإصلاح العالم وتقدمه الحقيقي. والبحث عن معيار سواه ليس إلا مضيعة للوقت.

فكّروا جيدا فتعلموا أنه لا يمكن أن يتأسس معيار الأخلاق الصحيح دون أن يتّصف الإنسان بصفات خالقه ومالكه وأخلاقه. والطريق العملي لتحقيق هذا الهدف هو أن يحاول المرء التصبّغ بصبغة الله بحسن استخدام العواطف الفطرية الموجودة فيه -بحسب أحكام الشريعة- التي تشكل في حد ذاتها دليلا على وجود الله تعالى، لكونها ظل صفاته ﷻ. فمثلا الحب عاطفة فطرية، واستخدامها الصحيح الذي يجعل الإنسان يتصبّغ بصبغة الله، هو خُلق أعلى. كذلك الرُّحم عاطفة فطرية وحسن استخدامها خُلق أسمى. الغضب عاطفة فطرية واستخدامها الصحيح يجعلها خُلقا أعلى. كذلك هو حال الغيرة وغيرها من العواطف الفطرية الكثيرة التي يحوّلها حسن استخدامها إلى خُلق أعلى. وقد أودع اللهُ خالق الفطرة كل هذه العواطف في فطرة الإنسان كظِلٍّ له ﷻ. وفيما يتعلق بالإنسان، فإن هذه العواطف ليست بحسنة أو سيئة بحد ذاتها، بل هي عواطف فطرية بسيطة، وإن استخدامها السيِّئ أو الخاطئ هو ما يجعلها سيئة أو حسنة. ومعيار استخدامها الحسن هو أن تظهر عواطف الإنسان الفطرية هذه بصورة صفات الله. والوسيلة للعثور على ذلك هي فعل الله، أي الطبيعة، وقولهُ

وَجَلّ، أي الشريعة، ولا حل سواهما لقضايا علم الأخلاق المعقدة. وهذه فائدة عظيمة يمكن أن ينالها العالم نتيجة الإيمان بالله.

هذا، وهناك فوائد أخرى كثيرة ولكني أنهي هذا البحث مكتفيا بما سبق ذكره. ولكن أريد أن أكرر أن البحث هنا كان حول الفوائد التي ينالها الناس نتيجة الإيمان بالله بوجه عام، ولم تُذكر الفوائد العظيمة الخاصة التي يمكن أن ينالها المؤمن روحانيا وأخلاقيا وعلميا نتيجة التقدم في قرب الله، وتنالها الجماعات المقربة إلى الله، وسأتناول بيانها في محلها بإذن الله.

أريد أن أبين أيضا أنني لم أذكر تلك الفوائد العامة من منطلق أنها دليل على وجود الله، بل كما قلتُ من قبل بأني أعترف أنه إن لم يكن الإله موجودا فعلا، فلا أهمية للقول بأنه ما دام نوال الفائدة من الإيمان بالله ممكنا فيجب الإيمان به دون دليل، بل تطرقتُ هنا إلى هذا البحث عرَضا ليَثبت فقط أن لنا خالقا ومالكا في الحقيقة، وليس ذلك فحسب، بل ليثبت أيضا أن الإيمان به مفيد للعالم.

أدلة الملحدين وتفنيدها بإيجاز

والآن أريد أن أفنّد بإيجاز شديد الأدلة التي يقدمها الملحدون تأييدا لاعتقادهم. لقد فنّدتُ كثيرا منها من قبل في هذا المقال، لأني كلما قدّمت دليلا على وجود الله تعالى كتبتُ الردّ أيضا على اعتراضات يثيرها المعترضون بوجه عام على ذلك الدليل، غير أن هناك بعض الأمور التي لا تندرج تحت دليل إثباتي فلم تُذكر من قبل، لذا سوف أناقش هنا تلك الأمور فقط، أما الأمور الأخرى فسأشير إليها بإيجاز شديد ليكتمل تدوين المقال.

أقسام الإلحاد الثلاثة

يجب أن يكون معلوما أولا أن من يحملون أفكارًا إلحادية هم ثلاثة أقسام:

الأول: الملحدون الذين يعتقدون فقط أن وجود الله لا يثبت، بمعنى أنه ما دام ليس عندنا دليل صحيح وقوي على وجود الله فلا نعترف بوجوده. وأصحاب هذه الأفكار يشكّلون الأغلبية، بل أظن أن نسبتهم تربو على تسعين بالمائة من الملحدين.

الثاني: الملحدون الذين يعتقدون أن مسألة وجود الله لا يمكن أن تثبت بالأدلة أبدا، أي لا يمكن حلّ قضية وجود الله أو عدم وجوده بالأدلة بأي حال. أصحاب هذه الأفكار أيضا لا يؤمنون بالله عمليا.

الثالث: الملحدون الذين يعتقدون بأنه ليس هناك إله، أي يظنون أن عدم وجود الله ثابت من بعض الأدلة، ولكن هؤلاء الناس أيضا لا يؤسسون اعتقادهم في الحقيقة على تلك الأدلة بل أساس اعتقادهم الحقيقي هو أنه لا دليل على وجود الله، ولكنهم يقدمون بعض الأدلة أيضا ضمنيا. ولكن هؤلاء الناس قلة قليلة ولعل نسبتهم لا تتعدى واحدًا بالمائة من الملحدين، بل قد يكون أقل من ذلك أيضا.

باختصار، إن معتقد الملحدين من القسم الأول يتلخص في: "عدم الإيمان بسبب عدم الدليل"، واعتقاد الملحدين من القسم الثاني يتلخص في: "عدم الإيمانِ وعدم الإنكار بسبب عدم إمكانية الإثبات أو الإنكار". أما معتقد الملحدين من القسم الثالث فملخصه: "الإنكار بسبب دواعي الإنكار". وكما سبق ذكره آنفا إن عدد الملحدين من القسم الأول كبير جدا، وعدد القسم الثالث ضئيل جدا، وعدد القسم الثاني أيضا قليل ولكنه أكثر من القسم الثالث. ولذلك السبب فإن الاسم الذي اختاره الملحدون من أوروبا وأميركا لأنفسهم هو (Agnostic) أي اللاأدريّون[١٢]. أي قد تبنّوا موقفا أنه ليس عندهم دليل على وجود الله، و لم يتبنَّوا موقف إنكار إيجابي.

باختصار، الأكثر عددا في الملحدين هم الذين يعتقدون أنه ما دام ليس عندهم دليل على وجود الله فلا يؤمنون به. ولكننا لا نهدف هنا إلى تفنيد

---

[١٢] أي هم الذين لا يدرون. (المترجم)

معتقداهم، لأن المقال كله زاخر بتفنيد مزاعمهم، وفي سياق كل دليل إثباتي فُنِّدت شبهاهم، والأدلة الإثباتية الأخرى التي لها علاقة بالجزء الثاني من المقال سوف تُفنَّد لاحقا في محلها بإذن الله. كذلك ورد تفنيد معتقدات القسم الثاني من الملاحدة أيضا تلقائيا في البحث السابق، وما تبقى منه فسيأتي لاحقا بإذن الله.

ما أهدف إليه هنا هو دحض أفكار القسم الثالث منهم الذين يدّعون أن عدم وجود الله ثابت من بعض الأدلة والقرائن، وفي هذا السياق بتفنيد معتقداهم أيضا سوف أكتفي بذكر ما لم يُذكر من قبل، لأنه قد ورد في بعض الأماكن مما سبق تفنيد معتقدات هؤلاء الناس ضمنيا ولا حاجة إلى إعادها هنا بل تكفي الإشارة إليها. فليكن معلوما أن هؤلاء الملحدين من هذا القسم يقدّمون الأدلة التالية تأييدا لأفكارهم.

دليل الملحدين الأولُ ودحضه

الدليل الأول الذي يقدّمه الملحدون في تأييد اعتقادهم هو أن هناك إمكانيتين فقط عن نشوء هذا الكون. الأولى: أن خالقا أعلى قد خلقه. والثانية: أنه جاء إلى الوجود تلقائيا ولا يزال يعمل بحسب قانون داخلي أو سلسلة الأسباب والعلل منذ البداية أو منذ زمن معين. لا يمكن للعقل البشري أن يقترح إمكانية أخرى. ومع أن كلتا الإمكانيتين تفوق إدراك العقل البشري، بمعنى أننا لا نستطيع أن نفهم أن شيئا (سواء أكان الإله

بنفسه أو الكون) موجود من تلقاء نفسه منذ الأزل أو منذ زمن معين، ولكننا مضطرون إلى أن نقبل إحدى هاتين الإمكانيتين، لأنه ليس هناك إمكانية أخرى. وما دمنا سنقبل إحدى هاتين الإمكانيتين فالاعتراف بأن الدنيا لا تزال موجودة بحسب سلسلة الأسباب والعلل الداخلية أسهل وأبسط وأحوط من الاعتراف بوجود أعلى فوق الكون، ثم نعترف عن ذلك الوجود أنه موجود منذ البداية من تلقاء نفسه، وهلمّ جرا.

لقد دُحض هذا الدليل مفصّلا من قبل في المقال حيث ذُكر دليل إثباتي على وجود الله تعالى بالإشارة إلى وجود الكون، فلا حاجة إلى إعادته هنا. لقد أُثبت في ذلك المقام بالتفصيل أنه لا ينطبق حكم واحد على هذا الكون وعلى الله تعالى بسبب اختلاف ظروفهما وصفاهما، ولا يصحّ القول بأن اعتبار وجودهما من تلقائهما منذ الأزل سيان. بل الحق أن وجود الله يقتضي بسبب صفاته المتعلقة بالألوهية أن يكون موجودا منذ الأزل، وألا يكون فوقه أحد، ومن ناحية ثانية تُثبت الدنيا وما فيها من خلال ظروفها أنها لم تأت إلى الوجود من تلقائها وأنها ليست موجودة منذ الأزل، ولا مانع في وجود ذات عليا فوقها. فالفرق واضح، وبالنتيجة لا يمكن قط إطلاق حُكم واحد على كليهما. ومن الخطأ تماما القولُ بأن اعتبار وجود العالم منذ الأزل أسهل نسبيا وأبسط وأحوط، بل الحق أن اعتبار وجوده منذ الأزل يؤدي إلى إشكالات لا حل لها. غير أنه إذا اعتُبر العالم مخلوقا وعُدَّ خالقه موجودا منذ الأزل فهو أقرب إلى الفهم

والقياس وأسهل وأبسط وأحوط حتما. وزدْ إلى ذلك الأدلةَ على وجود الله تعالى. يمكن للقراء إذا شاؤوا أن يعودوا إلى البحث الذي مرّ حول هذا الأمر ولا حاجة إلى إعادته هنا.

دليل الملحدين الثاني ودحضه

الدليل الثاني الذي يقدمه الملحدون على إنكار وجود الله هو أن قانون الطبيعة والأسباب والعلل كاملة ومكتملة، وفي حال وجودها لا حاجة مطلقا إلى أن يكون لهذا الكون إله أو إلى وجود أعلى. والاعتراف بوجود أعلى بغير ضرورة لا يعني أكثر من الوهم، وهكذا دواليك. ولقد سبق تفنيد هذا الدليل أيضا حيث ذُكر أن الضرورة تبقى قائمة إلى وجود أعلى على الرغم من وجود قانون مكتمل. وقيل أيضا أن وجود هدف الحياة وغايتها المعينة في هذا العالم مع وجود سلسلة الأسباب والعلل يدل على وجود خالق ومتصرف.. يمكن الرجوع إلى هذا البحث في المقال، ولا حاجة إلى إطالة المقال بإعادته هنا. الحق أن القائلين بذلك لم يفكروا في أن الأسباب والعلل أيضا تقتضي بحد ذاتها خالقا ومراقبا، ولكن لو لم يؤخذ هذا الأمر أيضا بعين الاعتبار فهي *(أي الأسباب والعلل)* مع ذلك بمنـــزلة أدوات يصنع بها الصانع شيئا يأتي إلى حيز الوجود نتيجة استخدام تلك الأدوات، وهذه النتيجة هي التي تبين وجود الصانع في معظم الأحيان. إذاً، لا يمكن تقديم هذه الأسباب والعلل دليلا ضد وجود

الله تعالى، بل الحق أن وجود هذه الأسباب، وفوق ذلك نتيجتها التي تظهر من خلال سريان هذا الكون إلى جهة معينة وتحت غاية معينة وهدف معيّن دليل بيّن على وجود أعلى لا يسع عاقلا إنكاره.

دليل الملحدين الثالث ودحضه

الدليل الثالث الذي يقدّمه الملحدون ويستدلون به ضد وجود الله مبني على مسألة الارتقاء، ويتلخص في أن نظرية الارتقاء قد أثبتت أن الأشياء التي نشاهدها في العالم حاليا لم تكن هيئتها وصورها على النحو الحالي منذ الأزل، بل كانت في البداية في حالة دنيا ثم ظلت تتقدم وترتقي رويدا رويدا إلى أن بلغت هيئتها الحالية. أي أن كل شيء اتخذ صورة وهيئة تدريجا بحسب الظروف المحيطة به، والأشياء التي لم تتغير بحسب الظروف المحيطة بها اندرست رويدا رويدا. ومن هنا يستدلون على أنه ليس في هذا العالم ترتيب معين، بل الكون الحالي نتج عن ظروف مصادفة فقط.

لقد سبق ردٌّ مبدئي على هذا الدليل، ويجب التذكر إضافة إلى ذلك أن اختفاء بعض الأشياء لعدم وجود الظروف المحيطة المناسبة وتأقلُمَ بعضها مع الظروف المحيطة بها لا يُثبت قط أن العالم ينقصه الترتيب. بل لو تأملنا في الموضوع أكثر لتبين لنا أن بعض الأشياء التي اندرست وبعضها الأخرى التي بقيت تُثبت أن في العالم ترتيبا وعلة متوخاة وهدفا من الحياة، لأن في انمحاء بعض الأشياء وبقاء بعضها الآخر حكمة عظيمة،

ويبين أن خالق الكون يشذب اغصان الأشجار في حديقته من أجل نموّها وازدهارها على ما يُرام. أما الأغصان والغراس التي يصيبها الضعف فلا تستطيع أن تتحمل تأثير تقلّبات الدهر لنقصٍ فيها، ولا تستطيع أن تحقق الهدف من خلقها، فيقطعها لتنمو بحرية بقية الأغصان والغراس التي تقدر على الارتقاء، ولكيلا تكون تلك الأغصان والغراس الضعيفة عائقا في تقدمها.

وإذا قيل بأنه لما كان الله يعلم أن غصنا أو غرسا كذا سيبقى ضعيفا في حديقة العالم ولن يحقق الهدف من خلقه، فلماذا خلقه أصلا؟ فجوابه أن الله تعالى خلق كل شيء بحسب هدف وغاية معينة، ويريد أن يحقق كل شيء الهدف من خلقه، ولكن إذا حدث عيب في شيء ما بحسب قانونٍ سائد في الطبيعة ولم يعد قادرا على مواكبة أمور أخرى في مجال الحياة ويعجز عن تحقيق الهدف من خلقه، فهو يهلك بحسب قانون الطبيعة نفسه. وهذا يعني أن الله تعالى هو الذي وضع كلا القانونين، أي أنه يخلق كل شيء بهدف وغاية معينة، ويريد أن يحقق كل شيء هدفه وغايته، ويندرس كل ما لا يستطيع أن يحقق هذا الهدف والغاية متأثرا بتأثيرات ضارة.

فمثلا، خلق الله كل إنسان لنيل الارتقاء الروحاني والمادي، ولكن بعض الناس لا يحققون هذا الهدف بسبب أعمالهم، فيُقطعون كأغصان بالية.

وثانيا: يجب التذكر أيضا أن الأشياء التي تضيع يكون الهدف من خلقها في بعض الحالات بحسب قانون الطبيعة أن تبقى إلى مدة معينة، وتعين الأشياء الأخرى في تقدُّمها، وعندما تتقوى الأشياء الجديرة بالبقاء وتبلغ كمالها، أي الهدف من خلقها، فتُتلَف تلك الأشياء المساعِدة، كما تُزرع الغراس أحيانا في أثناء عملية الزراعة وتُزرع حولها بعض النباتات الأخرى، وتسمى بالإنجليزية (Fillers) أي الطفيليات، ولا يكون وجودها مقصودا بالذات بل تُزرع حول الغراس الأصلية لحمايتها وتنميتها وارتقائها. ثم عندما تتقوى الغراس الأصلية تُتلف الطفيليات، لأن الهدف من زراعتها يكون قد تحقق، ويكون بقاؤها بعد ذلك مضرا بالأصلية.

إضافة إلى ذلك فقد ثبت أيضا علميا أن موت بعض الأشياء يكون مدعاة لحياة أشياء أخرى وتقويتها، ويكون الهدف من خَلقها أن يكون موتها سببا لحياة أشياء أخرى. ويمكن تقديم أمثلة لا تُحصى عن ذلك.

فمن أيّ منظور نظرتم لا يمكن تقديم موت بعض الأشياء بعد حياتها إلى فترة معينة، وبقاء الأشياء الأخرى وتقدّمها باستمرار، دليلا ضد وجود الله تعالى مطلقا. بل هذا يُثبت أن فوق هذا العالم وجودا أعلى ومدركا وحكيما وعليما، ويتحكم في نظام الكون بالحكمة وبحسب هدف وغاية معينة.

أما القول بأن الأشياء التي تندرس إنما تندرس نتيجة قانون يفيد أن الأشياء الضعيفة تُتلف وتبقى القوية منها، وأن البحث عن يد وجود أعلى في الموضوع ليس إلا وهما، فجوابه: نحن لا ننكر القانون مطلقا بل نعترف بسلسلة الأسباب والعلل ونقدّمها، ولكن لا يثبت من هذا القانون وسلسلة الأسباب والعلل قط أنه لا إله فوقها، بل كما بيّنّا مفصلا من قبل أن وجود هذه السلسلة من الأسباب والعلل يشير في حد ذاته إلى وجود أعلى، والنتيجة الإجمالية لهذه الأسباب دليل بيّن آخر. أريد أن أكرر هنا أن مسألة الارتقاء كما قدمها "دارون" وغيره ليست حقيقة علمية ثابتة قط، بل هي نظرية فقط لا يتفق على تفاصيلها كثير من العلماء، بل قد رُفضت هذه النظرية كليا بصورتها الحالية.

دليل الملحدين الرابع ودحضه

الدليل الرابع الذي يقدمه الملحدون ضد وجود البارئ تعالى أيضا مبني على مسألة الارتقاء، أي يقال بأن التعليم الذي قدّمته الأديان عن خَلق العالم وخَلق آدم قد ثبت بطلانه وخطؤه في ضوء مسألة الارتقاء. فتبين من ذلك أن تعليم الأديان باطل وينافي الواقع، ولما بطلت الأديان بطل تلقائيا الاعتقاد بوجود الله الذي وصل إلى الناس من الدين. وقد سبق البحث المفصل حول هذا الدليل أيضا في المقال، وقد رُدّ عليه ردٌّ جامع وشاملٌ ولا حاجة إلى إعادته.

دليل الملحدين الخامس ودحضه

الدليل الخامس الذي يقدمه الملحدون هو أن قانون الطبيعة الذي يقال عنه بأن وجودا أعلى قد وضعه، نجده في بعض الحالات ظالما جدا ويعمل بطريقة فوضوية تماما بحيث لا يسع أحدا الوصول بعد دراسته إلى نتيجة أن عاقلا قد وضعه، بل يتبين من مطالعته أن كل ذلك يجري هكذا نتيجة تغيّر داخلي أو نتيجة سلسلة الأسباب والعلل، ومنها مثلا وقوع حوادث غير عادية أحيانا وولادة بعض الأولاد عميانا أو صُمًّا أو عُرجا أو مجانين، أو تعرُّض أحد للدمار والإبادة فجأة بعدما كان سائرا على طريق التقدم، وغيرها من الأحداث من هذا القبيل؛ كلها تدل على أنه لا إله فوق العالم، وإلا لما سادت هذه الفوضى والظلم والمصائب والآلام. لم يرد الجواب على هذا الاعتراض من قبل في المقال، لذا أرى ضروريا أن يُرَدَّ عليه بشيء من التفصيل.

يجب التمييز بين قانون الطبيعة وقانون الشريعة

ليكن معلوما أن منشأ هذا الاعتراض هو أن أصحابه لم يفكروا جيدا في النوعين من القوانين التي وضعها الله تعالى لتعمل في هذه الدنيا، بل ظنوا أن نظام العالم كله يجري بحسب قانون واحد فقط، وهذا خطأ تماما. والحق أن الله تعالى وضع في الكون قانونين مختلفين، أحدهما قانون الطبيعة ذو الصلة مع نظام العالم، ويعمل تحت سلسلة الأسباب والعلل وخواص

الأشياء، وتظل تأثيراته ونتائجه تظهر في هذا العالم. والقانون الثاني هو قانون الشريعة ذو الصلة بأخلاق الإنسان والأمور الروحانية، والذي ظل ينـــزل في الدنيا بواسطة الأنبياء والرسل، وموعد الجزاء عليه هو بعد الموت. وقد نشأ الاعتراض المذكور آنفا نتيجة الخلط بين هذين القانونين وعدم الانتباه إلى التمييز بينهما على ما يرام.

ما هو قانون الطبيعة؟ المراد منه هو أن كلّ شيء في الدنيا وكلّ قول وكل حركة وسكون وكل شيء مفرد ومركَّب أُودع تأثيرا فطريا معيّنا يظهر للعيان كنتيجة طبيعية له. فمثلا في الزرنيخ قدرة على قتل نفس منفوسة، وهذا جزء من قانون الطبيعة. فحيثما وكلما دخل جسمَ نفسٍ منفوسة مقدار معين من الزرنيخ يكفي لقتله ستظهر نتيجته الطبيعية، إلا أن يتدخل قانون آخر سائد في الطبيعة لمحو تأثيره. كذلك من قانون الطبيعة أنه إذا كان هناك سقف بالٍ وضعيف فسينهار حين يبلغ ضعفه منتهاه ويتعذر قيامه. ومن قانون الطبيعة أيضا أنه إذا صادف أحدٌ تحت سقف وانهار، فسيموت. فكل من كان ينطبق عليه هذا القانون سيهلك حتما إلا إذا تدخّل قانون آخر يقدر على محو تأثيره. كذلك من قانون الطبيعة أن الذي يدخل في ماءٍ عميق ولا يعرف السباحة فسيغرق. فمن كان لا يعرف السباحة ودخل ماءً عميقا لن ينجو من الموت، إلا إذا أنقذه قانون آخر يقدر على محو تأثير القانون السابق. ومن قانون الطبيعة أنه مهما كان الشيء حائزا على التقدم والارتقاء ستحول دونه بعض

العراقيل الضارة لا محالة، وإن لم يكن ذلك الشيء قادرا على مقاومتها سيتوقف تقدمه ويبدأ انحطاطه، إلا إذا تيسرت وسائل أخرى بحسب قانون الطبيعة نفسه لمحو تأثير تلك العراقيل الضارة. فهذه الأمور كلها ومثيلاتها الكثيرة التي لا تُحصى إنما هي جزء من قانون الطبيعة وتسفر عن تأثيراتها الطبيعية بحسب القانون نفسه. وإن عجلات هذه العربة العظيمة في حراك دائم ولا تهتم في ذلك بالمعارف والأغيار بل هي مضطرة في الظروف العادية وبحسب الواجبات الموكولة إليها إلى أن ترفع شخصا أو تُسقطه، أو تقدّم أو تؤخر كلَّ مَن واجهها. وذلك بوضع الحالات الاستثنائية جانبا؛ إذ لها قانون مستقل ودائم يتعلق بقدر الله الخاص، ويظهر للعيان عادة بصورة استجابة الدعاء والمعجزات وما شابهها بواسطة الأنبياء والأولياء.

وما هو قانون الشريعة مقابله؟ إنه قانون ودستور العمل الذي يقدّمه دين لأتباعه على أنه من الله ليعملوا به ويحسِّنوا أخلاقهم وينالوا فيضا وبركات قدِّرت لعباد الله الأطهار. ولكن في هذا القانون كل شخص مخيَّرٌ أن يلتزم بهذا القانون إذا شاء أو لا يلتزم به إذا شاء ذلك، وجزاؤه مؤجَّل إلى ما بعد الموت (ما عدا بعض التأثيرات شبه الخافية التي تظهر في هذه الدنيا). فمثلا، يأمر قانون الشريعة الناس بأن عليكم أن تعبدوا الله تعالى بأسلوب كذا وكذا لنيل قربه ورضاه، ولكنه لا يكرههم على تلك العبادة، أي إذا أراد أحد أن يسلك على عكس ذلك الهدي فهو قادر

على ذلك ولا يمنعه من ذلك مانع، وسيعاقَب العاصي على تلك المعصية بصورة حقيقية ومعينة في العالم الآخر وإن ظهر تأثيره الخفي في هذه الدنيا أيضا. لذلك هناك تعبير متداول بين الملتزمين بالدين يقول ما معناه: "الدنيا دار العمل والآخرة دار الجزاء".

ولكن هذا المبدأ لا ينطبق على قانون الطبيعة، بل هذه الدنيا هي دار العمل ودار الجزاء أيضا من حيث قانون الطبيعة. لا يتدخل أيّ من هذين القانونين في مجال الآخر ما عدا الحالات الاستثنائية التي لا حاجة إلى ذكرها هنا، أي لا يحدث أبدا أن يعصي أحدٌ قانونا من قوانين الطبيعة ثم يجتنب تأثير عصيانه، لأنه ليس مجرما من حيث قانون الشريعة، بل سوف يتحمل حتما مغبّة عصيانه قانون الطبيعة في الظروف العادية، ولن ينقذه من الإيذاء والخسارة التزامه بقانون الشريعة. فمثلا إذا كان هناك سقف على وشك السقوط لكونه باليا وجلس تحته شخصان أحدهما صالح من الناحية الدينية والآخر طالح وعاصٍ، فلن يحدث في الظروف العادية أن يُجنَّب الصالح مضرة سقوط السقف ويموت الطالح، بل لو سقط السقف بحيث لا يمكن اجتناب الجالسين تحته الهلاك، فسيهلك كلاهما، وإذا كانت هناك إمكانية الخلاص من حيث قانون الطبيعة فسينجو كلاهما. كذلك إذا دخل رجل صالح وتقيّ في ماءٍ عميق ولا يعرف السباحة، فلن تنقذه تقواه من الغرق؛ لأن لتقواه علاقة بقانون الشريعة، ولكن هنا سيعمل قانون الطبيعة الذي لا يلتزم بقانون الشريعة في الظروف العادية.

ملخص الكلام أن القاعدة العامة هي أن الحسنة والسيئة التي يكسبها المرء في دائرة قانون الشريعة تؤثران في الجزاء والعقاب الشرعي فقط، ولا أهمية لهما في مجال الجزاء والعقاب بحسب قانون الطبيعة. كذلك إن لطاعة قانون الطبيعة وعصيانه تأثيرا في الجزاء والعقاب بحسب قانون الطبيعة، ولا وزن لها في الجزاء والعقاب تحت الشريعة. إذًا، من الباطل واللغو تماما قولُ ملحد تأييدا لاعتقاده مثلا بأن فلانا كان صالحا وطيبا جدا وله أولاد صغار فذهب للاستحمام في النهر وغرق فجأة ومات، مع أن شخصا من الأوباش أيضا كان يستحم في الوقت نفسه ولكنه عاد إلى بيته سالما غانما. أو أن الفتاة الفلانية كانت طاهرة وذات أخلاق فاضلة ولكنها هلكت بالحريق في اليوم التالي من زواجها، مع أن فتاة أخرى فاجرة وسيئة الأخلاق وتزوجت في اليوم نفسه ولكنها تعيش عيشا هادئا ومطمئنا بكل معنى الكلمة. أو أن طفلا كان بريئا وطيب السيرة والأخلاق ولكنه مات مدفونا تحت سقف، بينما كان هناك طفل آخر شريرا جدا وسيّئ الأخلاق يلعب قربه ولكنه خرج من الغرفة قبيل سقوط السقف ولم يواجه مصيبة. فيقال نظرا إلى أمور من هذا القبيل أنه لا إله فوقنا، وإلا لما رأينا الفوضى والظلم منتشرا على هذا النحو.

اعلموا جيدا أن هذا الاعتراض سخيف وتافه جدا، لأن الغريق، وإن كان ملتزما بقانون الشريعة، ولكنه إنْ كان مجرما من حيث قانون الطبيعة، فينال عقوبته بحسب قانون الطبيعة، أما زميله فينجو من عقوبة

قانون الطبيعة -لأنه لم يرتكب جرما من حيث قانون الطبيعة- مع كونه مجرما من حيث قانون الدين. كذلك الفتاة التي ماتت حرقا قد اضطرت إلى مواجهة قانون الطبيعة فهلكت. ولما كان هذا الجزاء أو العقاب بحسب قانون الطبيعة فلم يُسعفها التزامها بقانون الشريعة، أما الفتاة الأخرى فقد نجت من عقوبة قانون الطبيعة مع كونها مجرمة بحسب قانون الشريعة، لأنها لم ترتكب جريمة في دائرة قانون الطبيعة. وهكذا دواليك.

فهذه ليست فوضى ولا ظلما وجورا، بل هي نتيجة طبيعية لسياسة الطبيعة، وهي سواء للجميع. بل كانت لتكون فوضى إن لم يُنقَض قانون من قوانين الطبيعة ومع ذلك عاقبتِ الطبيعةُ، و لم يُنقض قانون من قوانين الشريعة ومع ذلك عاقبتِ الشريعةُ، أو إذا نُقض قانون الطبيعة وعاقبت الشريعة أو نُقض قانون الشريعة وعاقبت الطبيعةُ، ولكن الأمر ليس كذلك، بل كل ما يحدث هو أنه عندما يُنقض قانون الطبيعة تعاقِب الطبيعة، وعندما يُنقض قانون الشريعة تعاقِب الشريعةُ (ما عدا بعض الاستثناءات التي لا حاجة إلى ذكرها هنا، لأنها موضوع مستقل) ولا يرى عاقل هذا الأمر محل اعتراض أو منافيا للعدل.

إنني أستغرب استغرابا ما بعده استغراب! كيف يتقدم المعترضون إلى الاعتراض مع ادعائهم امتلاك العقل والفطنة، ويرون هذا النظام -المبني على الحكمة الكاملة، إذ لا يُنقض قانون ولا يصطدم قانونان- منافيا للعدل والإنصاف؟! الخطأ الذي وقعوا فيه لسوء الحظ هو أن حادثا

يحدث بحسب قانون الطبيعة، ولكنهم يبحثون عن سببه في قانون الشريعة، وعندما لا يجدونه يزعمون أن هذا كله فوضى وعشوائية. يا أيها الأشقياء، لقد وهبكم الله العقل والفطنة، عليكم أن تبحثوا عن السبب وراء حادث طبيعي في قانون الطبيعة، وابحثوا عن سبب العقوبات الشرعية في قانون الشريعة، عندها تعلمون أن الفوضى ليست ما يجري، بل الفوضى هي ما تقولون، فلا فوضى أكبر من أن يغرق شخص في الماء بحسب قانون الطبيعة أو يحترق بالنار أو يموت مدفونا تحت سقف منهار أو يهلك لأيّ سبب آخر ثم تزعموا أنه لم يرتكب ذنبا شرعيا، لذا فقد مات مظلوما. الأسف كل الأسف على أنكم أنتم الظالمون إذ تسلِّمون حق قانون الطبيعة إلى قانون الشريعة، والعكس صحيح، ثم تعترضون على الله.

اعلموا جيدا أن الطبيعة والشريعة سلطنتان منفصلتان، ولا تتدخل إحداهما في حدود الأخرى، مثل الحكومات المتحضرة، إلا إذا أمرت سلطنة الله المركزية جيش السلطنة بالذهاب إلى سلطنة أخرى لمساعدتها كما تُسخّر القوى الطبيعية أحيانا لخدمة قانون الشريعة عند بعثة الأنبياء والمرسلين حين يكون في السماء حماس شديد لإصلاح العالم. إذًا، المعجزات والخوارق تكون نتيجة تجلٍّ لهذا القانون الاستثنائي، غير أن القاعدة العامة هي أن قانون الطبيعة وقانون الشريعة يعملان عملهما

منفصلين عن بعضهما دون أن يتدخل أحدهما في مجال الآخر أو يترك مساره من أجل غيره.

باختصار، لقد نشأ هذا الخطأ نتيجة الخلط بين القانونين وعدم التمييز بين عملهما، وإلا فإن الأمر واضح وبيّن تماما.

كيف نشأت عقيدة التناسخ؟

لا يخلو من الفائدة الذكرُ هنا أن عقيدة التناسخ أيضا مبنية على الخطأ نفسه، لأن القائلين بهذه العقيدة أيضا يقدّمون الدليل نفسه أن الأولاد الذين يولَدون في العالم إنما يولَدون تحت ظروف مختلفة، أي أنَّ هناك ولَدًا يولَد صحيحا سليما، والآخر ضعيفا نحيفا، وهناك من يولد بصيرا وغيره ضريرا، كما يولَد ولد بيدين وقدمين ويولَد آخر أعرج وكسيحا، ويأتي أحد إلى العالم مع قوى ذهنية عليا ويأتي غيره بليدا، ويولد أحد في بيت ثري غني ويولد آخر في بيت فقير معدم، وهلمّ جرّا. فثبت عندهم أنه قد مضت حياة أخرى قبل الحياة الحالية، لذا آلت حالة هؤلاء الأطفال إلى هذا المآل مغبة لأعمال كسبوها في الحياة السابقة، وإلا لو لم تكن هناك حياة قبل الحالية ولا سِجِلّ لأعمال الأولاد الصالحة أو السيئة السابقة فلماذا هذا الاختلاف؟ هل الإله ظالم إذ خلق الأولاد من جيل واحد بأشكال مختلفة وفي ظروف مختلفة تماما. وإن لم يكن الإله ظالما فلا حَلّ لهذا القدر من الاختلاف إلا الاعتراف بأنه قد مضت حياة قبل حياتنا

الحالية، والخلاف الماثل للعيان في ولادات مختلفة إنما هو نتيجة الأعمال في تلك الحياة.

هذا هو الدليل الذي يقدّمه القائلون بالتناسخ، ويتضح من ذلك بجلاء أنهم أيضا أهملوا الفرق بين قانون الشريعة وقانون الطبيعة، وأرادوا أن يقيسوا الأحداث كلها بقانون واحد ولم يفكروا أن الخلاف الظاهر للعيان عند ولادة الأطفال ليس بسبب قانون الشريعة حتى نضطر إلى البحث عن سجل أعمالهم السابقة، بل سببه هو قانون الطبيعة، أي أن الوليد ينال نصيبا من حالة آبائه، بل أجداده، الجسدية والمالية والأخلاقية. ولما تكون ظروف أبوَي الأولاد المختلفين مختلفة، فتكون ظروفهم أيضا مختلفة.

لقد أثبت علم الطب الذي هو جزء من قانون الطبيعة أنه إذا كان الوالدان بصحة جيدة سيولَد الولد صحيحا سليما، وإذا كانا ضعيفين سيكون الولد ضعيفا بحيث إنه يرث أحيانا حالة والديه الجسدية بكل جزئياتها. إن مجال هذا العلم واسع جدا وقد بلغ مبلغ الثبوت نتيجة تجارب ومشاهدات متكررة، فلا يسع عاقلا إنكاره. وثبت أيضا أن اللحظة التي يتم فيها الجماع بين الزوجين تؤثر الحالة السائدة عليهما حينذاك في الجنين تأثيرا عميقا، لذلك أمرت الشريعة الإسلامية بكمال الحكمة أن تكون أفكار الزوجين عند الجماع نقية وطاهرة لينال الجنين نصيبا من أفكارهما الحسنة. باختصار، لقد أثبت علم الطب بالقطع

واليقين أن تأثير الوالدين بل تأثير الأجداد أيضا يصل إلى الأبناء، وأن ولادة البعض سليما معافى والآخر ضعيفا أو ناقص الخِلقة فذلك نتيجة تلك التأثيرات.

الحق أن هناك قانونا عاما في الطبيعة أشار إليه القرآن الكريم حيث قال بأن كل شيء في العالم يؤثر فيما حوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (النحل: ٤٩). وأن كل الأشياء في العالم قائمة بسند بعضها، وكل شيء يتأثر بغيره ويؤثر فيه على قدر المراتب. وبحسب هذا التأثير ينال الجنين نصيبا من حالة أبويه سيئة كانت أو حسنة، لكونهما الأقرب إليه صلة. يظن البعض أن سبب الاختلاف بين أوضاع الأولاد عند ولادتهم يعود إلى أعمال كسبوها في دورة حياتهم السابقة ولكن هذا خطأ وباطل تماما. والسبب وراء وقوعهم في هذا الخطأ هو أن الأحداث التي حدثت تحت قانون الطبيعة سعَوا أن يبحثوا عن سببها في قانون الشريعة.

زبدة الكلام أن اعتقاد القائلين بالإلحاد والتناسخ مبني على خطأ واحد، أي لم تميّز كلتا الفئتين بين قانون الشريعة وقانون الطبيعة، وحاولوا أن يبحثوا عن سبب وراء أحداث طبيعية في قانون الشريعة. ولما لم يجدوه مالت إحداهما مضطربة إلى الظن أن هذا كله فوضى، وأن فكرة الإله وما شابهها فكرة باطلة، والعياذ بالله، ومالت الفئة الثانية إلى أنه ما دام الإله موجودا وهو ليس ظالما حتى يعاقب أحدا دون مبرر فلا بد أن يكون

سبب الاختلاف في حالات الأولاد عند ولادتهم عائدا إلى مغبة أعمالهم التي كسبوها في حياتهم السابقة، فاختلقوا عقيدة التناسخ، بينما لو تأمل كلا الفريقين ولو قليلا لفهموا بكل سهولة أن الله تعالى قد وضع في الكون قانونَين مختلفَين ليأخذا مسارهما، وكلاهما يعمل في مجاله الخاص، ومن الخطأ تماما البحث في قانون الشريعة عن سبب حادثٍ حدث بحسب قانون الطبيعة.

ملخص الكلام أن الأحداث التي تحدث في العالم أو ما ينتشر فيه من الأمراض أو تحل به من المصائب ويتضرر منها أحيانا الصالحون والأبرياء أيضا ليس سببها إلا أن قانون الطبيعة يختلف عن قانون الشريعة، وأن الحسنة التي كسبها المرء بحسبها لا تُنقذه من عقوبة تحل به بحسب قانون الطبيعة، ما لم يأخذ بعين الاعتبار الحيطة والحذر الذي يقدّمه قانون الطبيعة نفسه لاجتنابها. فمثلا الغرق في الماء حادث طبيعي، ولا يمكن للحسنة الدينية أن تنقذ أحدا من الغرق ما لم يتعلّم السباحة، أو ما لم يأخذ بعين الاعتبار أنواع الحذر والحيطة التي تقدمها الطبيعة لاجتناب الغرق. كذلك إن ولادة طفل ضعيفا حادث طبيعي، ومن العبث البحثُ عن سبب شرعي له، بل يجب التوجه إلى قانون الطبيعة نفسه لمعالجته. وعلى الوالدين أن يتوجها إلى علاج مرضهما أو إزالة ضعفهما أو النقص فيهما، أو إصلاح بيئتهما.

انفصال قانون الطبيعة واستقلاله عن قانون الشريعة ضروري لارتقاء البشرية

إذا اعترض أحد بالقول: لماذا لا يحترم قانونُ الطبيعة قانونَ الشريعة؟ فمثلا إذا سلك أحد مسلك الحسنة والتقوى فلماذا لا يُعصَم من حوادث القضاء والقدر؟ فجوابه الأول هو أن هذا لا يحدث، لأن كلا القانونين يعمل في مجاله الخاص. ولكن الوضع الذي قدمه المعترض يؤدي إلى دمج القانونين في قانون واحد، ولا يبقي لهما وجود منفصل، مع أن وجود قانونين منفصلين يبين أن وجودهما بصورة منفصلة أمر مقصود.

والجواب الثاني والحقُّ هو أن الله تعالى وضع هذين القانونين لنوعين من تقدّم الإنسان، أي قد وضع قانون الطبيعة لتقدم الإنسان المادي، ووضع قانون الشريعة لتقدمه الأخلاقي والروحاني. ويريد الله تعالى أن يتقدم الإنسان من كل جهة. فمثلا لو التزم المرء بقانون الشريعة وارتكب جريمة من حيث قانون الطبيعة ومع ذلك اجتنب تأثيراته السيئة لكانت النتيجة الحتمية هي وصْد باب تقدّم الإنسان المادي نهائيا. أي لو أن صلاح المرء يُنقذه من الغرق في الماء أو الاحتراق بالنار أو الدمار بواسطة الكهرباء مثلاً، فما حاجته إلى أن يدرس خواص تلك الأشياء ويفهم ماهيتها ويسعى للسيطرة عليها؟

فكّروا جيدا الآن في أن تقدم الإنسان المادي ممكن فقط نتيجة مبدأ أنه ما لم يفتح لنفسه أبواب السعادة والتقدم والبحبوحة بدراسة قانون

الطبيعة وما لم تتسن له الراحة والبحبوحة والتقدم فعلا، فيظل عاكفا على دراسة الطبيعة والبحث في خواص الأشياء. هناك مثل في الإنجليزية يقول: "الحاجة أمّ الاختراع"، أي أنه عندما يضطر الإنسان إلى شيء نتيجة حاجته إليه، يتوجه إلى اختراع أشياء جديدة. فلو سُدّت كل حاجات الناس نتيجة الالتزام بقانون الشريعة فقط لانقطع تقدّم الإنسان بكل أنواعه حتما، لأن في هذه الحالة لن يبذل أحد وقته وتركيزه في اختراع أمور مادية واكتشاف حقائق الأشياء. إذًا، إن عدم تدخّل أيّ من القانونين في مجال غيره هو الرحمة بعينها، والحوادث المذكورة آنفا أيضا مدعاة تلك الرحمة، لأنه كلما تعرض أحد في العالم لحادثة ما فالنهضةُ والصحوة التي تنشأ لاختراع الوسائل لاجتنابها تفيد في المستقبل مئاتِ آلاف الناس بل عشرات الملايين منهم. وإن إهلاك حياة واحدة أو عشر أو عشرين حياة يؤدي إلى إنقاذ ملايين الناس بل عشرات الملايين من أخطار مستقبلية محتملة.

باختصار، كلا القانونينِ المذكورين آنفا مطلوب لتقدم الإنسان في مجالات مختلفة، والخلط بينهما أو ترك أحدهما مساره للآخر مضر جدا بدلا من الفائدة وقاتل لنسل البشر. والحق أن كل ما يجري في العالم حاليا بحسب هذين القانونينِ مناسب ومبني على حكمة عظيمة لبحبوحة بني البشر وتقدمهم الاجتماعي، ولا يمكن أن يخطر بالبال أسلوب أحسن منه.

يجب التذكر أيضا في هذا المقام أن الصالحين والأتقياء الذين تصيبهم المنية في غير وقتها المناسب ظاهريا نتيجة تعرضهم لحادث أو لقانون آخر من قوانين الطبيعة ويتعرض ذووهم لحزن أو صدمة أو خسارة غير عادية نتيجة موتهم على هذا النحو، يتبين من تعليم الإسلام أن الله تعالى يفتح لهم بفضله الخاص أبوابا أخرى لرحمته، لأن الله يريد أن يحترم الناس قانونه من أجل بحبوحتهم وتقدمهم من ناحية، ولا ينقضه نظرا إلى حسنة أحد غير ذات الصلة، ومن ناحية أخرى هو رحيم جدا أيضا بعباده الصالحين، وأكثر من غيره صدقا ووفاء في علاقته، فيعوّض خسارتهم من هذا القبيل بأسلوب أو بآخر. فمثلا يورثهم إنعامات خاصة في الآخرة نتيجة تعرضهم لمصيبة في الدنيا، أو يعطي ذويهم نصيبا وفيرا من بركات الدنيا، أو يختار طريقا آخر يراه مناسبا رحمة وعدلا منه دون أن يخسر أحد حقه.

كذلك الأولاد الذين يولَدون ضعفاء وناقصي الخِلقة بسبب قانون الطبيعة، ويحول نقصهم أو ضعفهم الخَلقي دون تقدمهم الروحاني، يقول الإسلام بحقهم أن الله تعالى سيراعي حتما إعاقتهم عند الجزاء الشرعي، ولن يؤاخذهم على نقائص كان تفاديها فوق قدرتهم، ولكن يُنقص شيئا من جزاء أعمالهم بسبب ضعفهم الخَلقي، لأنه تعالى يقول في القرآن الكريم أن ميزانه يزن بالحق والعدل، وكل ما له شيء من الوزن والأهمية من أيّ نوع لا يمكن أن يبقى خارج ميزانه بأيّ حال، ولا يُهمل ميزانُه أبدا دواعي التخفيف عنهم.

لماذا يوجد الذنب في العالم؟

في هذا المقام لا بد من إزالة شبهة أخرى أيضا وهي: ما سبب وجود الذنب والظلم والاعتداء في العالم؟ فيقال بأنه إذا كان هناك إله لما وقع الناس في الذنوب والمعاصي والظلم والجَور على النحو الملحوظ. جوابه أن المعترضين لم يفهموا الهدف والغاية من قانون الشريعة. إن قانون الشريعة مبني على مبدأ أنه يقدم أمام الناس دستور العمل وينصحهم بالالتزام به، لأنه ضروري لهم، وبدونه يستحيل أن يتقدموا أخلاقيا وروحانيا. ولكن بعد تقديم هذا النصح يخيّر الناسَ ليعملوا بهذا الدستور إذا أرادوا، أو يرفضوه إذا شاءوا. ثم الذي يعمل به، فبقدر ما يعمل يستفيد من بركاته وتأثيراته الطيبة بالقدر نفسه، وينال قرب الله عز وجل. والذي لا يعمل به يُحرم من الأشياء المذكورة، وحرمانه هذا يُسمى ذنبا وجريمة. إذًا، إن الله تعالى لم يخلق الذنب، بل هو نتيجة أعمال الإنسان، وعلى ذلك لا يمكن الاعتراض على الله بسبب ذلك، بل إنّ الاستدلال ضده سبحانه وتعالى خطأ وباطل تماما.

لقد أودع الله فطرة الإنسان بذرة الحسنة، ثم أنزل من عنده شريعة لتنمية تلك البذرة وازدهارها، ونصح الناس بواسطة الآيات والمعجزات، وأتم عليهم الحجة، بأن نجاحهم وفلاحهم يكمن في الالتزام بقانون الشريعة. وإن لم يعمل المرء مع ذلك بشريعة أنزلها الله تعالى فالذنب ذنبه وليس ذنب الله، وسيكون الحرمان نتيجة فعله هو وليس نتيجة فعل الله.

ما هو الذنب؟ إنما هو عصيان الإنسان أوامرَ الله، وسلوكه مسلكا غير الذي وضعه الله له. إذًا، الذنب نتيجة فعل الإنسان نفسه وليس نتيجة فعل الله. أكان لله أن يمتنع من إرشادنا إلى طريق الهدى لأن بعض الناس ما كانوا ليقبلوا هذا الهدي؟ هل للأب أن يمتنع من نصيحة ابنه لئلا يصبح مجرما نتيجة معصيته؟ هذا كله حمق وجهل يجب أن يجتنبه كل عاقل.

ملخص الكلام أن الذنب والمعاصي والظلم ومشاهد الاعتداء المتبادل التي نراها في العالم إنما هي نتيجة أعمال الناس أنفسهم ولا تقع مسئوليتها على الله قطعا، ولا يمكن لعاقل أن يحتج على الله تعالى بناء عليها. لا تنـــزل من الله إلا الرحمة، ولكن الذي لا يستفيد منها، هو بنفسه مسؤول عن فعله.

وإذا قال قائل: لماذا لم يضع الله قانونا لا يستطيع أحد نقضه، بل يضطر الناس كلهم إلى العمل به وبالتالي لن ينشأ الذنب في الدنيا أصلا وسيكون الناس كلهم أتقياء وصالحين؟ فجوابه أنه لو كان الحال على هذا المنوال لبطل الهدف من خلق الإنسان، وهو أن يفتح لنفسه أبواب التقدم بواسطة جهده وسعيه، ويستحق إنعام الله وإكرامه بأعماله وينال قربه. فإذا كان كل شخص مضطرا إلى أن يعيش بحسب شريعة أنزلها الله تعالى لسُدّت في وجه الإنسان كافة أبواب التقدم، ولما استحق أحد الإنعام والإكرام، ولبطلت سلسلة الجهد والسعي كليا.

اعلموا أنه من الضروري من أجل استحقاق الإنعام أن يكون الإنسان مخيَّرا، أي يكون قادرا على اختيار طريق الحسنة إذا شاء وطريق السيئة إذا شاء ذلك. أما إذا كان مسيَّرا؛ لَتساوى محبو الحسنة وغيرهم، والسالكون على مسلك سليم وغيرهم، والمتحكّمون في نفوسهم وغيرهم، والصابرون والمثابرون والمجتهدون وغيرهم، ولَما بقي تمييز بين صالح وطالح. وكذلك لتوقّف التقدم الحاصل نتيجة روح المبارزة والاستباق والغبطة المتبادلة، ولما بقي في العالم دافع إلى التقدم ولاتخذ الإنسان صورة شيء متجمد، أو لأصبح على أكثر تقدير مثل الملاك الذي لا تستحق أعماله الحسنة أن تسمَّى حسنة أصلا، لأنه مضطر من حيث خَلقه إلى أن يسلك مسلكا سليما دائما ولا يمكنه أن ينحرف عن مشيئة الله قيد شعرة. لذلك قال الحكماء أن مرتبة الإنسان الصالح أعلى من الملاك، لأن الإنسان يختار الحسنة بعد التأمل والتفكير، ولكن الملاك مضطر إلى كسب الحسنة فقط، لذا فالحسنة التي يكسبها ليست حسنة في الحقيقة، لذلك يقول القرآن الكريم بحق الإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٥). أي قد خلقناه أحسن فطرةً من جميع المخلوقات، وليس لخَلق آخر أن ينافسه.

باختصار، إن كون الإنسان مخيَّرا في أعماله فذلك علامة كماله، وإن وجود الذنب هو نتيجة سوء استخدام ذلك الخيار. إذًا، لم يخلق اللهُ الذنبَ، بل هو نتيجة إنكار رحمة الله، فلا يمكن تقديمه دليلا ضد وجود الله تعالى.

دليل الملحدين السادس ودحضه

الدليل السادس الذي يقدمه الملحدون ضد وجود البارئ تعالى مبني أيضا على فوضى افتراضية في قانون الطبيعة كما قيل في الدليل الخامس. يقولون إن في العالم أشياء لا فائدة منها وإن مضرتها واضحة تماما. فيقال مثلا بأن في الدنيا أشياء لا تُعَدّ ولا تحصى بما فيها الحيوانات الضارة، والنباتات السامة، وأشياء فتاكة أخرى وهي ضارة فقط ولا فائدة منها قط، وإن وجودها يوحي بأنه ليس فوق الكون إله، وإلا لما وُجدت هذه الأشياء في العالم. جوابه: أن هذا الاعتراض ناتج عن جهل المعترضين، لأننا إذا تأملنا في الموضوع لما بقي أدنى شك في أنه ليس في الدنيا شيء بغير فائدة وهدف وغاية، وإنه لمن قلة علم الإنسان أن لا يدرك الغاية وراء بعض الأشياء، ويجهل فائدتها، ويزعم نظرا إلى تأثيراتها المضرة ظاهريا أنه لا فائدة منها. فلهذا السبب لا يثير هذا الاعتراضَ الخبراءُ في بحث حقائق الأشياء إلا قليلا جدا، بل إن عامة الناس هم الذين يثيرون مثل هذا الاعتراض عادة، لأن إلمامهم بحقائق الأشياء يكون ضئيلا جدا بسبب جهلهم، ولا يتعدى نظرهم شكل الأشياء الظاهري والمادي، ولا يتجاوز نظرهم الأفعال الظاهرية وتأثيراتها، ولا تتيسر لهم دراسة عميقة. أما الذين دراستهم عميقة فيتجاوز نظرهم الأمور الظاهرية ويصل إلى عمق الحقائق، وهم يدركون جيدا أن كل شيء يضم في طياته فائدة ما. وكلما تمت دراسة شيء ما بعُمق تتبين فوائده وأهدافه وغايته بوضوح أكثر؛ لذا

فإن لم يطّلع هؤلاء الناس على فائدة شيء معين إلى بعض الوقت فمع ذلك لا يحسبونه عبثا أو لغوا محضا، بل يبقون ثابتين على يقين أن فائدته والحكمة الكامنة فيه سوف تظهر للعيان في المستقبل نتيجة دراسة عميقة ومفصّلة، لأنهم يكونون حائزين من خلال تجارب متكررة على علم يقينٍ بأن الأشياء التي تبدو عديمة الجدوى بل مضرة في الظاهر، ففيها أيضا تُكتشف فوائد جمّة باستمرار بعد دراسة عميقة وتحقيق عميق. فالاعتراض ناتج عن جهل بحت. والحق أن كل شيء في العالم يضم في طياته حكمة وفائدة. وكلما تقدم الإنسان في مطالعة حقائق الأشياء يترسخ فيه اليقينُ ببصيرة أكثر أنه ليس في الدنيا شيء باطل.

من المؤسف أن المعترضين لا يفكرون أنه حين كان علم حقائق الأشياء محدودا جدا في الأزمنة الغابرة، وكان اهتمام الناس بالعلوم قليلا جدا، كانت في ذلك الزمن أشياء كثيرة جدا مقارنة مع العصر الراهن بدت حينها عديمة الجدوى ومضرة، ولكن بسبب تقدُّم البحوث في حقائق الأشياء والعلوم ظهرت اليوم فوائد كثير منها، ويمكن تحليل مضرتها وشرحها المعقول في ضوء العلوم الجديدة، بل أيضا يمكن إثبات أن المضرة نفسَها مفيدة لبني البشر بصورة غير مباشرة. ألا يكفي هذا المشهد ليدفع فطينا إلى الاعتقاد بأن الأشياء التي تبدو اليوم عديمة الجدوى ومضرة سوف يظهر كثير منها غدا مليئا بالفوائد الخافية فيها، وبعد غد سوف تتسع دائرة العلم والمعرفة عنها أكثر؟ وعلى هذا النحو سوف يزداد العلم

يوما إثر يوم بواسطة علوم وبحوث جديدة، ويقلّ الجهل يوما فيوما. لقد ذُكر في القرآن الكريم والأحاديث أن كنوز الأرض والسماء المخفية سوف تظهر للعيان في الزمن الأخير وتشيع العلوم الجديدة. فأيّ جهل أكبر من أن ينكر المرء بناء على علمه الحالي منفعة وحقائق أشياء لا تُعَدّ ولا تحصى، ويزعم بناء على بعض من تأثيراتها الضارة -المبنية على حِكم الله الدقيقة مع أنها تنفع البشر ومخلوقات أخرى فوائد كثيرة بصورة غير مباشرة- أنه لا يوجد فيها إلا المضرة؟

لا أريد أن أطيل المقال بضرب الأمثال، وإلا لبيّنتُ أنه توجد في الحيوانات والنباتات والجمادات أيضا ما كان يبدو من قبل غير مفيد تماما وكان يُزعَم أنه لا عمل له إلا إلحاق الضرر، بينما تخدم اليوم الأشياء نفسها البشريةَ حتى إن سموم الثعابين والعقارب وغيرها من السموم الفتاكة وجراثيم الأمراض أيضا لا تخرج عن نطاق خدمة البشرية، ولا يطلع يوم إلا ويظهر فيه صدق قول القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا﴾ (ص: ٢٨)، بوضوح أكثر من ذي قبل.

لماذا خُلقت الأشياء الضارة في الدنيا؟

أما الاعتراض القائل: إذا كان صحيحا أن الله لم يخلق أيّ شيء باطلا وخُلق كل شيء لفائدة الناس، فلماذا وُضع فيها جانب المضرة؟ ولماذا ليست الأشياء كلها مفيدة فقط دون أن تكون مضرة؟ فمثلا، أما كان

ممكنا أن تصيب الإنسانَ أو المخلوقات الأخرى الفائدةُ من الحية دون أن تكون مصحوبة بجانب من المضرة؟ فالجواب الأول على هذا السؤال هو أن خالق الفطرة فعل ما رآه مناسبا، وليس لنا أن ننقد أفعال الطبيعة، ولسنا أهلا لذلك. فليس لنا إلا أن نرى كل ما يحدث في العالم، أهو مبني إجمالا ومبدئيا على الحق والإنصاف والرحمة والعدل أم لا؟ فلما كان ثابتا أنه ليس في العالم شيء مضر فقط بل تكمن في كل شيء فوائد يقينية، وما يبدو بلا فائدة ومضرا محضا ليس كذلك في الحقيقة، بل يبدو لنا كذلك بسبب قلة علمنا، فإن الخوض في تفاصيل الفطرة وإثارة الأسئلة مثل: لماذا خُلق هذا الشيء بطريقة كذا؟ ولماذا لم يُخلَق بأسلوب كذا؟ لا يمكن أن يُعَدّ طريقا سليما قط. ولا يمكن لعاقل أن يفكر أن الذي يحسب نفسه مخلوقا مثل بقية المخلوقات يمكنه أن يكون مطلعا على مبدأ الخلق والتكوين مفصلا حتى يستطيع القول باليقين عن كل شيء أنه صُنع بحسب مبدأ كذا وبأسلوب وشكل كذا وكذا. إذًا، إن جوابي الأول هو أنه لما ثبت الأمر مبدئيًّا فإن إثارة سؤال "لماذا خُلِقَ هذا الشيء كذا و لم يُخلق كذا؟" مرة بعد مرة ليس طريقا سليما.

ثم يجب التفكير أيضا في أنه إذا تقرر ألا يُعترَف بشيء إلا بعد حَلِّ الاعتراضات الجزئية والمفصّلة كلها من هذا القبيل فلن ينتهي أيّ نقاش أبدا، لأنه يمكن تمديد سلسلة الأسئلة إلى ما لا نهاية له. فالطريق الأسلم

والأحوط هو أنه إذا فهِم المرء أمرا من حيث المبدأ فليعترف به وإن لم تُحَلَّ بعض تفاصيله الجزئية وليفوِّض البقية إلى الله تعالى.

والآن أردّ على الاعتراض ردّا مباشرا، وهو أنه إضافة إلى المضرة الكامنة في الأشياء تكون الأشياء نفسها مفيدة أيضا إذ تسفر عن بعض النتائج النافعة، فمثلا يفيد سم الحية في معالجة بعض الأمراض الخطيرة، وفائدته هذه بحسب قانون الطبيعة منوطة بكونه سُمًّا، فمضرته مفيدة ونافعة من حيث أنها تساعد كثيرا بصورة غير مباشرة في إصلاح حال بني البشر الأخلاقي وتقدُّمهم المادي. كل عاقل سيوافقني الرأي أن حلول المصائب والآلام بين حين وآخر أيضا ضروري لتكميل أخلاق الإنسان الحسنة. والذي لم يواجه مصيبة أو ألما في حياته قط لا يمكن أن تكون أخلاقه كاملة، بل لا تنمو على ما يرام كثير من جوانب تقدمه المادي أيضا بغير المصائب والآلام. لذا فإن وجود بعض الأشياء المضرة في الدنيا هو لفائدة الإنسان بصورة غير مباشرة، ولا يمكن أن يعترض عليه عاقل، ولا بد أن تكون فيه فوائد أخرى كثيرة لم نعرفها إلى الآن.

وإذا انتابت أحدا شبهة أنه إذا كانت هذه الحيوانات الضارة مفيدة في الحقيقة فلماذا تُباد؟ ولماذا يأمر الدين في بعض الحالات بإتلاف بعض الأشياء؟ فجوابه أن هناك قانونا عاما في الطبيعة يطلب الاعتدال في كل شيء في الدنيا، وأن الإفراط والتفريط ينافيان منهجه. فالأشياء التي تتضمن المضرة أيضا بصورة بارزة يكون تجاوزها حد الاعتدال مضرا

أكثر من فائدتها. فيمكن أن تكون فائدتها غالبة على مضرتها في حالة واحدة فقط، وهي ألا يزداد عددها في الدنيا. فمن ناحية خلق الله تعالى هذه الأشياء في الدنيا بكمال حكمته، ومن ناحية ثانية أودع في فطرة الإنسان، بل أمره صراحةً أحيانا ألا يدَعَ هذه الأشياء تنتشر في العالم. وبذلك تم الحفاظ على التوازن الفطري في الطبيعة.

ملخص الكلام أن كون بعض الأشياء في العالم مضرة ليس مدعاة للاعتراض قط. والحق أن كل شيء في العالم خُلق لهدف وغاية معينة، وإن مضرة بعض الأشياء أيضا هي لفائدة الإنسان. لذا إن اعتراض الملحدين هذا عبث ولغو تماما ولا يُثبت إلا جهل المعترضين وغباءهم.

دليل الملحدين السابع ودحضه وإبطال نظرية "فرويد"

الدليل السابع الذي يقدمه بعض الملحدين ضد وجود الله مبني على نظرية بعض الباحثين الجدد القائلة بأن فكرة وجود الله ردٌّ فعل لذهن الإنسان في الحقيقة. يقول هؤلاء الناس إن الطفل يكون من ناحية مرتبطا بعلاقة الحب العميق مع أبيه وميالا إليه بطبيعته وينظر إليه بنظرة الاستحسان ويحسبه وسيلة لحمايته، ومن ناحية أخرى يخافه أيضا في صغره وكأنه يحسبه خطرا على نفسه. ولكن لا تكون أفكاره على هذا النحو عن أمّه، لأنها تكون سببا مباشرا لغذائه، وتكون عواطفه تجاهها

أكثر حبا وحماسا وغالبة على العواطف الأخرى كلها، فلا يحسب الطفل أمّه مدعاة لخوف أو خطر له، ويقفز إليها في كل الأحوال، فلا تنشأ بين الطفل وأمّه عواطف الغيرة المنافسة مثلما يمكن أن تنشأ بصورة غير ملحوظة في قلب الطفل النشيط والراغب في التقدم تجاه أبيه. لبيان عواطف هذه الغيرة والمنافسة الصامتة اخترع بعض الباحثين الغربيين مصطلح "Oedipus Complex" أي "عقدة أوديب" وهو مبني على أسطورة يونانية قديمة جاء فيها أن شابا اسمه "أوديب" قتل أباه دون أن يعرف أنه أبوه ثم تزوّج أمَّه دون أن يعرف أنها أمُّه. على أية حال، يرى الباحثون أن الابن يُنشئ في قلبه عواطف الغيرة نوعا ما تجاه أبيه ويخافه، ومن ناحية ثانية يكون حبّ طبيعي تجاهه راسخا في قلبه ويحسبه وسيلة حماية نفسه أيضا. وتكون النتيجة أنه عندما يصبح شابا ويخرج من تأثير أبيه الأوّلي يشعر بفجوة أو فراغ نوعا ما في تصور "الأب والابن" الذي يكون قد ترسخ في ذهنه من قبل. وهذا الفراغ الذهني يدفعه في نهاية المطاف إلى وجود خيالي يمكن أن يقوم مقام تصور الأب عنده. وهذا الوجود الخيالي يأخذ في ذهنه صبغة وجود أعلى، أي تصوّر الإله، وهلم جرا.

هذه النظرية قدّمها أكثر من غيره فيلسوف أوروبي معروف اسمه سيغموند فرويد Sigmund Freud الذي وُلد في عام ١٨٥٦م في النمسا في عائلة يهودية ثم انتقل إلى بريطانيا تاركا وطن آبائه، ومات

في ١٩٥٤م[١٣]. لقد ألّف سيغموند فرويد كتبا كثيرة ويُعَدّ خبيرا في علم النفس بوجه خاص. لذلك أثار اعتراضات كثيرة حول تصوّر الإله والرؤى وما شابهها، فيقول عن النظرية قيد البحث ما تعريبه:

"الأمّ التي تكون سببا لتسكين جوع الطفل تكون المركز الأول لحبه، وتكون سببا أيضا لحمايته من كل نوع من الأخطار الخارجية المجهولة التي قد تواجهه في المستقبل، وتكون ملاذا له من كل خوف وذُعر. ولكن سرعان ما يحل محلّها أبوه الذي هو أقوى منها نسبيا. وهذه الحالة تبقى على حالها إلى نهاية زمن الطفولة. تتأثر علاقة البنوّة هذه بعواطف مختلطة من نوع خاص. ففي البداية يشكل الأب خطرا وخوفا نوعا ما على الطفل بسبب علاقاته المبنية على الحب والحماية من قِبل الأمّ. في بداية الطفولة يحب الطفل أباه، وينظر إليه بنظرة الاستحسان، ومن ناحية أخرى يخافه أيضا بالقدر نفسه... عندما يكبر الطفل في هذا الجوّ ويشعر بأن هذه الكيفية من الطفولة صارت مقدَّرة له إلى الأبد، ولا يمكنه مواجهة القوى المجهولة والغالبة دون مساعدة خارجية ونظام الحماية، يحسب تلك القوى المجهولة والغالبة نفسها متصفة بصفات منوطة بتصوُّر الأب، ويخترع لنفسه آلــهة يخافها، ويريد أن يُرضيها أيضا في الوقت نفسه ويتخذها وسيلةً لحمايته. فتفسير تصوُّر الإله أن الطفل يريد أن يعتصم بتصوُّر أبيه بعد أن يكبر أيضا، أو -بحسب التفسير الثاني- يشعر

[١٣] هكذا ورد في الأصل بخطأ الناسخ، والصحيح: ١٩٣٩م. المترجم.

بضرورة الحماية الخارجية لاجتناب نتائج الضعف البشري. باختصار، إن رد فعل الطفل الدفاعي في طفولته ضد ضعفه وقلة حيلته يحوّل شعوره بالضعف نفسه في زمن الشباب وفترة الإدراك إلى هيئة معينة. وهذا التحوُّل نفسه هو الأصل لتغير المذهب وفكرة الإله.[١٤]

لقد شرح سيغموند فرويد Sigmund Freud نظريته هذه في أماكن أخرى وكتب الكثير حول "عقدة أوديب"، وإن كان عديد من الباحثين من الغرب لا يعترفون بنظريته، ولكن أرى ضروريا أن أردّ ردّا مبدئيا على هذا الاعتراض المبني على هذه النظرية وتبعاتها.

يجب أن يكون معلوما أولا أن هذه النظرية في الحقيقة فرعُ نظريةٍ ناقشناها في بداية هذا الكتاب تحت "دليل القبول العام"، وهي مبنية في الحقيقة على عاطفة تسمى في العُرف "عقدة الدونية". فمن هذا المنطلق ينبغي أن يكون جوابنا الذي كتبناه في البحث المذكور جامعا وشاملا دون الحاجة إلى إعادته هنا. ولكن هناك أمر جدير بالاهتمام عن نظرية سيغموند فرويد Sigmund Freud، وهو أنها تبدو ناتجة عن تعليم المسيحية -لأنه عاش في تلك البيئة- سواء أشعر سيغموند فرويد نفسه بذلك أم لم يشعر، وذلك لكونه يهوديا. وما دام الإلهُ قد قُدِّم في تعليم المسيحية -مقابل فلسفة اليهودية المزعومة- بصورة الأب مجازا، فقد

---

[١٤] The Future of an Illusion By Sigmund Freud P 41-42 (سيغموند فرويد: مستقبل الوهم، ص٤١-٤٢)

اتخذ المسيحيون القادمون فيما بعد الإلهَ أبا في الحقيقة، واتخذوا المسيح عليه السلام ابن الله الحقيقي، والعياذ بالله. إن فكرة الأب والابن شائعة ورائجة على نطاق واسع جدا في البلاد المسيحية والمجتمعات المسيحية. لذا لم يتحرر ذهن سيغموند فرويد من تأثير البيئة المحيطة به مع كونه يهودي المولد ومع كونه عالما كبيرا وخبيرا جدا في علم النفس. ولما لم يكن نصرانيا، لذا ليس مستبعدا أن يكون قد حسب المسيح الناصري عليه السلام أيضا ضحية الشعور بالدونية نفسها.

على أية حال، يبدو أن هذه القصة كلها مظهر مَثل فارسي معناه: "يا ثقافة طبعي، قد جلبتِ المصيبة عليّ".

المشكلة أن العقلاء وأهل الفطنة أيضا لا يفرّقون أحيانا بين "الإمكانية" و"الواقع"، فيسعون جاهدين للبحث عن أسباب إمكانية شيء، ويثبتون بحسب زعمهم فكرة أن أمرا كذا يمكن أن يكون على نحو كذا، ثم يسرعون فورا مغمضين عينيهم إلى نتيجة أن ذلك الأمر سيكون على هذا النحو تماما، بينما من الواضح أن إمكانية حدوث أمر ما شيء وحدوثه على صعيد الواقع شيء آخر. هناك إمكانية لحدوث مئات آلاف الأمور في العالم، ولكن كم منها تحدث على صعيد الواقع. إذًا، الاستدلال من إمكانية حدوث الشيء على صعيد الواقع حمق محض. فالجواب الأول على هذا الاعتراض هو أنه لو افترضنا جدلا أن عواطف الغيرة يمكن أن تنشأ في قلب الابن أحيانا تجاه أبيه

دون أن يشعر بها، كذلك إذا افترضنا أنه يمكن أن يشعر نتيجة عواطف الغيرة بالفراغ بعد أن يكبر، لأنه يظل في البحث عن تصور الأب كما كان قائما في طفولته، ولو افترضنا أيضا أن الشعور بهذا الفراغ قد يقوده إلى فكرة الوجود الأعلى أحيانا التي يمكن أن تقوم مقام تصوُّر أبيه، فكيف ثبت بناء على كل هذه الإمكانيات المستبعدة أن جميع الأقوام في العالم -التي وُجدت في أنحائه المختلفة، وكانت في الزمن الابتدائي على الأقل مستورة ومحجوبة عن بعضها- قد حدثت فيها كلها هذه الإمكانية دائما على صعيد الواقع على هذا النحو تماما دون أيّ استثناء؟

والأغرب من ذلك أنه إذا قُبلت تلك الإمكانيات كلها فهي تبدو ضعيفة جدا وعديمة الأهمية وبعيدة عن الفهم أمام إمكانيات أخرى تقابلها. فمثلا إذا كان صحيحا أن هناك إمكانية أن يُنشئ الابن في قلبه نتيجة بعض الظروف عواطف الغيرة تجاه أبيه، فمع ذلك من الواضح أن تجربتنا العملية في هذا العالم تشهد على أن هذا نادرا جدا ما يحدث. بل المعروف بصورة طبيعية في معظم الأحيان وأغلبها هو أن يبقى الابن مخلصا ووفيّا لأبيه في كل الأحوال، وإذا سبق أباه في المجال العلمي أو العملي، فمع ذلك يجعل إخلاصُه الطبيعيُّ والفطري نظراتِه خاشعة أمام أبيه دائما.

فالإمكانية المزعومة المذكورة، هي بعيدة عن الفهم جدا. وهذا هو حال الإمكانيات المزعومة الأخرى التي يقدّمها الباحثون الغربيون. فنظرية الغيرة والفراغ الذهني في الظروف العادية ليست إلا وثنا يُنتجه الوهم البحتُ، ولا نحتاج لكسره إلى ضربة قوية. إن إنكار وجود الله بناء على إمكانيةٍ بعيدة، وبترك أسلوب فطري وطبيعي -حيث أثبتنا وجوده ﷻ في فصل شهادة القبول العام وشهادة الصالحين- ليس إلا ميلٌ شخصي إلى الكفر. ويبدو جليا أن الذين قدّموا هذه الأدلة أنكروا وجود الله في بيئتهم المادية أولا، ثم فكّروا في الأدلة فيما بعد.

الحق أن الشعور بالدونية الذي عدّه بعض الباحثين دليلا ضد وجود الله تعالى دليل قوي على وجود الله تعالى في الحقيقة، فقد ظل الباحثون المسلمون الأوائل يقدّمونه لإثبات وجود الله تعالى. فهناك مقولة معروفة لعليّ ؓ الخليفة الرابع للنبي ﷺ حيث قال: "عرفتُ ربّي بفسخ العزائم". ففي مقولة عليّ ؓ هذه الوجيزة ظاهريا والزاخرة بالمعاني، تكمن الفلسفة نفسها التي يصفها بتعبير آخر بعضُ المحرومين من الروحانية المعاصرين بمصطلح: "الشعور بالدونية" ويقدمونها ضد وجود الله ﷻ. إن قول سيدنا علي ؓ يعني أن الإنسان يعقد أحيانا عزائم كبيرة لنيل هدف معين، ويجمع بخططه القوية كافة الأسباب الضرورية ظاهريا للنجاح في الموضوع حتى لا تبقى في طريق تحققها أية عرقلة، فيظن أنه نال ذلك الهدف، ثم تظهر من الغيب فجأة ظروف

تفرِّق لحمة خططه القوية وسداها وتتمزق صخرة عزائمه وتنهار. عندئذ يفهم العاقل أن العزائم والخطط الظاهرية وحدها ليست كل شيء في هذه الدنيا، بل هناك قوة عليا فوق الخطط البشرية وأقوى من عزائمه ولا أهمية أمامه للإنسان مع عقله العظيم وفطنته الكبيرة وأسبابه الواسعة أكثر من دودة ميتة. وهذا هو الشعور بالدونية التي بواسطتها يهتدي العاقلون في الدنيا إلى الله تعالى دائما. ولكن من المؤسف أن الباحثين الماديين الغربيين قد جعلوه سببا لعثارهم.

أيها الأعزة، فكّروا جيدا وتأملوا أن النقطة المركزية لنظرية سيغموند فرويد -بعد فصل الأجزاء الإضافية عنها- ومن على شاكلته ليست إلا أن الإنسان بطبيعته يبحث عن وجود أعلى وأقوى يمكنه أن يتخذه أسوة له ويكون مرعوبا أمام علمه الغالب وقدرته الغالبة ويحسبه وسيلة لحمايته. فلما كانت هذه هي النقطة المركزية لنظريتهم فالواضح أن هذا الدليل يؤيد وجود البارئ تعالى ولا يخالفه. ولقد بيّنّا في الجزء الأوّلي من هذا الكتاب أن القرآن الكريم بنفسه قدّم هذا الدليل كدليل الفطرة لإثبات وجود الله.

فالقول بأن تصوُّر الأب يُحدث في ذهن الابن فجوة أو فراغا بعد أن يكبر، ولملء هذا الفراغ يُنشئ في نفسه تصور إله خيالي رويدا رويدا، ليس إلا ادعاء فارغا، ويتنافى مع فطرة الإنسان الصادقة ورؤية الناس الواسعة على المستوى العالمي. غير أنه صحيح القول بأن فراغا يبقى

موجودا حتما في فطرة الإنسان بغير الإيمان بالله. وهذا الفراغ نفسه يدفع السعداء من الناس إلى الإيمان بالله في نهاية المطاف.

باختصار، من أي منظور نظرنا وجدنا أن الدليل الذي يقدمه سيغموند فرويد والذين يوافقونه الرأي ليس إلا خيال فلسفي فقط. بل الحق أن هذا الدليل في صورته الحقيقية يؤيد وجود البارئ تعالى ولا يخالفه. ولهذا السبب لم يقبل عديد من الباحثين الغربيين استدلال الملحدين هذا، بل رفضوه رفضا باتا.

هذه سبعة أدلة مبدئية يقدمها الملحدون عادة تأييدا لاعتقادهم، ولكنها ليست مما يتمسك به أناس يعتنقون معتقدا واحدا، بل يقدّمها أصحاب أفكار مختلفة، لذلك فبعضها يناقض الآخر؛ بمعنى أن قبول أحدها يستلزم رفض الآخر. ولكن لما كنت أهدف إلى دحض كافة أفكار الملحدين، لذا جمعت أدلتهم من كل نوع، وآمل أن كل شخص فهيم وفطين سيقدر على الرد على اعتراضات الملحدين العامة بعد استيعاب الردود على تلك الأدلة السبعة المبدئية. والحق أنه ليس في يد الملحدين دليل، بل الأساس الحقيقي لإنكارهم هو على زعم أنهم لم يجدوا إلى الآن على وجود الله تعالى دليلا ينشئ في قلوبهم يقينا وقناعة. لذلك إن المتفهمين منهم نسبيًّا لا يدّعون قط أن الإله ليس موجودا، لأن هذا الادعاء يحمِّلهم مسؤولية لا يقدرون على تحمّلها، بل يكتفون بالقول فقط بأنه ليس عندهم دليل على وجود الله. ولكن الذين قرؤوا

مقالي هذا بأمانة وتدبر يكونون قد فهموا حتما أن كفة الأدلة على وجود الله ضمن باب الأدلة العقلية أيضا راجحة بحيث لا يسع عاقلا أن ينكر وجوده على الأقل بعد فهمها.

والحق، كما قلتُ بصراحة تامة في بداية المقال أن الأدلة العقلية لا تقدر إلا على أن تُنشئ مرتبة اليقين الأوّلية فقط بوجود الله، ولا يمكن أن يتولّد بواسطتها اليقين الكامل والقطعي بل لهذا الغرض هناك حاجة إلى أدلة أخرى نطّلع عليها من خلال آيات الأنبياء والصلحاء ومعجزاتهم.

الشيوعية والاعتقاد بوجود اللّٰه

قبل إنهاء هذا الموضوع أرى ضروريا أن أبيّن شيئا عن الشيوعية، أي النظام الروسي الحالي، لأن بعض الناس يحسبون هذا النظام أيضا فرعا من الإلحاد وأحد مظاهر رفض وجود الله، مع أننا لو تأملنا في الموضوع لوجدنا أن الشيوعية ليست إلا نظاما اقتصاديا فقط ولا علاقة طبيعية لها في الحقيقة مع وجود الله أو عدم وجوده. ولكن كما حسِب بعض المستعجلين مسألة الارتقاء ضد وجود الله، كذلك زعم بعضٌ من قصيري النظر أن الشيوعيةَ أيضا ضد وجود الله، ولكن الحق أنه لا علاقة لها مطلقا بمسألة وجود الله بغض النظر عما إذا كانت مبادئ الشيوعية صحيحة أم خاطئة، أو إلى أيّ مدى هي صحيحة أو خاطئة. إنها نظام اقتصادي فقط بواسطته سيطرت حكومة روسيا على وسائل الدخل والإنتاج، وحاولت تقسيم ثروة البلاد على قدم المساواة بحسب زعمها. ومع أنها أخطأت في هذا السعي، وإن تأثيراتها الضارة تلاحَظ في الخفاء الآن أيضا، وتشهد عليها التغيرات الحادثة كل يوم في نظام الشيوعية، ولكن تأثيرها الضار سوف يتبين أكثر بعد بضعة أجيال، لأن تأثير منظومات كبيرة مثلها لا يظهر فورا. على أية حال، إنها نظام اقتصادي فقط ولا علاقة لها بمسألة وجود البارئ تعالى. ولما شق هذا النظام طريقه بكسر أنظمة البلاد الحالية

بما فيها تلك التي تُنسب إلى أديان مختلفة، لذا حدث اصطدام هذا النظام ظاهريا مع تعليم الأديان.

والسبب الثاني لهذا الاصطدام هو أن زعماء الشيوعية خططوا للتأثير على أذهان الأطفال والشباب في روسيا بإزالة التعليم الديني كليا من المدارس والمعاهد حتى لا يتأثر الطفل بأفكار تنافي مبادئ الشيوعية. وبالنتيجة عمّ الإلحادُ البلادَ كلها. ولكن هذا الإلحاد ليس جزءًا من الشيوعية، بل هو نتيجة طبيعية للظروف السائدة والمحيطة به. وليس في الشيوعية بحد ذاتها ما يشكّل دليلا مباشرا ضد وجود الله. لا شك أن نظام الشيوعية الحالية يخالف تعاليم الأديان المعروفة في كثير من الأمور المبدئية وعديد من التفاصيل، ومن الناحية العقلية أيضا يضم في طياته عناصر مضرة كثيرة سوف تظهر مساوئها الخطيرة بعد بضعة أجيال علنا وإن لم تظهر إلى الآن. على أية حال، إن مبدأ الشيوعية الأساسي اقتصادي وليس روحانيا أو دينيا، وبالتالي لا يصح تقديمها في تأييد الإلحاد بأيّ حال.

الحق أن النظام المالي في أوروبا كان يعمل منذ مئات السنين بأسلوب أدّى إلى اكتناز ثروة الأقوام والملوك في أيدي فئة ثرية معينة، وسُحقت الفئات الأخرى بِرَحَى الفقر والإفلاس، وآلت حالتهم إلى أن حياة الفقراء لم تَعُد أفضل من الحيوانات إن لم يُغيَّر النظام الحالي بشجاعة. وهذه الحالة لوحظت في روسيا بصورة أكثر ترويعا من غيرها، حيث قامت حكومة

القياصرة المستبدة وعيشُ الأثرياء الرغيد بتضييق الخناق على الفقراء. فكما يكون هناك رد فعل ضد كل نظام ظالم طويل الأمد ويأخذ صبغة التمرد ضد النظام القائم، كذلك ظهر رد الفعل ضد النظام السابق في روسيا بصورة الشيوعية التي أحدثت في البلاد انقلابا خطيرا وأسست نظاما جديدا. ففي النظام الجديد تلاشت سلسلة القياصرة وزالت شوكة الأثرياء وفقد الأغنياء ثروتهم، ووُضع أساس النظام الشيوعي واسع التأثير لتوزيع ثروة البلاد بالتساوي ظاهريا. فكما تضم كل ردة فعل وتمردٍ ضد نظام قائم في طياتها نزعةَ الميل إلى أقصى حد في الجانب الآخر، كذلك تمردت ردة فعل الشيوعية وبلغت الحد الأقصى في جانب آخر. ومن الواضح أنه كما كان الوصول إلى الحد الأقصى في جانب مضرا، كذلك الوصول إلى الحد الأقصى في الجانب الآخر زاخر بالأخطار والمضرات بالقدر نفسه. أما لو لم تظهر الأخطار للعيان الآن بوضوح بسبب الحماس المؤقت فهذا أمر آخر. وتلك الأخطار تتلخص فيما يلي:

١- جعلت الشيوعيةُ الثروةَ ووسائل إنتاجها في يد الحكومة كليا، ودمّرت الدافع الأكبر للسعي على الصعيد الفردي. من الواضح أن دوافع العمل في الدنيا تفوق العدّ والإحصاء، ولكن الدافع الأكبر من غيره، والملحوظ في الناس من كل فئة وطبقة على حدّ سواء وهو جزء من فطرة البشر لا يتجزأ، يتعلق بعاطفة أن يأكل الإنسان ثمرة جهده مباشرة أيضا. ولكن الشيوعية قضت على هذه العاطفة قضاء نهائيا. لا شك أن عاطفة

مساعدة الآخرين مودعة في كل إنسان نبيل ولا مندوحة منها، فينفق عليهم جزءا من ماله ووقته، وقد ركّز الإسلام كثيرا على هذه العاطفة، ومع ذلك إن فكرةَ نوالِ الإنسان الجزء الأكبر من ثمرة جهده أكبرُ دافع فطري يدفعه إلى العمل. ولكن الشيوعية قضت على هذا الدافع قضاء نهائيا، وبذلك قللت من سرعة تقدم الإنسان.

٢- العيب الكبير الثاني في نظام الشيوعية هو أنه لما وقعت وسائل الثروة كلها في يد الحكومة ضعفت في الناس عاطفة الاستباق والمنافسة شيئا فشيئا. وما دام لروح الاستباق دخلٌ كبير في تقدُّم الإنسان فسيُسفر هذا التغير عن الانحطاط القومي رويدًا رويدا. فمثلا حيثما أسست عدةُ شركات أو أناس كثيرون مصانع لصنع السيارات أو الطائرات وبذلوا جهودا ومساعي حثيثة لتنمية هذه الصناعة، ستكون فيما بينهم الغيرة المشروعة والمنافسة وروح الاستباق، وإلى جانب ذلك يكون جزء من تلك الصناعة في يد الحكومة أيضا، فستنمو وتزدهر حتما تلك الصناعة كثيرا. ولن تزدهر مقابلها صناعة تعمل تحت نظام واحد في البلد كله دون وجود المنافسة والمسابقة، وبالنتيجة يبدأ البلد بالانحطاط رويدا رويدا بدلا من التقدم والازدهار. ومما لا شك فيه أنه يمكن وضعُ بعض الصناعات المعينة تحت تصرُّف الحكومة، بل يجب وضعها، ولكن تعميم هذا المبدأ على كافة الصناعات في البلد بمنـــزلة زرع بذرة دمار القوم والبلد.

٣- ستكون النتيجة الحتمية للأمور المذكورة آنفا أن في النظم الشيوعية تخف سرعة نمو القوم الذهني والعقلي رويدا رويدا ويصبح ذهن المرء كآلة فقط في نهاية المطاف بدلا من أن ينمو ويتقدم.

٤- في النظام الشيوعي قُضي على عواطف المواساة الفردية أيضا، لأنه لما تكون رعاية الفقراء والمحتاجين في يد الحكومة فقط ولن يكون عند أحد مال إضافي ليساعد محتاجا أو يُقدّم إلى أحد من الأقارب هدية، تتضاءل بطبيعة الحال الأخلاق الفاضلة المتعلقة بالحب والموالاة والمواساة والتضحية والضيافة ومساعدة الفقراء وصلة الرحم وخدمة الجيران رويدا رويدا، ويصبح المجتمع البشري كآلة فقط، كما يحوَّل في بلاد الغرب في هذه الأيام كل شيء وكل عمل إلى آلة.

٥- وعيب آخر في نظام الشيوعية هو أنه لم تقدَّر فيه قوى الإنسان الذهنية العليا بقيمة إضافية، بل قيست بالمقياس نفسه الذي قيست به قوى العامل أو الأجير العادي. ولا يمكن أن تكون نتيجة هذا النظام النهائي إلا إفلاس القوم ذهنيا. ولكن ما دامت النتائج مثلها تظهر بعد فترة من الزمن، لذا فقد أُهملت مثل هذه الأخطار كلها في نشوة الحماس الحالي.

على أية حال، فإن نظام الشيوعية هو رد فعل طبيعي ضد النظام الروسي القديم والظالم. ولكنه ظهر بصورةٍ مبالغ بها إلى أقصى الحدود

بدلا من البقاء في حد الاعتدال، والنتيجة العملية هي أن القوم أُخرِج من هوَّة (الرأسمالية) ويُدفع إلى هوَّة أخرى (الشيوعية).

نظام توزيع الثروة في الإسلام بالعدل

الإسلام دين الفطرة الصحيحة ومنــــزَّل من خالق الفطرة، فيعلّم في شريعته الحكيمة الاعتدال الكامل والوسطية واجتناب كِلا الحدين، فلا يحرم الإنسان مثل الشيوعية من أكل ثمرة جهده وسعيه الشخصي الذي هو الدافع الأكبر وراء جهد الإنسان الفردي، ولا يفتح مجالا لتُكتنــَز الثروة في أيدي بعض الناس أو عند فئة معينة واحتكارهم لها. وقد أعطى الإسلام لهذا الغرض بعض الأحكام الحكيمة والأساسية أسجلها فيما يلي بإيجاز في بضع جمل فقط:

أولا: لقد وضع الإسلام قانون توزيع الإرث، فتتوزع ثروة البلد بالعدل تلقائيا نتيجة العمل به، لأنه لم يجعل الابن البكر أو الأولاد الذكور فقط ورثة، بل جعل في الإرث نصيبا للأولاد جميعا سواء أكانوا ذكورا أو إناثا. وبالإضافة إلى الأولاد لم يحرم منه الأزواج والوالدين، وفي بعض الحالات لم يحرم الإخوة والأخوات والأقارب الآخرين أيضا. وبالنتيجة تتوزع ثروة البلاد بالعدل بصورة طبيعية ولا تُكتنــَز في أيدي بعض الناس فقط.

ثانيا: لقد حرّم الإسلامُ الربا. ولما كان الربا هو السبب الأكبر لتوزيع الثروة بصورة غير عادلة إضافة إلى مساوئه الأخرى، لذا فقد سُدّ تلقائيا باب اكتناز ثروة البلد في أيدٍ قليلة نتيجة حرمته. لا شك أنه يبدو في بادئ الرأي بسبب اتساع شبكة الربا في العصر الراهن كأن الأمور لا يمكن أن تستقيم بغيره، ولكن هذا خطأ نشأ نظرا إلى البيئة المحيطة حاليا، وإلا حين حكم المسلمون أكثر من نصف العالم كانت التجارات كلها تجري بغير الربا، وستجري في المستقبل أيضا بإذن الله.

ثالثا: لقد حرّم الإسلام القمار أيضا، لأن هذه العادة العبثية تفتح بابا لتوزيع الثروة بطريقة غير عادلة، وتعُمّ عادة إضاعة الوقت في اللهو واللعب وتأسيس الدخل على الصدفة المحضة بدلا من كسب الأموال بالجهد والسعي والخبرة.

رابعا: لقد منع الإسلام من جمع الأموال واكتنازها أيضا، وأمر باستثمارها في الصناعة والتجارة في البلاد لتكون وسيلة لكسب العاطلين معاشهم.

خامسا: لقد فرض الإسلام ضريبة ضخمة بصورة الزكاة على ثروة كل ثري، وأمر أن تُوزَّع أموال الزكاة على الفقراء والمحتاجين وغيرهم، وتُنفق لمساعدة العاطلين الذين يملكون الخبرة ولكن لا يجدون وسائل الاستفادة من خبرتهم. لقد بيّن الإسلام الهدف من نظام الزكاة قائلا: "تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ". (صحيح البخاري، كتاب

الزكاة). كذلك الدفائن والكنوز التي تُخرج من الأماكن الخاصة بأحدٍ فقد فرض الإسلام عليها أيضا ضريبة ضخمة أي عشرين بالمائة، وبذلك فتح طريقا لمساعدة الفقراء.

سادسا: إضافة إلى الضريبة الإلزامية أمر الإسلام المسلمين أمرا مؤكدا أن يتصدقوا على الفقراء من أموالهم لكي ينتبه الناس بصفتهم الشخصية أيضا إلى مساعدة إخوتهم الفقراء والجيران -إضافة إلى الزكاة التي تُجمع وتُنفق بواسطة الحكومة- وترتقي فيهم روح الأخوة والتعاون والمواساة المتبادلة.

سابعا: لقد أمر الإسلام أنه إن لم تكن رعاية الفقراء ممكنة على ما يرام بالوسائل المذكورة آنفا فيجب على الحكومة أن تدبّر أمر مساعدتهم من خزينتها حتى تصل إلى كل شخص المعونات الضرورية.

تلك هي الأساليب السبعة المبدئية التي دبّر الإسلام بواسطتها توزيع الثروة في العالم على قدم المساواة، ومساعدة الفقراء والمحتاجين (للاطلاع الشامل على البحث حول موضوع الإسلام والشيوعية، أرجو مطالعة تأليف الخليفة الثاني ﷛ بعنوان: "نظام الاقتصاد في الإسلام"، وتأليفي بعنوان: "الشيوعية والإسلام").

من الواضح أنه إذا بقي باب استفادة الناس من ثمرة جهودهم الشخصية مفتوحا عليهم، ولم تتعرض قوى الإنسان الذهنية للخمود والجمود لكونها محرومة من الدافع الفطري والمبارزة المشروعة، كذلك إذا

قام نظام توزيع الثروة بالعدل ونظام استثمار ثروة البلاد على الدوام؛ لكان ذلك طريق الاعتدال تماما الذي سيجمع في طياته الخيرات من كِلا الطرفين، أي الرأسمالية والشيوعية، مجتنبا مساوئهما. وهذا هو المسلك الذهبي الذي اختاره الإسلام.

ملخص الكلام: ليست للشيوعية الروسية علاقة مباشرة مع الإلحاد من حيث مبادئها الأساسية، بل هي نظام اقتصادي فقط هاجم تعاليم الأديان هجوما غير مباشر من أجل استحكامه. ولكن كما قلنا من قبل إن هذا الهجوم ليس إلا ردة فعل عمياء فقط تزيح الناس من حد أقصى في طرف وتدفعهم إلى حد أقصى آخر في الطرف المقابل. وفي ردة الفعل هذه يكمن دمارها النهائي. أما تعليم الإسلام مقابلها فهو مبني على الاعتدال والعدل والإنصاف الكامل. عندما تصحو روسيا من نشوة ردة فعلها الحالية لن تجد مكانا آمنا إلا في دين الفطرة، أي الإسلام.

النهـاية

هنا أُنهي جزء المقال المتعلق بالأدلة العقلية على وجود البارئ تعالى، وأكرر، كما قلتُ في بداية المقال، أنني تحاشيت فيه البحوَث العلمية الدقيقة وبيّنت الأمور العادية فقط بشيء من التفصيل. والحق أن معظم المخاطَبين في مقالي هم جيل الشباب الذين يتشبثون أحيانا بأفكار الإلحاد متأثرين بالثقافة الحديثة بصورة خاطئة بسبب نقص في طبائعهم. ولكنني أرى أن ما كتبته يكفي لنقيّ القلب. وإذا بقيَت في قلب أحد شبهة بعد قراءة هذا المقال أيضا فآمل أن إزالتها ستكون ممكنة في ضوء هذه الأمور المبدئية التي ناقشتُها. ولكن ليس عندي ولا عند غيري علاجُ من لا يريد أن يخرج من دوامة الشبهات ويخوض في بحث عقيم دون مبرر أو ليس مستعدا لمعرفة الحق والصدق عاصبا عينيه بعصابة العناد والتعصب، بل إن علاج هؤلاء الناس بيد الله فقط. أدعو الله تعالى أن يزيل اعوجاجهم بفضله ويزيل عن أعينهم غشاوة العناد، ويهيّئ أسبابا مناسبة حتى لا يرحل من هذه الدنيا أحد دون معرفة خالقه ومالكه، لأنه ما من حرمان أو شقاوة أسوأ من أن يرحل الإنسان من العالم دون أن يعرف خالقه وسند حياته ومنبع القدرات كلها ومصدرها.

أُنهي مقالي هذا بإيراد مقتبس جميل من كلام المسيح الموعود عليه السلام حيث يقول:

ما أشقى الذي لا يعلم بعدُ أن له إلهًا واحدًا قادرًا على كل شيء! إنّ فردوسنا إلهنا، وإنّ أعظمَ ملذّاتِنا في ربّنا، لأننا رأيناه ووجَدْنا فيه الحسنَ كله. هذا الكنـــز لجديرٌ بالاقتناء ولو افتدى الإنسانُ به حياتَه، وهذه الجوهرة لَحَرِيّةٌ بالشراء ولو ضحّى الإنسان في طلبها كلَّ وجوده. أيها المحرومون، هلُمّوا سِراعًا إلى هذا الينبوع ليروي عطشكم. إنه ينبوع الحياة الذي ينقذكم. ماذا أفعل؟ وكيف أُقِرُّ هذه البشارة في القلوب؟ وبأيّ دفٍّ أنادي في الأسواق بأنّ هذا هو إلهكم حتى يسمع الناس؟ وبأيّ دواء أعالج حتى تنفتح للسمع آذانُ الناس؟ (سفينة نوح)

تتمة

لقد أنهيت بفضل الله تعالى بحث الأدلة العقلية على وجود البارئ تعالى، ولكن كما قلت في بداية المقال بأن هذه الأدلة تقود المرء فقط إلى الإيمان بأنه يجب أن يكون لهذا الكون خالق ومالك. والواضح أن الإيمان بـــ "يجب أن يكون"، مهما كان قويا، أضعف وأدنى درجة على أية حال من الإيمان بأن لهذا الكون خالقا ومالكا حتما، لأن الإيمان في مرحلة "يجب أن يكون" يمثّل قرينة قوية وإشارة واضحة فقط، بينما الإيمان بـــ "موجود في الحقيقة" يحظى بدرجة مشاهدة معينة، فكأن الإنسان يرى اللهَ عيانا ولا يبقى مجال لأي شك قط. وسأورد الأدلة عن اليقين المذكور أخيرا في الجزء الثاني من الكتاب بإذن الله، وسأبيّن كيف يكشف الله تعالى الذي هو وراء الوراء وجوده على العالم بواسطة الأنبياء والأولياء، وكيف يُري عبادُه الأصفياءُ هؤلاء تجليات علمه ﷻ وقدرته الأزلية ويقرّبونها إلى أعين الناس كما لو أنه نزل على الأرض ومثُل أمامهم. هذا هو المشهد نفسه الذي أراه آدم عليه السلام الناسَ في زمنه ونوح في عصره وإبراهيم في عصره، وعيسى في وقته، ثم أراه محمدٌ المصطفى ﷺ (فدته نفسي) الناسَ في عهده، واليوم يريه المسيحُ الموعود عليه السلام. فقال عليه السلام كنائب وخادم للنبي ﷺ مخاطبا العالَـــم بما مفاده:

تعالوا لأريكم أن الله موجود وهو عليم، لأنني لا أملك علما كاملا لكوني بشرا، ولكن الله يقول لي بأن كذا سوف يحدث على نحو كذا، ثم يحدث في نهاية المطاف كما قال الله على الرغم من كونه مستورا في آلاف الحُجُب، فتعالوا وامتحنوا ذلك. أريكم أن الله موجود وهو قدير، لأني لا أملك قدرة كاملة لأني بشر، ولكن الله تعالى يقول لي أنه سيفعل كذا على نحو كذا وكذا، وهذا لا يمكن حدوثه بقوة البشر، وتحول دون حدوثه آلاف العراقيل، ولكنه مع ذلك يحدث كما قال الله، فتعالوا وامتحنوا ذلك. أريكم أن الله موجود وهو سميع يسمع أدعية عباده، لأني أدعوه تعالى في أمور تبدو مستحيلة تماما في بادئ الرأي ولكن الله تعالى يحققها نتيجة أدعيتي، فتعالوا وامتحنوا. أنا أريكم أن الله موجود وهو نصير، لأنه حين تحيط نار العداوة بعباده الصالحين من كل حدب وصوب يفتح الله لهم طريق الخلاص بنصرته، فتعالوا وامتحنوا ذلك. أريكم أن الله موجود وهو خالق؛ إني لا أملك قدرة على الخلق، ولكنه تعالى يري تجليات الخلق بواسطتي كما أسقَطَ قطراتِ حبره على قميصي بغير وجود مادة وآلة. تعالوا وامتحنوا ذلك. أريكم أن الله موجود وهو مكلِّمٌ ويكلّم عباده الخواص بالحب واللطف كما كلّمني، فتعالوا وامتحنوا. أريكم أن الله موجود وهو رب العالمين، لا يخرج شيء عن نطاق ربوبيته، لأنه عندما يترك تربية شيء لا يمكن أن يبقى ذلك الشيء قائما أيا كان، تعالوا وامتحنوا

ذلك. ثم أريكم أن الله موجود وهو مالك، لأنه ما من شيء في الخلق يمكنه أن يعصي أمرَه، وهو قادر على التصرف في أيّ شيء يشاء. فتعالوا لأريكم سيطرته على السماء وسيطرته على الأرض، تعالوا أريكم سيطرته على الهواء والمياه والجبال وعلى الأقوام، وعلى الحكومات وعلى القلوب فتعالوا وامتحنوا. (مأخوذ من مختلف كتبه عليه السلام)

هذا ادعاء كبير، ولكن فكّروا أنه إذا ثبت على صعيد الواقع فهل يمكن أن يبقى الإلحاد قائما؟ أقسم بالذي نفسي بيده، والذي سأمثُل أمامه يوما بعد الممات أن المسيح الموعود عليه السلام قد أثبت بحسب سنة الله هذه الأمور المذكورة كلها كما سأثبت في الجزء الثاني من الكتاب. والكلام الذي جرى على لسانه عليه السلام من الله تعالى لا يزال بعضه يتحقق إلى يومنا هذا كما نرى قطرات المطر الشديد نازلة من السماء، وبعضه سيتحقق في المستقبل. فمثلا يقول عليه السلام بكل تحدّ وقوة عن مهمةٍ كلّفه الله بها:

اسمعوا جيدًا أيها الناس جميعًا! إنه لمما أنبأ به خالقُ السماوات والأرض أنه سوف ينشر جماعته هذه في البلاد كلها، ويجعلهم غالبين على الجميع بالحجة والبرهان. ولسوف تأتي أيام، وهي قريبة، تكون فيها هذه الجماعة هي الوحيدة التي تُذكَر في العالم بالعز والشرف. إن الله سوف يبارك في هذه الجماعة والدعوة بركاتٍ كبرى خارقة

للعادة، ويخيِّب كلَّ من يفكر في القضاء عليها، وسوف تستمر هذه الغلبة إلى يوم القيامة... ما جئت إلا لأزرع بذرةً، فقد زُرعتْ هذه البذرة بيدي، والآن سوف تنمو وتزدهر، ولن يقدر على عرقلتها أحد. (تذكرة الشهادتين، الصفحة: ٦٤ و٦٥).

ثم قال: إن الله تعالى قد أخبرني مرارًا وتكرارًا أنه سيرزقني العظمة الخارقة، ويرسخ حبي في القلوب، وينشر جماعتي في الأرض كلها، ويجعلها غالبة على جميع الفرق، وسينال أبناء جماعتي كمالا في العلم والمعرفة بحيث يُفحِمون الجميعَ بقوة نور صدقهم والبراهين والآيات. وكل قوم سيرتوي من هذا الينبوع. إن هذه الجماعة سوف تنمو وتزدهر بقوة خارقة حتى تحيط بالعالَم كله. ستكون هناك كثير من العراقيل والبلايا، ولكن الله سوف يزيلها جميعا من الطريق وسوف يُتِّم وعده. ولقد قال الله مخاطبًا إياي: سوف أباركك بركة تلو بركة حتى إن الملوك سيتبركون بثيابك. فأيها المستمعون اسمعوا وعوا واحتفظوا بهذه الأنباء في صناديقكم، لأنه كلام الله الذي سوف يتحقق يومًا". (التجليات الإلهية، الخزائن الروحانية، ج ٢٠، ص ٤٠٩-٤١٠).

ويقول عليه السلام عن تقدم الإسلام العالمي الذي بُعث من أجله:

"لقد اقتربت الأيام التي ستطْلُع فيها شمس الصدق من الغرب، وتعرف أوروبا الإلهَ الحق، ثمّ يُغلَق باب التوبة بعد ذلك، لأن الداخلين

سيدخلونه مندفعين، ولن يبقى خارجَه إلا الذين سُدَّتْ أبوابُ قلوبهم بسبب فطرتهم الفاسدة، والذين لا يحبّون النور بل يحبّون الظلمة.

قرُب أن تهلك الملل كلها إلا الإسلام، وأوشكَ أن تنكسر الحِراب كلها إلا حَرْبة الإسلام السماوية التي لن تنكسر ولن تَفُلَّ أبدا حتى تُمزِّق الدجلَ تمزيقا. لقد حان أن ينتشر في البلاد توحيدُ الله الحقيقي الذي يشعر به في أنفسهم سكّانُ الصحارى والبراري والغافلون عن جميع التعاليم أيضا. يومئذ لن تبقى في الدنيا أية كفّارة مصطنعة ولا إله زائف، بل إن يد الله القوية سوف تبطل مكايد الكفر كلها، ولكن ليس بسيف ولا ببندقية، بل بتنوير الأرواح المستعدّة وإنزالِ النور على القلوب الطاهرة. عندها ستفهمون كل ما أقول.

(الإعلان مستيقنًا بوحي الله القهار، بتاريخ ١٨٩٧/١/١٤م، مجموعة الإعلانات، مجلد ٢، ص ٣٠٤ و٣٠٥)

هل يمكن لوضع الجماعة الإسلامية الأحمدية الراهن التي ليست لها أهمية أكثر من نملة تدب في ميدان العالم الواسع، وهل يمكن لضعف المسلمين الراهن بحيث يُعَدّون كشخص مريض مقابل القوى غير الإسلامية، أن يخلق بارقة أمل لهذا المستقبل الباهر والعظيم؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، وهو ليس كذلك يقينا، ومع ذلك فلو تحقق ما قيل في هذه النبوءة تماما، أفلا يكون ذلك دليلا على أن فوق هذا العالم إلها

عليما وخبيرا يمسك بيده القوية حبال القضاء والقدر كما يمسك الفارس البارع زمام فرس يريد إيصاله إلى مكان معين؟

والآن أستأذن القراء الكرام، وسلام الله على الذين يقبلون هداية أرسلها الله تعالى. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العبد المتواضع لربّ العالمين

مرزا بشير أحمد من قاديان

